روبرت بار

الصحفية جيني باكستر



الصحفية جيني باكستر

تأليف
روبرت بار

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
هبة عبد المولى أحمد



الصحفية جيني باكستر

روبرت بار

Jennie Baxter, Journalist

Robert Barr

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٥٦ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩٩
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

المحتويات

الفصل الأول

جيني تتأنَّق وتلتقي الحارس

جلسَت الآنسة جيني باكستر أمام مِرآتها الضخمة؛ لتضع بعض اللمسات الرقيقة والنهائية على قبعتها وفستانها، وما بين جذبةٍ طفيفة هنا وترتيبةٍ لطيفة هناك، نظرت إلى نفسها بعينٍ يملؤها الرضا. وكان معها كلُّ الحق؛ فهي في واقع الأمر فتاة جميلة للغاية. ومن الطبيعي أن تُغدِق الفتيات الجميلات على أنفسِهن العناية الفائقة، وعلى الرغم من أن جيني تبدو جميلة في أي فستان ترتديه مهما كان تصميمُه، فإنها تحرص دائمًا على التأنُّق وارتداء أجمل الفساتين وأحدثِها. ولكن، كان من اللافت في هذه المناسبة أنها بذلت جهدًا أكثرَ من المُعتاد كي تبدوَ في غاية الأناقة، ويجب أن نُقرَّ بأنها قد نجحت تمامًا في ذلك. وكان مظهرها يبعث البهجة في نفوس أصدقائها، والغيرة في قلوب أعدائها.

أما شعرها الغزير الطاغي، الذي لم يكن ذهبيًّا خالصًا، فإنه كان — كما قد يصفه الشعراء — في لون الحنطة الضارِب إلى السُّمرة، وذا نعومةٍ مذهلة عند مَنْبَته. وعيناها تلمعان بلون أسود ساحر وتفيضان رقةً وحنانًا؛ على الرغم من أنهما إذا دعتِ الضرورة، تتحوَّلان إلى عينَين ثاقبتين يُمكنهما النظر إلى المرء فتستشِفَّان أفكاره وتَسبُران أغواره. وقد ساعدت البشرة الناعمة كمَلمَس الحرير، مع لمسةٍ من اللون الأحمر الوردي تكسو الوجنتَيْن، على إعطاء هذا المزيج الأشقر مع الشعر البُني الداكن الضارب إلى السُّمرة مَظهرًا ساحرًا للغاية، حتى إنَّ العيون لا تكتفي بنظرةٍ واحدة كي تشبع من حُسْنِها. ونظرًا إلى كونها مُميَّزة بطبيعتها، لم تُهمِل جيني اللمسة الفنية. ويجب الاعتراف بأنها تُنفق معظم دخلها كي تحويَ خِزانةُ ملابسها أفضلَ ما يمكن أن توفره باريسُ من أزياء؛ والأفضل في هذه الحالة ليس بالضرورة أن يكون هو الأغلى ثمنًا، لكن ما يمكن لامرأةٍ عادية أن تتحمل ثمنه؛ لأن جيني كتبت تلك المقالات الشيِّقة عن أحدث الفساتين الأنيقة التي نُشِرت في بعض المجلات النسائية الأسبوعية، وكان من المفترض عمومًا ألا تُؤثر هذه الحقيقة في قدرتها

على الشراء من بيوت الأزياء التي ذَكَرت عَرَضًا في كتاباتها أنها أغلى ممَّا يمكن أن تتحمَّله ميزانيتُها. وهكذا تحرص الآنسة باكستر دومًا على أناقتها؛ ولذا فإن تأثير جاذبيتها طاغٍ على الرجال، لدرجة أنهم لا يكتفون بنظرةٍ واحدة نحوَها إذا ما مرَّت بجوارهم في الطريق؛ بل يُغمغمون قائلين: «ما أروعَك!» وهي جملة، عندما تأخذ في حسبانك النغمة التي تُقال بها، تجد أنها تُمثل أقصى درجات الإعجاب التي تسمح بها لغةُ رجلٍ مُتحضر حينما يريد التعبير عن سحر عينَيها السوداوين، واعتدادِ وحيوية خطواتها الرشيقة؛ لكنَّ أيًّا من هؤلاء المُعجبين لم يجرؤ أبدًا على ملُاحقة تلك الخطوات.

وقد بالغت الآنسة جيني اليوم في التأنُّق لأنها ترغب في لفت انتباه رجلٍ ما؛ الذي لم يكن سوى السيد رادنور هاردويك، الصحفي الشهير ورئيس تحرير صحيفة «دايلي بيجل»، التي تُعتبَر حاليًّا الصحيفة الصباحية الأكثر جُرأةً في العاصمة الكبرى. وقد عملت الآنسة باكستر في بعض الصحف المسائية، والعديد من الصحف الأسبوعية، وعددٍ من المجلَّات الشهرية، وهي تتقاضى دخلًا جيدًا إلى حدٍّ معقول، لكنه مُتقطع إلى حدٍّ خطير. وقد أشعرها ذلك بعدم يقينٍ بشأن أسلوب حياتها، وهو ما لم يكن يُرضيها؛ ولذا عقدت العزم، إن أمكن، على مقابلة رئيس تحرير إحدى الصحف الصباحية، كي تحصل على راتبٍ ثابت ومأمون. ولا شكَّ أنه يجب أن يكون أيضًا راتبًا مُجزيًا. وكانت الآنسة جيني الجميلة لديها من الثقة بالنفس ما يجعلها تعتقد أنها سوف تكسب كل بنسٍ منه. وهي تعتمد، على نحوٍ منطقي تمامًا، على مهارتها وخبرتها كتوصيةٍ نهائية للحصول على راتبٍ كبير، لكنها، كأيِّ امرأة، تعلم أن المظهر الجذَّاب قد يكون عاملًا مساعدًا في حصولها على المزيد من اهتمام رئيس التحرير، حتى لو أظهر عند التعارُف أنه رجلٌ عمليٌّ صارم؛ وهو ما كان مُستبعَدًا إلى حدٍّ معقول. ثم نظرت إلى الساعة الصغيرة اللطيفة المتصلة بسوارها، ورأت أنها تقترب من الخامسة. وهي تعلم عن رئيس التحرير أنه يأتي إلى مكتبه بعد الثالثة بقليل، ويظل هناك حتى السادسة أو السادسة والنصف؛ حيث يخرج لتناوُل العشاء، ثم يعود في الساعة العاشرة أو قبلها بقليل، عندما يبدأ العمل الجاد من أجل تجهيز إصدار الصحيفة لليوم التالي. وهي لم تُرسل له طلبًا مُسبقًا لمُقابلته؛ لأنها تعلم أنها إذا حصلت على ردٍّ فسيكون مجرد طلبٍ للحصول على تفاصيل حول المقابلة المقترحة. وكان لديها إيمانٌ قوي بالكلمة المنطوقة مقابل المكتوبة. وهي تعلم أنه بحلول الساعة الخامسة سيكون رئيس التحرير قد انتهى من قراءة رسائله، ومقابلة أغلب مَن ينتظرونه، ومن ثمَّ توقَّعت الآنسة باكستر بدقةٍ أن هذه الساعة ستكون ملائمةً لمحادثةٍ قصيرة أكثرَ من أي وقتٍ آخر

قد يكون خلاله مشغولًا بمراسلاته، أو منغمسًا في العمل اليومي الشاق، مثلما يحدُث بعد العاشرة مساءً. ولديها من الخبرة بالعالَم ما يجعلها تعرف أن الأمور العظيمة غالبًا ما تعتمد في نجاحها على أمورٍ تبدو تافهة، وكانت الفتاة قد عقدت العَزم على أن تُصبح عضوًا في فريق عمل «دايلي بيجل».

ركبت بخِفةٍ في العربة التي كانت تنتظرها، وقالت للسائق: «مكتب صحيفة دايلي بيجل من فضلك؛ المدخل الجانبي.»

وعند وصولها ترك مظهرها الأنيق انطباعه الأول على الحارس الأيرلندي العابس، الذي يقف مثل كلب حراسة فظٍّ ومُخلص، ليحرس مدخل غرف التحرير في الصحيفة؛ حيث يقبع داخل كشكٍ ذي إطارٍ زجاجي، مع باب على الجانب، وفتحة صغيرة مقوَّسة عند مستوى وجهه، وهو جالس على كرسي مرتفع، كي يُراقب ويتأكد، ليس بأدبٍ شديد، أنَّ أحدًا لن يصعد تلك السلالم ما لم يكن لديه حقٌّ أكيد للقيام بذلك. لكنه عندما ألقى نظرةً على الآنسة باكستر، انزلق عن الكرسي ودَلَفَ خارجًا من الباب نحوها، وكان ذلك بمثابة تنازُل استثنائي منه تجاه مجرد زائر؛ إذ كان بات رايان يكتفي في العادة بالقول باقتضابٍ إن رئيس التحرير مشغول، ولا يُمكنه مقابلة أحد.

لكنه قال: «ماذا تريدين يا آنسة؟ هل تريدين أن تُقابلي رئيس التحرير السيد هاردويك؟ هل لديكِ موعد سابق معه؟ إذا لم يكن الأمر كذلك؛ أشكُّ كثيرًا في أن تتمكَّني من مقابلته اليوم. من الأفضل أن تكتبي إليه، وتُحددي سبب المقابلة، وإذا حدَّد لكِ موعدًا فلن تكون هناك مشكلة على الإطلاق.»

فسألتْه الآنسة باكستر: «ولكن ما المشكلة إذا قابلتُه الآن؟ إنه موجود هنا ويُباشر مهامَّ عمله في مكتبه، مثلما تفعل أنت الشيءَ نفسَه عند البوابة. وقد جئتُ أنا في مهمة عمل، وأريد أن أراه. ألا يمكنك إبلاغ السيد هاردويك باسمي، وبأنني لن آخُذ من وقته سوى لحظاتٍ قليلة؟»

«آه يا آنسة، هذا ما يقولونه جميعًا؛ يطلبون بضع لحظاتٍ ولكنهم يظلُّون هناك لساعة. وفي الواقع، لن يكون على رئيس التحرير أيُّ لوم إذا أبقى عليكِ لأطول فترةٍ ممكنة. وأنا أودُّ حقًّا أن أُبلغه باسمكِ، لكنني أخشى أنَّ هذا لن يُفيدكِ بشيء؛ إذ إن هناك أكثرَ من اثنَي عشر رجلًا في غرفة الانتظار الآن، وهم ينتظرون السماح لهم بمقابلته، وقد صعد آخِرهم منذ نصف ساعة. ولم ينزل أيٌّ منهم حتى الآن.»

قالت الآنسة جيني مُستخدمةً نبرتها الأكثر إقناعًا: «لكن بالتأكيد، هناك طريقة ما لمُقابلة رجل عظيم مثل رئيس التحرير، وأنا واثقة أنك تعرفها.»

«في الواقع يا آنسة، أنا لست مُتأكدًا من وجود طريقة، إلا إذا قابلتِه مُصادفةً في الشارع، وهو أمرٌ مُستبعد الحدوث. فكما قلتُ لكِ، هناك اثنا عشر رجلًا ينتظرونه الآن في الغرفة الكبيرة. وبعد تلك الغرفة، هناك غرفة أخرى، وبعد تلك الأخرى يُوجَد مكتب السيد هاردويك. والآن، قد يُكلِّفني الأمر وظيفتي هذه، إذا أدخلتكِ إلى الغرفة المُجاورة لتلك التي ينتظر فيها الرجال.» ثم قال الأيرلندي خافضًا صوته كما لو كان يُفشي أسرار الصحيفة: «ولكن لأصْدُقكِ القول يا آنسة، إنَّ السيد هاردويك، وهو رجل صعب المراس، يخرج أحيانًا عبر تلك الغرفة الصغيرة، ثم عبر الممرِّ ومنه إلى الشارع؛ وذلك عندما لا يريد أن يُقابل أيَّ شخصٍ على الإطلاق، ويتركهم جميعًا ينتظرون. والآن سأُدخلكِ إلى هذه الغرفة، وإذا حاول رئيس التحرير التسلُّل عبرها، عندئذٍ يُمكنكِ مقابلته والتحدث معه؛ ولكن إذا سألكِ عن كيفية دخولكِ إلى هناك، حبًّا في الله، لا تُخبريه أني مَن فعل ذلك؛ لأن هذا قد يتسبَّب في فقداني وظيفتي.»

«قطعًا لن أُخبره كيف وصلتُ إلى هناك؛ بل سأقول إنني تسلَّلت بمفردي؛ لذلك كل ما عليك فعله هو أن تُريَني الباب، ولن تُصبح هناك حاجةٌ إلى قول أي أكاذيب.»

«هذا صحيح، فكرة جيدة جدًّا. حسنًا يا آنسة، إذن اصعدي السُّلَّم معي، إنه الباب الرابع في نهاية الممر.»

منحتِ الآنسة جيني ذلك الأيرلندي المُرهف نظرة امتنانٍ جعلت الرجل، الذي حاولت الرشوة عبثًا في كثيرٍ من الأحيان إفساده، أسيرَ حُسنها إلى الأبد. ثم صعدا السُّلَّم معًا، حيث وقف الحارس على عتبته، بينما سارت الآنسة باكستر حتى نهاية الممر الطويل وتوقفت عند الباب المنشود، فأومأ لها ريان برأسه واختفى.

فتحت الآنسة باكستر البابَ بهدوءٍ ودخلت؛ فوجدت الغرفة مضاءة إضاءةً خافتة، وكانت بها طاولة وعدة كراسي. كان الباب جهة اليمين مُغلقًا، وهو الذي بلا شك يؤدي إلى غرفة الانتظار، حيث يجلس اثنا عشر رجلًا في صبرٍ مُنتظِرين مقابلة رئيس التحرير. بينما الباب المقابل، الذي يؤدي إلى مكتب السيد هاردويك مفتوح جزئيًّا. فجلست الآنسة باكستر بالقُرب من الباب الثالث، الذي دخلت هي عبرَه، مُستعدةً لاعتراض طريق رئيس التحرير المُراوغ إذا حاول الهرب.

وداخل غرفة رئيس التحرير، كان شخصٌ ما يمشي ذهابًا وإيابًا بخُطًى ثقيلة، ويُزمجر بصوتٍ أجش، يمكن سماعه بوضوح حيث تجلس الآنسة جيني. قال صاحب الصوت: «اسمع يا ألدر، إن الأمر كالتالي؛ في إمكان أي صحيفة أن تصنع ضجةً كبيرة كلَّ يومٍ إذا رغبَت في ذلك، لكن ما أريده هو الدقة، وإلا فلن يُصبح لصحيفتنا تأثيرٌ حقيقي. عندما يُنشَر مقال في «بيجل»، أريد أن يُدرِك قرَّاؤنا أن هذا المقال صحيح من بدايته إلى نهايته. أنا لا أريد الضجة فقط، بل أريد المصداقية، وليست المصداقية فحسب، بل الحقيقة المُطلقة.»

قاطعه صاحبُ صوتٍ آخر: «حسنًا يا سيد هاردويك؛ إنَّ ما يخشاه هازل هو أنه عندما تهدأ الأمور سيفقد منصبه.» وهو إما واقف أو جالس على كرسي، بقدر ما يمكن أن تُحدد الآنسة باكستر من خلال النبرة، بينما استمر رئيس التحرير القلِقُ في السير ذهابًا وإيابًا.

ثم قال رئيس التحرير: «لكن، لا أحدَ سيعرف أنه قدَّم المعلومات. لا أحد يعرف أي شيءٍ عن الأمر إلا أنت وأنا، ونحن بالتأكيد لن نكشف السر.»

«إنَّ هازل يخشى أنه في اللحظة التي سننشر فيها التقرير، سيعرف مجلس الإنشاءات العامة أنه هو مَن كشف الأرقام، بسبب دقَّتها. ويقول إنه إذا سمحْنا له بافتعال خطأ أو خطأَين، وهو ما لن يكون مهمًّا على الإطلاق ولن يُؤثر عمومًا في التقرير، فسيؤدي ذلك إلى دَرء الشك عنه. وسيفترضون أن شخصًا ما قد اطلع على السجلات، وقد ارتكب الأخطاء أثناء نسخ الأرقام وهو في عجَلةٍ من أمره، لأنهم يعرفون أنه يتمتع بسُمعةٍ طيبة فيما يخصُّ الدقة.»

قال رئيس التحرير: «بالضبط، وهذه فقط هي السُّمعة — فيما يخصُّ الدقة — التي أريد أن أكتسبها لصحيفة «دايلي بيجل». ألا تعتقد أن الحقيقة هي أن الرجل يُريد المزيد من المال؟»

«مَنْ؟ هازل؟»

«قطعًا. هل يتصوَّر أن بإمكانه الحصول على أكثر من خمسين جنيهًا في مكانٍ آخر؟»

«أوه، لا؛ أنا متأكد أن المال لا دخلَ له في الموضوع على الإطلاق. هو بالطبع يريد الخمسين جنيهًا، لكنه أيضًا لا يريد أن يخسر منصبه في مجلس الإنشاءات العامة في سبيل الحصول عليها.»

«أين تُقابل هذا الرجل؛ في منزله، أم في مكتبه في المجلس؟»

«أوه، في منزله بالطبع.»

«إذن فأنت لم تطَّلِع على السجلات؟»

«لا؛ ولكن لديه جميع الحسابات التي جرى إعدادها وجدولتُها على نحوٍ رائع، وكتب بيانًا واضحًا جدًّا للمُعاملة بأكملها. أنت تفهم بالطبع أنه لم يكن هناك اختزال أو اختلاس أو أي شيءٍ من هذا القبيل. فالحسابات ككلٍّ مُتزنة على نحوٍ مثالي، ولا يُوجَد بِنس واحد من الأموال العامة جرى تخصيصه على نحوٍ غير سليم. كل ما فعله مجلس الإدارة هو التوفيق بين الأرقام، بحيث يبدو أن كل بندٍ قد نُفِّذ على ما يُرام، في حين أن الحقيقة هي أن بعض البنود قد نُفِّذت بربحٍ كبير، بينما كانت هناك خَسارة في بنودٍ أخرى. من الواضح أن الهدف كان خداع الجمهور وجَعْله يعتقد أن كلَّ البنود قد نُفِّذت بنهجٍ اقتصادي.»

قال رئيس التحرير: «أنا حزين لأنَّ الأموال لم تُسرَق؛ عندئذٍ كنا سنُوقِع بهم، ولكن، حتى على هذا النحو، فإن «بيجل» ستصنع ضجَّةً كُبرى. وما أخشاه هو أن تستغل صحافة المُعارضة عدم الدقة، ومن ثمَّ ستُحاول إضفاء الشك على القضية برمَّتها. ألا تعتقد أنه يمكنك إقناع هذا الشخص بالسماح لنا بالحفاظ على المعلومات سليمة، دون تضمين تلك الأخطاء التي يبدو أنه يُصرُّ عليها؟ لا أُمانع في دفع المزيد من المال له، إذا كان هذا هو ما يسعى إليه.»

«لا أعتقد أن هذا هو هدفه. الحقيقة هي أن الرجل خائف، ويزداد خوفُه أكثرَ فأكثر مع اقتراب يوم النشر. إنه قلق للغاية بشأن منصبه لدرجة أنه أصرَّ على أنه لن يتقاضى شيئًا بالمبلغ، ولكن يجب أن أُسلِّمه المبلغ نقدًا.»

«حسنًا، سأُخبرك ماذا تفعل يا ألدر. يجب ألا نبدوَ مُتحمِّسين للغاية. دعِ الأمر كما هو حتى يوم الإثنَين. أفترض أنه يتوقع منك أن تُقابله مرة أخرى اليوم؟»

«نعم، أخبرته أنني سأقابله في السابعة.»

«لا تذهب، ولا تكتب أيَّ تفسير. دعه يُحوِّل القليل من قلقه إلى خوفٍ من فقدان مبلغ الخمسين جنيهًا. أريد، إنْ أمكَن، أن أنشُر هذه المعلومات بدقة مُطلقة.»

«هل هناك أي احتمالٍ يا سيد هاردويك أنَّ بعض الصحف الأخرى قد تسبقنا إلى هذا الأمر؟»

«لا، لا أظن ذلك؛ ليس خلال ثلاثة أيام، على أية حال. إذا ظهرنا مُتلهِّفين جدًّا، فقد يتنصَّل هذا الرجل منَّا تمامًا.»

«حسنًا يا سيدي.»

سمعَت الآنسة باكستر رئيس التحرير وهو يتوقَّف عن السير، وسمِعَت حفيف الورق، كما لو أن الصحفي كان يجمع بعض الوثائق التي يستشير رئيسَه فيها. ثم أُصيبت بالذعر عندما اعتقدَتْ أن أيًّا من الرجُلَين قد يخرج ليجدها في وضع مُتنصت، ففتحت الباب بهدوءٍ شديد وتسلَّلت إلى القاعة، مُتَّجهة من هناك إلى مدخل غرفة الانتظار العادي التي لم تجد فيها الاثني عشر رجلًا الذين بالغ الحارس في عددهم، بل خمسة فقط. من الواضح أن السبعة الآخرين كانوا موجودين فقط في خيال الحارس، أو أنهم قد سئموا الانتظار وانسحبوا. ومن ثمَّ نظر إليها الخمسة عندما دخلتْ وجلست إلى كرسي بالقُرب من الباب. وبعد لحظة، فُتِحَ باب الغرفة التي تركتها، ودخلَ موظف وهو يحمل ورقتَين أو ثلاثًا في يده، حيث نادى على أحد الأسماء، فقام أحد الرجال.

قال الموظف: «يقول السيد هاردويك إن هذا الأمر في قسم السيد ألدر. هل تُمانع في مقابلته؟ إنه في الغرفة رقم خمسة.»

وهكذا تخلَّص من هذا الرجل. ثم ذكر الموظفُ اسمًا آخر، ومرةً أخرى قام رجل. فقال الموظف: «إن السيد هاردويك يبحث الأمر. يمكنك الاتصال مرةً أخرى غدًا في نفس الموعد كي يُبلغك بقراره.»

وهكذا تخلَّص من رقم اثنين. ثم طُلب من الرجل الثالث تركُ اسمه وعنوانه؛ وسيُرسِل إليه رئيس التحرير رسالة. وأُبلغ رقم أربعة بأنه إذا قدَّم اقتراحه مكتوبًا، فسيبحثه السيد هاردويك بجدية. أما الرجل الخامس فلم يكن من السهل التخلُّص منه؛ حيث أصرَّ على رؤية رئيس التحرير واختفى في الداخل مع الموظف، فابتسمت الآنسة باكستر للتبدُّد السريع للمجموعة؛ لأنه ذكَّرها بأغنية «ولد صغير، ولدَين صغيرَين، ثلاثة أولاد صغار من الزنوج.» ولكن طوال الوقت ظلَّت تدور في ذهنها عبارة «مجلس الإنشاءات العامة»، واسم «هازل».

بعد بضع دقائق، خرج الرجل المُثابر الذي أصرَّ على رؤية رئيس التحرير عبر غرفة الانتظار العامة يتبعه السكرتير أو الموظف أو أيًّا كانت وظيفته.

وسأل الموظف الشاب الآنسة باكستر وهي تنهض: «هل أرسلتِ اسمكِ مُسبقًا يا سيدتي؟» فأجابت الفتاة: «لا أعتقد ذلك؛ ولكن هل يمكنك تقديم بطاقتي إلى السيد هاردويك، وتُخبره أنني لن آخُذ من وقته إلا لحظاتٍ قليلة؟»

بعد وقتٍ قصير، عاد السكرتير للظهور، وترك الباب مفتوحًا لها.

الفصل الثاني

جيني لديها اجتماعان مُهمَّان مع اثنين من رؤساء التحرير البارزين

كان السيد هاردويك شابًّا ذا مظهر حازم، ويبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين عامًا، بوجهٍ نحيل وشعر أسود قصير. وقد بدا كشخصٍ عنيدٍ وقوي الإرادة؛ حيث كوَّنت الآنسة باكستر رأيًا سريعًا عنه بأنه ليس الشخصَ الذي يُمكن إقناعه أو حَمْله على فعل أي شيءٍ لا يرغب في القيام به؛ ومن ثمَّ أمسك بطاقتها بين أصابعه، دون أن ينظُر إلى جيني، ونظر إلى البطاقة مرةً أخرى.

بدأت الآنسة باكستر الحديث قائلة: «مساء الخير يا سيد هاردويك، لا أعلم إذا كنتَ قد رأيتَ أيًّا من أعمالي أم لا، لكنني كتبتُ الكثير من المقالات لبعض الصحف المسائية وللعديد من المجلات.»

قال هاردويك، الذي كان يقف استعدادًا لمُغادرة مكتبه، ولم يطلب من الفتاة أن تجلس: «نعم، إنَّ اسمكِ مألوفٌ لي. لقد كتبتِ، منذ بضعة أشهر مقالًا عن زيارةٍ شخصية للإمبراطور الألماني؛ نسيتُ الآن أين نُشِر.»

قالت الآنسة باكستر: «أوه، نعم، لقد كُتِبَ لمجلة سَمَر ماجازين، مُدعَّمًا بالصور.»

تابع هاردويك دون النظر إليها: «لقد استرعى انتباهي أنه كان مقالًا كتبه شخصٌ لم يُقابل الإمبراطور الألماني من قبل، ولكنه جمع المادة من مصدرٍ ما أهداها إليه، واستوعبها هو من جانبه.»

ضحكت الفتاة، بدون حرج. ولكن لا يزال رئيس التحرير لم ينظر نحوَها بعد.

ثم أقرَّت الأمرَ قائلة: «نعم، لقد كُتِبَ المقال بهذه الطريقة بالفعل؛ إذ لم يُسعِدني الحظ قطُّ أن أقابل ويليام الثاني بنفسي.»

زمجر رئيس التحرير بصوتٍ أجش: «إن ما أُصرُّ عليه دومًا في أي عملٍ يُقدَّم إليَّ هو الدقة المُطلقة. وأظن أنكِ قد طلبتِ مُقابلتي لأنكِ ترغبين في القيام ببعض الأعمال لهذه الصحيفة.»

أجابت الآنسة جيني: «أنت محق في هذا التكهُّن أيضًا.»

«ومع ذلك، إذا جاز لي القول، لم يكن هناك شيء غير دقيق في مقالي عن الإمبراطور الألماني. لقد كان تجميعي للمعلومات من مصادر حقيقية تمامًا، لذلك أؤكد أنه كان دقيقًا تمامًا مثل أي شيء يُنشَر في صحيفة بيجل.»

فقال: «ربما لا تتطابق تعريفاتنا للحقيقة تمامًا. ومع ذلك، إذا كتبتِ عنوانكِ على هذه البطاقة، فسأُرسِل لكِ برقيةً إذا كان لديَّ أي عمل — ولنقُل تحديدًا، أي عملٍ خارجي — أعتقد أنه يمكن لامرأةٍ أن تقوم به. عمود ركن المرأة في صحيفة بيجل ليس بحاجةٍ إلى مجهوداتك في الوقت الحالي؛ فهو بين أيدٍ أمينة بالفعل، حسبما تعلمين على الأرجح.»

بدَت الآنسة جيني مُنزعجةً لأن كل استعداداتها المُتقنة ذهبت سُدًى أمام هذا الرجل، الذي لم يرفع عينَيه أبدًا أو يُلقي نظرةً خاطفة عليها، إلا مرة واحدة، أثناء حديثهما.

فقالت باختصار: «أنا لا أطمح إلى منصب مُحررة عمود نسائي. وأنا نفسي لم أقرأ أيَّ عمودٍ نسائي، وعلى عكس السيد جرانت ألين، لم أُقابل امرأةً فعلَت ذلك.»

وهكذا نجحت في جعل رئيس التحرير يرفع عينَيه تجاهها للمرة الثانية.

فتابعت حديثها: «كما أنني لا أنوي ترك عنواني حتى تتمكن من إرسال برقيةٍ إليَّ إذا كان لديك أيُّ شيء تعتقد أنه يُمكنني فعله. ما أتمنَّاه هو أن أنضمَّ إلى فريق تحرير صحيفتك في وظيفةٍ براتبٍ شهري ثابت.»

قال رئيس التحرير بجِدة: «يا سيدتي الفاضلة، هذا أمر مُستحيل تمامًا.

وأقول لكِ بصراحة إنني لا أؤمن بعمل المرأة كصحفية. والمقالات التي ننشرها هنا من قِبَل النساء يُرسلْنها إلى هذا المكتب من منازلهن. إن أي شيءٍ يمكن للمرأة أن تفعله لإحدى الصحف، لديَّ هنا رجالٌ يستطيعون فعله بالكفاءة نفسِها بل وأكثر. وهناك العديد من الأشياء التي لا تستطيع النساءُ القيام بها على الإطلاق، والتي يجب على الرجال القيامُ بها. وأنا راضٍ تمامًا عن فريق التحرير كما هو يا آنسة باكستر.»

قالت الفتاة: «أعتقد أنه من المُسلَّم به عمومًا أن فريقك جيد على نحوٍ استثنائي، وأنك تقوده بكل كفاءة. ومع ذلك، فأنا أتخيل أن هناك أشياء كثيرة تحدُث في لندن، مثل مناسبات المجتمع، على سبيل المثال، حيث يُمكن للمرأة أن تصِف بدقة ما رأته أكثر من

أي رجل يمكنك إرساله. ليس لديك أي فكرة عن مدى الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الرجل عندما يصِف ملابس المرأة بصفةٍ عامة. وإذا كنتَ مُعجبًا بالدقة بقدْر ما تقول، أظن أنك ستحرص على ألا تُصبح صحيفتك مادةً للسخرية بين سيدات المجتمع، اللاتي لن يتحملن عناء كتابة خطابٍ لك ليُظهِرن لك كم أنت مُخطئ، مثلما يفعل الرجال عادةً عندما يُرتكَب خطأ ما فيما يتَّصل بشئونهم.»

أجاب رئيس التحرير مُحاولًا إنهاء المناقشة: «من الجائز أن يكون هناك بعضُ الصواب فيما تقولين، وأنا لا أُصرُّ على أنني على صواب، لكن هذه هي أفكاري، وما دمتُ رئيسَ تحرير هذه الصحيفة، فسأتمسَّك بها، لذلك لا جدوى من مناقشة الأمر أكثر يا آنسة باكستر. فأنا لن أُوظِّف امرأةً بدوامٍ كامل في فريق التحرير الدائم في صحيفة بيجل.»

ثم نظر إليها للمرة الثالثة، وكأنه يدعوها للانصراف.

قالت الآنسة باكستر لنفسها بسخط: «هذا الرجل الجلف ليست لدَيه أدنى فكرة أنني واحدة من أفضل النساء المُحترمات اللاتي قابلهنَّ على الإطلاق.»

لكن لم يبدُ على صوتها أيُّ أثرٍ للاستياء عندما قالت له بلُطف: «سنعتبر أن الأمر قد انتهى. ولكن يا سيد هاردويك، إن أثبتُّ في صحيفةٍ أخرى أني مُراسِلة صحفية جيدة مثل أي فردٍ من موظفيك، فهل يُمكنني القدومُ إلى هنا لأُخبرك بانتصاري، دون أن أنتظر طويلًا على بابك؟»

فقال: «أنتِ لن تُؤثري على قراري.»

غمغمت وهي تبتسِم: «لا تقُل هذا؛ أنا واثقة أنه لن يروقك أن يصِفك أحدٌ بالحماقة.»

قال رئيس التحرير بحِدَّة وقد قطَّب حاجبَيه الكثيفَيْن: «يصفني بالحماقة؟ لن أُمانع على الإطلاق.»

«ولكن، ماذا إذا كان الأمر صحيحًا؟ أنت تعلم أنه سيُصبح صحيحًا، إذا تمكَّنتُ من فِعل شيء لم يستطع جميع رجالك المَهَرة فِعله. قد يكون رئيس التحرير رجلًا موهوبًا جدًّا، ولكن مهمته في النهاية هي أن يرى صحيفته مُثيرة للاهتمام، وأنها تحتوي، قدْر الإمكان، على شيءٍ لا تحتويه أيُّ صحيفةٍ أخرى.»

أكَّد لها السيد هاردويك بثقةٍ تامة: «أوه، أنا سأعتني بذلك.»

قالت الآنسة باكستر بلطفٍ شديد: «أنا متأكدة من أنك ستفعل، ولكنك الآن لن ترفض السماح لي بالدخول كلما أرسلتُ بطاقتي؟ أَعِدُك بأنني لن أُرسلها حتى أفعل شيئًا من شأنه أن يجعل جميع فريق تحرير دايلي بيجل يشعرون بالحزن الشديد حقًّا.»

وللمرة الأولى أطلق السيد هاردويك ضحكةً قاسية إلى حدٍّ ما.

وهو يقول: «أوه، حسنًا، أَعِدُك بذلك.»

«شكرًا جزيلًا! ومساء الخير سيد هاردويك. أنا مُمتنة جدًّا لك لمُوافقتك على مُقابلتي. سأزورك في نفس هذه الساعة من عصر الغد.»

كان هناك شيءٌ من الانتصار في ابتسامتها له التي اقترنت بانحناءةٍ للتحية، ومع مُغادرتها سمِعَت صافرة دهشة طويلة في غرفة السيد هاردويك. ثم نزلت السُّلَّم بسرعة، وألقت نظرةً ساحرة على الحارس الأيرلندي، الذي خرج من عرينه وهمس لها قائلًا:

«لقد جرَت المقابلة على نحوٍ جيد، أليس كذلك؟»

فأجابت: «بل أكثر من جيد. شكرًا جزيلًا على لطفك.»

رافقها الحارس حتى العربة التي تنتظرها وأمسك بذِراعها حتى لا تلمس تنُّورتها العجلة.

ثمَّ قالت لسائق العربة: «قُدْ بسرعةٍ إلى كافيه رويال.»

عندما توقَّفت العربة أمام كافيه رويال، لم تنزل الآنسة جيني باكستر منها، لكنها انتظرت حتى سارع إليها حارس البوابة القوي ذو الوشاح الذهبي، واقترب من العربة.

فسألته بانفعالٍ مكبوت: «هل تعرف السيد ستونهام؛ رئيس تحرير صحيفة إيفنينج جرافيت؟ إنه عادة ما يأتي هنا ليلعب الدومينو مع شخصٍ ما في هذا التوقيت.»

فأجابها: «أوه، نعم، أنا أعرفه؛ أعتقد أنه في الداخل الآن، لكنني سأذهب لأتأكد.»

بعد وقتٍ قصير ظهر السيد ستونهام نفسُه، وبدا وكأنه مُرتبك قليلًا لأن هناك مَن يعرف مكان وجوده بدقة.

قالت الآنسة جيني ضاحكة: «يا لها من نعمة؛ إذ نعرف نحن المُراسلين المساكين أين نجد رئيس تحرير صحيفتنا في حالة الطوارئ.»

قال ستونهام مُتذمرًا: «هذه ليست حالة طوارئ يا آنسة باكستر، إذا كانت لديكِ أخبار، فاعلمي أن الوقت مُتأخِّر جدًّا كي نستفيد بها اليوم.»

أجابت بسرعة: «آه، نعم، ولكنني جئتُ في توقيتٍ ممتاز ومعي أخبار بخصوص الغد!»

استمرَّ رئيس التحرير المُنزعج في التذمُّر وهو يقول: «إذا أراد رجل أن يعيش حياةً طويلة، فعليه أن يسمح لأخبار الغد أن تعتني بنفسها؛ فهموم اليوم كافية جدًّا.»

وافقته الفتاة قائلة: «بصفةٍ عامة، هذا صحيح، ولكن لديَّ معلومة في غاية الأهمية من أجلك؛ وهي لن تنتظر، وبعد نصف ساعة من الآن سوف تُكتَب عنوانًا رئيسيًّا لعدد الغد، وتُظهِر في لغةٍ مقتضبة وقوية العديدَ من أخطاء مجلس الإنشاءات العامة.»

صاح رئيس التحرير مُبتهجًا: «أوه، إذا كان هناك أي شيءٍ يُشوِّه سمعة مجلس الإنشاءات العامة، فأنا سعيدٌ لقدومكِ.»

«حسنًا، هذه ليست مُجاملة لي ولو بقدْر ضئيل. يجب أن تكون سعيدًا على أي حال؛ لكني سأغفر سلوكك السيئ، لأني أريدك أن تُساعدني. من فضلك استقِلَّ معي هذه العربة، لأني سأخبرك بمعلومات مذهلة للغاية؛ أخبار يجِب ألا يسمعها أحد غيرك؛ ولا يُوجَد مكانٌ لعقد اجتماعٍ سِري أكثرَ أمنًا من عربةٍ تسير في شوارع لندن.» ومن ثمَّ قالت للسائق وهي تُغلِق فتحة سقف العربة: «قُدْ ببطءٍ نحو مكتب صحيفة إيفنينج جرافيت.» فأخذ السيد ستونهام مكانه بجانبها، ووجَّه السائقُ حصانه نحو الاتجاه المطلوب.

قال ستونهام: «ليس هناك فائدة تُذكَر من الذَّهاب إلى مكتب الصحيفة؛ لن نجد هناك أي شخصٍ سوى الحارس.»

«أعلم، لكن يجب أن نسير في اتجاهٍ ما؛ إذ لا يُمكننا التحدُّث أمام كافيه رويال، كما تعلم. والآن يا سيد ستونهام، أريد أولًا خمسين جنيهًا ذهبيًّا. كيف يمكنني الحصول عليها في غضون نصف ساعة؟»

«يا إلهي! لا أدري، فجميع البنوك مغلقة، ولكن هناك رجل في تشارينج كروس ربما يُعطيني المبلغ مقابل شيك؛ ودفتر الشيكات في المكتب.»

«إذن سيسير الأمر على نحوٍ جيد. اسمع يا سيد ستونهام، هناك بعض التلاعُب بالحسابات في مكتب مجلس الإنشاءات العامة.»

صاح ستونهام بلهفة: «ماذا؟! اختلاس؟»

«لا؛ مجرد تلاعُب.»

قال رئيس التحرير بنبرةٍ مُحبَطة: «حسنًا.»

«أوه، لا يجوز قول «حسنًا». إنه أمر خطير للغاية بالفعل. فهناك تلاعُب في الحسابات لخداع الجمهور العزيز المُؤتمِن، الذي تتظاهر جميعُ الصحف اليومية، الصباحية والمسائية، بأنها مُكرَّسة لمصالحه. يجب أن تُثير حقيقة محاولة الخداع هذه غضب أي رئيس تحرير فاضل يا سيد ستونهام.»

«أوه، إنها كذلك، إنها كذلك، ولكن إنه أمر من الصعب إثباته. إذا ضاعَ بعض المال، الآن …»

«يا سيدي العزيز، لقد أُثبِتَ الأمر بالفعل، وهو جاهز تمامًا للتعامُل معه بفاعلية؛ هذا هو الغرض من الخمسين جنيهًا. سيُؤمِّن لك هذا المبلغُ — الليلة، فكِّر، وليس الغد — بيانًا مليئًا بالأرقام التي لا يستطيع مجلسُ الإنشاءات إنكارَها. وسوف تُصبح قادرًا، في مقالٍ رئيسي مُثير، على التعبير عن الرعب الذي تشعُر به بلا شك من تزوير الأرقام، ومن المُحتمل ألا تُخفف من سعادتك الشديدة بفعل ذلك من خلال حقيقة أنه لا تُوجَد صحيفة أخرى في لندن لديها هذه الأخبار، في حين أن الأمر سيُصبح مهمًّا جدًّا لدرجة أنه في اليوم التالي سيُضطَرُّ جميع نظرائك المحبوبين إلى التلميح إليه بشكلٍ أو بآخر.»

قال رئيس التحرير وعيناه تتألَّقان حيث بدأ حجم الفكرة يستحوذ على خياله بقوة أكبر: «فهمت، مَن الذي سيُصدر هذا البيان، وكيف لنا أن نعرِف أنه صحيح تمامًا؟»

«حسنًا، هناك نقطة أودُّ إخبارك بها قبل المضيِّ قدمًا؛ يجب ألا يكون البيان صحيحًا تمامًا؛ لكنه سيحتوي على خطأَين أو ثلاثة أخطاء عن قصد، والهدف هو تضليل المُحقِّقين إذا حاولوا اكتشافَ مَن سرَّب الخبر إلى الصحافة؛ لأن الرجل الذي سيبيعني هذه الوثيقة هو كاتب في مكتب مجلس الإنشاءات العامة؛ ولذا، كما ترى، ستحصل على الحقائق من الداخل.»

«هل هو معتاد على تزوير الحسابات لدرجة أنه لا يستطيع التغلُّب على هذه العادة حتى عند إعداد مقالٍ للصحافة الصادقة؟»

«إنه يُريد أن يُنقذ منصبه، وهو مُحق في ذلك أيضًا، لذلك فقد وضع عددًا من الأخطاء في أرقام القسم الذي يُسيطر عليه على نحوٍ مباشر. وهو يتمتع بسمعة طيبة من حيث الدقة، ولذا يتخيَّل أن مجلس الإدارة لن يظنَّ أبدًا أنه فعل ذلك، إذا كانت أرقام قِسمِه بها بعض الأخطاء الطفيفة.»

«بالفعل. إذن لا يُمكننا أن نذكُر اسمه، ونقول إن هذا الرجل الصادق قد أُفسِد من خلال ارتباطه بالأوغاد الذين يُشكلون مجلس الإنشاءات العامة.»

«أوه، يا عزيزي، لا؛ يجب عدَم ذكر اسمه تحت أي ظرفٍ من الظروف، ولهذا السبب يجب أن ندفع له جنيهات ذهبية بدلًا من شيكٍ مصرفي أو إيصال أمانة.»

«حسنًا، يبدو أن الخائن يُخفي آثاره على نحوٍ فعَّال. كيف تعرفتِ إليه؟»

«أنا لا أعرفه. ولم أُقابله قطُّ في حياتي؛ لكن علمتُ أن إحدى الصحف الصباحية قد وضعت بالفعل كلَّ خططها للحصول على هذه المعلومات. وستدفع للكاتب خمسين جنيهًا

مقابل الوثيقة، لكن رئيس التحرير يتفاوَض معه حاليًّا؛ لأنه يُصِر على الدقة المُطلقة، بينما كما قلت، يرغب الرجل في حماية نفسه، لتغطية آثاره، كما استنتجتَ أنت.»

صاح ستونهام: «يا إلهي! لم أكن أعتقد أن رئيس تحرير أي صحيفةٍ صباحية في لندن يحرص على دقة ما ينشره. إذ إنَّ صفحات صحف الصباح لا تعكس هذا القلق.»

تابعت الآنسة جيني غير مُبالية بتعليقه الساخر: «ولذا، كما ترى، لا يُوجَد وقت كي نُضيعه؛ في الواقع، يجب أن أكون في طريقي الآن إلى حيث يعيش هذا الرجل.»

صاح رئيس التحرير: «ها قد وصلْنا إلى المكتب، وسأُسرع فقط وأكتب شيكًا بخمسين جنيهًا، ربما يُمكننا الحصولُ مُقابِلَه على نقودٍ ذهبية في مكانٍ ما.» ثم دعا السائق إلى التوقُّف ونزل من العربة.

قالت الفتاة: «أخبر الحارس أن يُحضر لي دليلَ لندن.» وبعد فترةٍ أحضر لها الحارس ذلك الدليل الأحمر الضخم، الذي وضعتْه الآنسة باكستر على رُكبتَيها، وبسرعةٍ نابعة من التدريب الطويل، قلَّبت الأوراق بسرعة، ومرَّرت إصبعها باحثةً عن اسم «هازل» حتى عثرت عليه، وهو يعمل كاتبًا في مكتب مجلس الإنشاءات العامة، ومحل إقامته هو ١٧، روبرت سكوير، بريكستون. فكتبَت هذا العنوان في دفتر ملاحظاتها وأعادت المجلد إلى الحارس المُنتظِر، بينما عاد رئيس التحرير بالشيك في يده.

وهكذا أعطى تاجر العملات الذهبية الذي يتَّسِم بالحيطة واليقظة، والذي يقع مكتبه الصغير عند مخرج محطة تشارينج كروس، المبلغ المطلوب إلى رئيس تحرير «إيفنينج جرافيت» مقابل الشيك، ثم سلَّمه إلى الآنسة جيني داخل مُغلَّفٍ يحوي الذهب، وبعد ذلك رآها تتَّجِه نحو بريكستون، فغادر عائدًا؛ ليس لاستئناف لعبة الدومينو في المقهى ولكن إلى مكتبه، كي يكتب العنوان الرئيسي لعددِ الغد من الصحيفة الذي سيُعبِّر في عباراتٍ صريحة عن الرُّعب الذي شعر به نتيجة تصرُّف مجلس الإنشاءات العامة.

الفصل الثالث

جيني تُجري مقابلةً مع موظفٍ مذعور

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليلٍ عندما توقفت عربة الآنسة باكستر أمام المنزل المكوَّن من طابقَين في روبرت سكوير، الذي يحمل رقم ١٧. فطرَقَت الباب، وسرعان ما فتحه رجل تبدو آثارُ القلق على وجهه المُتجهِّم، تبيَّن فيما بعد أنه هازل نفسُه، الكاتِب في مجلس الإنشاءات العامة. ومن ثمَّ تجرَّأت على الدخول وهي تسأله: «أنت السيد هازل، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل الذي من الواضح تمامًا أنه فُوجئ برؤية سيدة بدلًا من الرجل الذي كان يتوقَّعه في تلك الساعة: «نعم، لكن يُؤسِفني أن أطلب منك المغادرة؛ فأنا أنتظر زائرًا تأخَّر بضع دقائق، وقد يصل هنا في أي لحظة.»

«أنت تنتظر السيد ألدر، أليس كذلك؟»

تمتم الرجل، وقد تحوَّلت الدهشة على وجهه إلى ذُعر: «نعم.»

قالت الآنسة جيني وهي تُحاول أن تُطمئنه: «أوه، حسنًا، اطمئن، لقد قدمتُ للتوِّ من مكتب صحيفة دايلي بيجل كي أُخبرك أن السيد ألدر لن يتمكن من مُقابلتك الليلة.»

قال هازل وهو يُغلق الباب: «إذن، هل أنتِ هنا بدلًا منه؟»

«أنا هنا بدلًا منه؛ فالسيد ألدر لديه أعمالٌ أخرى عليه القيام بها بناءً على طلب رئيس التحرير. والآن، فإن السيد هاردويك، وهو رئيس التحرير كما تعلم.»

أجاب هازل: «نعم، أعلم.»

في تلك اللحظة جلس كلاهما في الردهة الأمامية.

فقالت: «حسنًا، إنَّ السيد هاردويك قلق جدًّا بشأن ضرورة تقديم الأرقام بدقة مُطلقة.»

صاح الرجل: «بالطبع سيكون ذلك أفضل بكثير، لكن كما ترين، لقد بحثتُ الأمر بدقةٍ مع السيد ألدر بالفعل، وقال إنه سيذكر ما قلتُه لرئيس التحرير، ويُوضِّح موقفي أمامه.»

قالت الآنسة باكستر: «لقد فعل ذلك، وعلى نحوٍ فعَّال للغاية؛ في الحقيقة، إن أسبابك مُقنعة تمامًا؛ فأنت تخشى، بالطبع، أن تفقد منصبك، وهذا أمر مُهم للغاية، ولا يتمنَّى أحد في مكتب صحيفة بيجل أن تُعانيَ بسبب ما فعلته. وبالطبع، كل هذا في سبيل المصلحة العامة.»

تمتم هازل، وهو ينظر إلى أسفل على المنضدة: «بالطبع، بالطبع.»

«حسنًا، هل كل الوثائق لديك جاهزة بحيث يمكن نشرُها في أي وقت؟»

أجاب الرجل: «جاهزة تمامًا.»

قالت الفتاة بحسْم: «حسنًا، ها هو مبلغ الخمسين جنيهًا الذي طلبته. فقط عُدَّ النقود، وتأكد من صحة المبلغ؛ فقد أخذت المُغلَّف كما سُلِّم إلي، ولم أتأكد من المبلغ بنفسي.»

أفرغَت الجنيهات الذهبية على المنضدة، وأخذ هازل، بأصابعه المُرتجفة، يَعدُّهم اثنَين وراء اثنين.

قال وهو ينهض: «المبلغ صحيح تمامًا.» ثم ذهب إلى الدُّرج، وفتح قُفله، وأخرج مظروفًا طويلًا أزرق اللون.

وقال مع تنهيدةٍ أقربَ ما تكون إلى لهثة: «ها هي، هناك أرقام وشرح كامل لها. ويجب أن تحرصي تمامًا على ألا يظهر اسمي في أيِّ حالٍ من الأحوال.»

قالت الآنسة جيني وهي تسحب الأوراق بهدوءٍ من مظروفها: «بالتأكيد، لا أحد يعرف اسمك باستثناء السيد ألدر والسيد هاردويك وأنا، ويُمكنني أن أؤكد لك أنني لن أذكره لأي شخص.»

ثمَّ ألقت نظرةً سريعة على الوثائق.

وقالت وهي تنظر إليه: «سأقرأ فقط ما كتبتَه، وإذا كان فيها أيُّ شيءٍ لا أفهمه، فربما تتكرَّم عليَّ بتوضيحه الآن، حتى لا أحتاج إلى المجيء إلى هنا مرةً أخرى.»

قال هازل: «حسنًا.» ولم يشكَّ الرجل في أن زائرته لم تكن من فريق التحرير في الصحيفة التي كان يتفاوض معها؛ حيث كانت واثقةً من نفسِها تمامًا، وأظهرت أنها على دراية كبيرة بجميع التفاصيل التي ناقشها مع ألدر، لدرجة أنه لم يُساور الكاتبَ أدنى شكٍّ في شخصيتها.

قرأت جيني الوثائق بسرعةٍ كبيرة، فهي تعلم أنها تُخاطر بالبقاء هناك بعد الساعة السابعة. إذ قد يأتي ألدر إلى بريكستون لإبلاغ الرجل بنتيجة حديثه مع رئيس التحرير، أو ربما يكون السيد هاردويك نفسُه قد غيَّر رأيه، وأمر مرءوسَه بالحصول على الأوراق. ومع ذلك، لم يكن هناك أيُّ مؤشر على التسرُّع في سلوك الآنسة جيني لأنها أعادت الأوراق إلى مظروفها الأزرق وودَّعت هازل القلِقَ ثم غادرت.

وهكذا استقلَّت العربة مرةً أخرى ثم أمرت السائق بالتوجُّه إلى تشارينج كروس، وعندما كانت على بُعد عشر دقائق من روبرت سكوير، غيَّرت اتجاهها وطلبت منه أن يأخذها إلى مكتب صحيفة «إيفنينج جرافيت»، حيث كانت تعرف أن السيد ستونهام مُنشغل بمقاله الرئيسي، وربما ينتظر بصبرٍ نافدٍ مزيدًا من التفاصيل عن المؤامرة التي سيكشفها للجمهور. كانت غرف التحرير في مكتب صحيفة «إيفنينج جرافيت» مُضاءة، وهو أمر دائمًا ما يُثير الشكَّ في مؤسَّسةٍ من هذا النوع، ومن شأنه أن يجعل رئيس تحرير أي صحيفةٍ مسائية منافسة يرتجِف، حينما يقع نظره على ضوءٍ في مكانٍ يجب أن ينتهي عمل اليوم به في موعدٍ أقصاه الساعة الخامسة؛ إذ عادةً ما يُشير الضوء في غرفة الصحفي المُشتغل بصحيفةٍ مسائية إلى انشغاله بخبرٍ مُهم.

ومِن ثَمَّ أظهرت نظرة سريعة على الأوراق التي أحضرتها الآنسة باكستر إلى السيد ستونهام أنه قد حصل على ما يستحقُّ خمسين جنيهًا على الأقل، وأن صحيفته ستُحلِّق عاليًا في اليوم التالي، ولذا قام بالترتيبات قبل مُغادرته، لإصدار الصحيفة في وقتٍ أبكر بقليلٍ مما كان مُعتادًا، وحساب وقتِه بدقة، بحيث لا تتمكن الصحف المنافسة من نشر هذا السَّبْق الصحفي في طبعتها الأولى، نقلًا عن صحيفة «جرافيت»، التي ستُحقِّق أعلى مَبيعاتٍ في الشارع، مع صياح بائعي الصحف: «فضيحة مُروِّعة»، قبل ظهور أي صحيفةٍ مسائية أخرى. وهو ما تحقَّق بالفعل في اليوم التالي بدقة رائعة.

وقد استبقى السيد ستونهام، بحِرَفية تستحقُّ كلَّ الثناء، جزءًا صغيرًا من سجلِّ الأرقام التي كانت بحوزته ولم ينشُرها في الطبعة الأولى، حتى يتمكن من نشرِها فيما يُسمَّى بالطبعة الرابعة، ومن ثمَّ وضع في الطبعة الثانية الكثير من المحتويات، مع مانشيتات برَّاقة وضخمة باللون الأسود، «مزيد من الكشف عن فضيحة مجلس الإنشاءات»، ومقاله الافتتاحي اللاذع، الذي طالَبَ فيه مُنزعجًا بإجراء تحقيقٍ برلماني حول سلوك مجلس الإنشاءات، والذي اعتبر، حتى من قِبل أصدقاء تلك الهيئة العامة، أنه قد زعزع الثقة بالمجلس. وقد استقبلت الصحفُ المسائية الأخرى هذه الأخبارَ على نحوٍ

أرضى السيد ستونهام للغاية. فقد تجاهلتها تمامًا صحيفةٌ أو اثنتان، ولَّمحت إليها صُحف أخرى على أنها شائعة، وأنها «زعمت» كذا وكذا، وألقَوا بظلالٍ من الشكِّ على حقيقتها، وهو بالضبط ما تمنَّى السيد ستونهام أن يفعلوه؛ لأنه كان في وضع يسمح له بإثبات دقة ما نشره.

وعلى الفور، في تمام الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم، توقفت عربة تجلس بداخلها الآنسة جيني باكستر أمام المدخل الجانبي لمكتب صحيفة «دايلي بيجل»، واقتربت الفتاة مرةً أخرى من الحارس الأيرلندي، الذي خرج مرةً أخرى من عرينه لاستقبالها.

قال الأيرلندي، مُحييًا ومُستفسرًا، في ذات الوقت: «آنسة باكستر؟» فقالت الفتاة: «نعم.»

«حسنًا، لقد أعطاني السيد هاردويك أوامرَ صارمة بأنكِ إذا أتيتِ، أو على وجه الدقة، عندما تأتين، يجب أن أقودكِ إلى مكتبه في الحال.»

صاحت الآنسة جيني: «أوه، هذا مُرضٍ للغاية، ويختلف نوعًا ما عن طبيعة الأمور بالأمس.»

قال الحارس بصوتٍ خفيض: «بالفعل، هذا صحيح، فاليوم ليس مثل الأمس على الإطلاق؛ فهناك خلافات كبيرة في هذا المكتب، على الرغم من أنني ليست لديَّ أيُّ فكرةٍ عن سببها، وهناك حركة غير طبيعية، مع الكثير من السِّباب واللعنات. وقد أتى مالك الصحيفة نفسُه إلى هنا، وما زال موجودًا حتى الآن، في حين خرج السيد ألدر منذ دقيقةٍ ووجهُه شاحِب مثل ورقةٍ بيضاء.» وأضاف الحارس، بالصوت الخفيض نفسِه، وهو يتوقَّف على السُّلَّم: «وهم يقولون إنَّ السيد هاردويك لن يستمر رئيسًا للتحرير بعد الآن، وأن السيد ألدر سيحلُّ محله. على أية حال، وبقدْر ما أستطيع أن أُخمِّن، لقد تعرَّض السيد هاردويك والسيد ألدر لإخفاقٍ كبير، ومن المُحتمَل أن يترك أحدهما الصحيفة.»

قالت الآنسة جيني وهي تتوقَّف أيضًا على السُّلَّم: «أوه يا عزيزي! هل الأمر بهذه الخطورة؟»

«إنه كذلك بالفعل، ولا أحدَ منَّا يعرف ما سيصِل إليه الحال على الإطلاق.»

قادها الحارس نحو مكتب السيد هاردويك وأبلغه بقدوم الزائرة.

وسمِعَت رئيسَ التحرير يقول: «اطلُب منها الدخول.» وفي اللحظة التالية تركهما الحارس معًا بمفردهما.

قال السيد هاردويك، مع عدم وجود أثرٍ للغضب في صوته، على عكس ما كانت تتوقَّع: «تفضلي بالجلوس يا آنسة باكستر. لقد كنتُ في انتظارِك. قلتِ إنكِ ستأتين هنا في الخامسة، وأنا أُحبُّ الالتزام بالمواعيد. سأختصر المسافات ودون مُواربة، أتصوَّر أنكِ من منحتِ صحيفة إيفنينج جرافيت السَّبْقَ الصحفيَّ الخاص بفضيحة مجلس الإنشاءات العامة، أليس كذلك؟»

قالت الفتاة وهي تجلس: «بلى، لقد جئتُ لأُخبركَ أنني اشتريتُ تلك المعلومات المُثيرة للاهتمام من أجل صحيفة جرافيت.»

«هذا ما توقعتُه. لقد قابل زميلي هنري ألدر عصر اليوم السيد هازل في مقر مجلس الإنشاءات. وقد أُصيبَ الرجل الطيب هازل بالذُّعر من الضجة الكبيرة الذي تسبَّب فيها، وهو في حالةٍ نفسية سيئة للغاية، لا سيَّما عندما عَلِمَ أن وثائقه قد ذهبتْ إلى مكانٍ غير مُتوقَّع. ولحُسن حظه، اكتظَّ مقر المجلس بالصحفيين الذين يرغبون في الحصول على تصريحاتٍ من هذا الرجل أو ذاك بشأن الفضيحة، وبالتالي لم يكن من المُحتمَل ملاحظةُ زيارة ألدر إلى هازل أو التعليق عليها. وقد أعطى هازل وصفًا واضحًا للفتاة الجميلة التي أخذت منه الوثائق بمهارة، ودفعت له المبلغ المُحدَّد المُتفَق عليه بالطريقة الدقيقة التي كان يجب دفعُه بها. إن ألدر لم يَرَكِ، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية تسرُّب الأخبار المهمة من بين أصابعه؛ لكن عندما أخبرني بما حدث، عرَفتُ على الفور أنكِ الفاعلة، ولذا كنتُ في انتظارِكِ. هل يُسمَح لي بالتعبير عن رأيٍ مفاده أنكِ لم تُجيدي اللعب بأوراقك على الإطلاق يا آنسة باكستر؟»

أجابته قائلة: «أعتقد أنني لعبتُ بأوراقي على نحوٍ أفضلَ بكثيرٍ مما فعلتَ أنت، كما تعلم.»

«أوه، أنا لا أُجري أي مقارنة، ولستُ أضع نفسي على الإطلاق كنموذجٍ يُحتَذى في براعة التخطيط والتدبير. وأعترفُ أنني، رغم امتلاك البطاقات الصحيحة في يدي، لعبتُ بها على نحوٍ سيئ للغاية؛ ولكن في ذلك الوقت، كما تعلمين، كنتُ أعتقد أنني مُتأكد من وجود خبرٍ حصري.»

«لا يُعتبَر الخبر حصريًّا يا سيد هاردويك إلا بعد نشره، وخروج الصحيفة إلى الشوارع، قبل حصول الصحف الأخرى عليه.»

«هذا صحيحٌ للغاية، وله إيجاز القول المأثور. أودُّ أن أسأل يا آنسة باكستر، كم دفعَت لكِ صحيفة جرافيت مقابل هذا المقال بالإضافة إلى الخمسين جنيهًا التي قدَّمتِها إلى هازل؟»

«أوه! لم تكن المسألة بالنسبة لي ذاتَ صِلة بالمال. لم يُناقَش حتى الموضوع. فالسيد ستونهام لا يُغدق أمواله بسخاء، ولهذا أرغبُ في العمل بصحيفةٍ يتَّسِم أصحابها بالسخاء. وما كنت أرغب في فِعله هو إقناعك بأنني سأكون إضافةً قيِّمة إلى فريق تحرير صحيفة بيجل؛ إذ تعتقد أن الفريق بالفعل كامل ووافٍ.»

«أوه، إن فريقي غير مَلوم في هذا الأمر؛ يقع اللوم عليَّ وحدي لكوني مُتأكدًا من موقفي أكثر من اللازم، ولم أُدرك خطر التأخير في مثل هذه الحالة. ولكن لو كنتِ أحضرتِ الوثيقة إليَّ، لوجدتِني إلى حدٍّ بعيد أفضلَ عميلٍ لكِ. كنتِ ستُقنعينني تمامًا كما فعلتِ الآن بأنكِ فتاة في حالة تأهُّبٍ شديد، وأنا بالتأكيد كنتُ على استعدادٍ لمنحكِ أربعة أو خمسة أضعاف ما يُمكن أن تدفعه صحيفة جرافيت.»

«في الحقيقة، لقد فكرتُ في ذلك بينما كنتُ أقف هنا بالأمس، لكنني رأيتُ أنكَ رجل يصعُب التعامُل معه أو إقناعه، ولم أجرؤ على إبلاغك بأن الأخبار في حوزتي. فربما تستدعي السيد ألدر بكلِّ سهولةٍ وتُخبره أن هازل قد تخلَّى عن الوثائق، وتُرسله إلى بريكستون على الفور، حيث من المُحتمل جدًّا أن يكون لدى الكاتب نسخةٌ أخرى منها. وعندئذٍ، كانت فرصة النشر في أي صحيفة صباحية أخرى ستضيع، وحتى لو لم تضِع، كنتَ ستنشُر الخبر في صحيفتك أنت أيضًا، ومن ثمَّ لن يُصبح النصر كاملًا مثلما هو الآن. لا، لم أستطع تحمُّل مثل تلك المخاطرة. لقد فكرتُ في كل شيء بعناية فائقة.»

«أنتِ تنسِبين لنا قدراتٍ أكثر ممَّا نمتلِك يا آنسة باكستر. يُمكنني أن أُؤكِّد لكِ أنكِ لو كنتِ قد أتيتِ إلى هنا في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ومعكِ الوثائق، لأصبحتُ مُجبرًا على شرائها منكِ. ومع ذلك، فقد انتهى كل هذا الآن، ولا فائدة من قول أي شيءٍ آخَر عنه. أنا على استعداد لتحمُّل كل اللوم عن هزيمتنا، ولكن هناك بعض الأشياء الأخرى التي لستُ على استعدادٍ للقيام بها، وربما أنتِ الآن في وضعٍ يسمح لكِ بتوضيح القليل من سوء الفَهم الذي حدث في هذا المكتب. أفترضُ أنكِ من المؤكَّد قد سمعتِ المُحادثة التي جرَتْ بيني وبين السيد ألدر في هذه الغرفة عصر الأمس، أليس كذلك؟»

قالت الآنسة باكستر، وقد أصابها الارتباكُ لأول مرة: «حسنًا، أؤكد لك أنَّني لم أحضر إلى هنا بنية الاستماع إلى أيِّ شيء. لقد وصلتُ إلى الغرفة المجاورة بنفسي؛ بغرض رؤيتك

في أقرب وقتٍ ممكن. كما أنني لستُ من أعضاء فريق تحرير صحيفة إيفنينج جرافيت، إلا أنَّ تلك الصحيفة تنشُر لي كل العمل الذي يُمكنني القيامُ به، ولذا فإنني أعتبر نفسي مُلزمةً بإبقاء عينَيَّ وأُذنَيَّ مفتوحتَين نيابةً عنها أينما كنتُ.»

قال هاردويك: «أوه، لا أريد أن ألومكِ على الإطلاق، أريد فقط أن أتأكَّد من كيفية إخفاقنا في الحصول على هذا السَّبْق. وكما قلتُ، أنا على استعدادٍ لتحمُّل اللوم كاملًا. لا أعتقد أنني كنتُ سأستخدِم معلوماتٍ جرى الحصولُ عليها بهذه الطريقة، ومع ذلك لا أريدُ أن أُوجِّه لكِ اللوم على تصرُّفكِ.»

صاحت الآنسة جيني بانفعالٍ إلى حدٍّ ما: «تُوجِّه لي اللوم! سيكون هذا بالفعل مثل القِدْر الذي يُعاير الغلَّاية لأنها سوداء اللون. عجبًا، أتظنُّ أنك أفضلُ مني؟ لقد كنتَ تُقدِّم رِشوة لرجل فقير كي يُزوِّدك بإحصائيات، وهو مُتردِّد جدًّا في السماح لك بذلك؛ ومع هذا، فقد تغلبتَ على تردُّده بالمال، وطالبته بأن يُخاطر بمصدر رزقِه، من أجل أن تحصُل أنت على الأخبار. إذا سألتني، فأنا لا أرى فارقًا كبيرًا في موقف كلٍّ منَّا، ويجب أن أقول إنه إذا خاطر رجلان بالتحدُّث بصوتٍ عالٍ عن سر، بينما هناك باب مفتوح يُؤدي إلى غرفة أخرى، قد تكون خاليةً وقد لا تكون، فهما شخصان في غاية الغباء.»

أجاب هاردويك بهدوء: «أوه، هذا صحيح تمامًا. لقد تنصلتُ بالفعل من مسئوليتي عن هذا الموقف المُتأزِّم. لكن النقطة التي أرغبُ في التأكُّد منها هي: هل سمعتِ المحادثة بيني وبين ألدر؟»

«نعم فعلت.»

«هل يُمكنكِ تَكرارها؟»

«لا أظنُّ أن بإمكاني تَكرارَها كلمةً بكلمة، ولكن يُمكنني بالتأكيد قولُ مضمونها.»

«هل لديكِ أيُّ اعتراضٍ على إخبار الرجل الذي سأستدعيه الآن بما قاله ألدر وما قلتُه أنا قدْر الإمكان؟ يُمكنني أن أُضيف أن الرجل الذي أتحدَّث عنه هو السيد هيمستيد، وهو في حُكم مالك الصحيفة، وقد نشأ بيني وبين السيد ألدر تبايُن طفيف في الذاكرة، إذا جاز لي أن أُسميه كذلك، ويبدو أنكِ الشخص الوحيد الذي يُمكنه تسويةُ النزاع.»

«أنا على استعدادٍ تام لإخبار أي شخصٍ بما سَمِعتُه.»

«شكرًا جزيلًا.»

ضغط السيد هاردويك على زرٍّ كهربائي، فجاء سكرتيره من غرفةٍ أخرى.

«من فضلك اطلب من السيد هيمستيد أن يحضر إلى هنا، إذا كان في غرفته.»

في غضون بضع دقائق، جاء السيد هيمستيد وانحنى بقوةٍ إلى حدٍّ ما تجاه السيدة مُحييًا إيَّاها، لكنه تجمَّد على الفور عندما سمع أنها كانت الشخصَ الذي منح سَبْق فضيحة مجلس الإنشاءات العامة إلى صحيفة «إيفنينج جرافيت».

وقال هاردويك: «لقد علمتُ لتوِّي يا سيد هيمستيد أن الآنسة باكستر كانت في الغرفة المجاورة عندما كنَّا نتحدَّث أنا وألدر حول هذا الأمر. وقد سمِعَت المحادثة. وأنا لم أطلبُ منها أن تُكرِّرها، لكنني أرسلتُ إليك في الحال، وهي تقول إنها مُستعدة للإجابة عن أي أسئلةٍ قد تطرحها.»

«في هذه الحالة يا سيد هاردويك، ألن يكون من الجيد وجودُ هنري ألدر هنا؟»

«بالتأكيد، إذا كان في المبنى.» ثم التفتَ إلى سكرتيره وقال: «هل يُمكنك معرفة ما إذا كان السيد ألدر في غرفته؟ أخبره أن السيد هيمستيد يرغب في رؤيته هنا.»

عندما جاء هنري ألدر، وانصرف السكرتير، اكتشفتِ الآنسة باكستر في الحال أنها في وضعٍ لا تُحسَد عليه؛ لأنه كان واضحًا تمامًا أن الرجال الثلاثة نادرًا ما يتحدَّث أحدهم إلى الآخر. ولا شيءَ يُسبِّب حالةً من التوتر في مكتب صحيفة مثل فقدان السَّبق في خبرٍ مُهم.

فاقترح هاردويك: «ربما يكون من الأفضل لو كرَّرَتِ الآنسة باكستر المُحادثة كما سمِعَتْها.»

قال السيد هيمستيد: «لا أرى فائدة من ذلك، هناك نقطة واحدة فقط هي مثار الخلاف. هل حذَّر السيد ألدر السيد هاردويك من أنه قد يفقد سبْقَ نشرِ هذا التقرير إذا تأخَّر في الحصول عليه؟»

أجابت الفتاة: «تقريبًا هذا هو ما حدث، حسبما أتذكَّر، لقد قال: «ألا يُوجَد احتمال من أن تحصل جريدة أخرى على هذا؟» فأجاب السيد هاردويك: «لا أعتقد ذلك. ليس خلال ثلاثة أيام على الأقل.» ثم قال السيد ألدر: «حسنًا» أو «جيد جدًّا» أو شيئًا من هذا القبيل.»

قال هاردويك موافقًا: «هذا يتوافق تمامًا مع ما أذكره عن الأمر؛ وأُقِرُّ بأنني المَلوم، لكنني أقول بلا ريبٍ إن السيد ألدر لم يُحذِّرني بالتأكيد من أن السَّبْق سيضيع علينا.»

صاح ألدر بتأكيدٍ من رجلٍ غاضب: «بل قلتُ لك إنه سيضيع إذا تأخرت، وقد ضاع. لقد كنتُ أتعقَّب هذا السَّبْق لمدة أسبوعَين، ومن المُزعج للغاية أن أفقده في آخرِ لحظة دون أي خطأٍ مني.»

قال السيد هيمستيد ببرود: «مع ذلك، لا تتَّفِق روايتك تمامًا مع ما تقوله الآنسة باكستر.»

قال ألدر: «أوه، حسنًا، لم أتظاهر أبدًا بإعطاء الكلمات الدقيقة. لقد حذَّرته ولم يستجب للتحذير.»

«أنت تُقِر، إذن، أن ما ذكرَتْه الآنسة باكستر من المحادثة صحيح؟»

«إنه صحيح تقريبًا. أنا لا «أجادل» بالكلمات.»

قال السيد هيمستيد بشيءٍ من الصرامة: «لكنك جادلتَ بالكلمات منذ ساعة؛ هناك فارقٌ بين الإقرار بحسمٍ أن الخبر سيضيع، وبين مجرد الاقتراح بأنه قد يضيع.»

قال ألدر بعدوانية: «أوه، فَسِّرْها كما يحلو لك، لا يُهِم على الإطلاق بالنسبة لي. إنه لأمر مُزعج للغاية أن تعمل بجِدٍّ لمدة أسبوعَين، ثم يضيع كل شيءٍ بقرار أحمق من رئيس التحرير. ومع ذلك، كما قلت، لا يُهِمني قرارك. لقد استلمتُ العمل في صحيفة دايلي ترمبت، ويمكنك اعتبار مكاني في بيجل شاغرًا.» وبعد أن قال جملته هذه، وضَع السيد ألدر الغاضب قُبعته على رأسه وغادر الغرفة.

بدا السيد هيمستيد مُنزعجًا من المناقشة، ولكن للمرة الأولى، ابتسم السيد هاردويك بتجهُّم.

وقال: «أنا أُصِرُّ دائمًا على الدقة، وعدم وجودها هو أحد إخفاقات ألدر.»

فاستفسر المالك بقلق: «ومع ذلك يا سيد هاردويك، لقد فقدتَ أحد أفضل رجالك. كيف ستُعوضه؟»

أجاب هاردويك بإلقاء نظرةٍ على الآنسة باكستر: «لا تُوجَد صعوبة كبيرة في تعويض حتى أفضل رجل في أي فريق تحرير في لندن، وبما أن هذه السيدة تبدو وكأنها تتمتَّع برباطة جأش قوية تجعلها تُحافظ على يقظتها وتأهُّبها عندما يتصل الأمر برفاهية صحيفتها، فسأُعيِّن الآنسة باكستر مكان هنري ألدر إذا لم يكن لديك اعتراض؟»

عقد السيد هيمستيد حاجبَيه قليلًا، ونظر إلى الفتاة بشيءٍ من الرِّيبة.

ثم غمغم قائلًا: «كنتُ أعتقد أنك لا تُؤمن بعمل المرأة كصحفية يا سيد هاردويك.»

«كنتُ كذلك حتى اليوم، ولكن بعد صدور الصحف المسائية، أصبح لديَّ سببٌ لتغيير رأيي. وأنا أُفضِّل أن تكون الآنسة باكستر معي وليست ضدي.»

فسألها المالك في ارتياب: «هل تعتقدين أنه يُمكنكِ شغل هذا المنصب يا آنسة باكستر؟»

أجابت الفتاة: «أوه، أنا متأكدة من ذلك، ولطالما أردتُ مكانًا في صحيفةٍ مرموقة مثل بيجل.» فابتسم السيد هاردويك مرةً أخرى بتجهُّم. التفتَ إليه المالك وقال: «أنا لا أفهم تمامًا يا سيد هاردويك ما يمكن أن تفعله سيدة في هذه الصحيفة خارج نطاق الأقسام المُعتادة.»

«أعتقد أنه لن تكون هناك أي مشكلة بشأن ذلك يا سيد هيمستيد؛ فعلى سبيل المثال، مَن الذي يُمكن أن يمتلك أفضل مهاراتٍ تُمكِّنه من محاولة حل تلك المسألة المُعقدة حول ماسات الأميرة فون شتاينهايمر؟»

صاح هيمستيد وعيناه تتألَّقان من الإثارة: «يا إلهي! إنها فكرةٌ رائعة. أتخيل أنه إذا تمكَّن أي شخصٍ من حلِّ ذلك اللغز، فهو الآنسة باكستر.»

الفصل الرابع

جيني تحصل على معلوماتٍ حول ماسات الأميرة

سألت الآنسة باكستر وقد أثارت ملاحظةُ رئيس التحرير فضولَها: «ما هو موضوعُ ماسات الأميرة؟»

أجاب السيد هاردويك: «هذه قصة طويلة، وقبل أن أبدأ، أودُّ أن أطرح عليكِ سؤالًا أو سؤالين. هل يُمكنك استخدام آلة كاتبة؟»

«هذا يتوقَّف على نوع الآلة. فأنا أجيدُ التعامل تمامًا مع الآلة الكاتبة العادية.»

«حسنًا. هل لديكِ أي معرفة بطريقة الكتابة بالاختزال؟»

«معرفةٌ جيدة؛ إذ يُمكنني كتابة ما يقرُب من مائة كلمة في الدقيقة.»

«هذا أمرٌ مُثير للإعجاب! رائع! لقد كان قدومكِ إلى هذا المكتب فكرةً رائعة حقًّا، كما أشار السيد هيمستيد. أنتِ بالفعل الشخص الذي كنتُ أبحث عنه.»

قالت الفتاة مع نظرةٍ خبيثة إليه: «لا يبدو أن هذا ما كنتَ تعتقده بالأمس يا سيد هاردويك.»

«حسنًا، حدثَت أشياء كثيرة منذ الأمس. نحن نتعامل الآن مع اليوم، ومع الأميرة فون شتاينهايمر.»

«إنها أميرة ألمانية؛ أليس كذلك؟»

«إنها أميرة نمساوية، لكنها أمريكية الأصل. وهي من عائلة بريجز في شيكاجو وكانت تحمل اسم عائلتها قبل زواجها. وهي ابنة بريجز، مليونير السكك الحديدية، وتتراوح قيمة ثروته ما بين عشرين وخمسة وعشرين مليون دولار بالطبع. وقد تزوَّجَت قبل عامٍ أو عامين من الأمير كونراد فون شتاينهايمر. ربما تتذكَّرين أنكِ قرأتِ عن ذلك في الصحف.»

«نعم بالتأكيد؛ المباراة الدولية المُعتادة: الفتاة تسعى وراء الحصول على لقب أميرة، وصاحب اللقب يسعى وراء الحصول على المال.»

«أنا أفترضُ ذلك؛ ولكن أيًّا كان الأمر، فهي الابنة الوحيدة لبريجز العجوز، وقد أضاعت الكثير من وقتها في أوروبا، لكنها أضاعت ما هو أكثرُ من الوقت؛ لقد أضاعت أموال الرجل العجوز أيضًا؛ إذ جمعت خلال إقامتها في أوروبا مخزونًا كبيرًا من الماس، وبعضها أحجار شهيرة جدًّا. لا أعرفُ قيمة المجموعة بأكملها، فالبعض يقول مليون دولار، والبعض الآخر يقول ضعف هذا المبلغ. وأيًّا ما كان الأمر، فقد أصبحت الآنسة بريجز هي الأميرة فون شتاينهايمر، وجلبت معها إلى النمسا مليون دولار من الذهب والماس، والتي قدَّمها والدُها كمهر؛ لكن، بالطبع، لكونها ابنته الوحيدة، سترِث بقية أمواله عندما يموت ثريُّ السكك الحديدية.»

«هل من الوارد أن يموت قريبًا؟ إذ لا أتصوَّر أن الأمير قد وهبَ نفسه مقابل مليون واحد فقط.»

«أوه، لقد نسيتِ شأنَ الماس. وبالنسبة إلى احتمالية وفاة بريجز العجوز، لا أظن أنه أمرٌ وَشِيك، وفق المحادثة التي أجريتُها معه بالأمس.»

«بالأمس؟ هل هو هنا في لندن إذن؟»

«نعم؛ لقد جاء ليكشف لُغز الماس.»

«وما هو اللغز؟ أنت تستغرق وقتًا طويلًا للغاية لتروِيَ قصة ما حدث يا سيد هاردويك.»

«ما حدث مهمٌّ، ويجب روايته بالتفصيل، وإلا فقد تذهبين في رحلةٍ طويلة دون طائل. هل تُدوِّنين ما أقوله بالاختزال؟ حسنًا، وإذا كنتِ حكيمةً فلا تفسِّري ملاحظاتكِ حتى لا يتمكَّن أي شخص من قراءتها؛ فهي في مأمنٍ هكذا. تمتلك عائلة فون شتاينهايمر قصرَيْن؛ قصرًا في فيينَّا، وقلعةً قديمة في تايرول، تقع على المرتفعات فوق جبل ميران، وهو مكان خلَّاب للغاية، كما علمتُ؛ ولكن في القريب العاجل ستعلمين أكثر مني؛ لأن صحيفة بيجل تتوقع منكِ أن تذهبي إلى هناك كمُراسلة خاصة لها. حدَثَ السطو على الماس قبل شهرَين تقريبًا، ولا تزال القضية تُمثل لغزًا كبيرًا حتى الآن. كان من المُقرِّر أن تفتتح الأميرة الموسم في ميران، وهو منتجع عصري، من خلال إقامة حفل تنكُّري في قلعة شتاينهايمر، والتي دُعِيَ إليه جميع الشخصيات النمساوية والأجنبية. وقبل أن يبدأ الحفل بقليل، فُقِد الماس لأول مرة — في الواقع — حيث كانت الأميرة على وشك ارتدائه، وهي

مُتنكرة في هيئة شخصيةٍ مُزيَّنة على نحوٍ رائع للغاية من شخصيات ألف ليلة وليلة، لكنها اكتشفَت أن الماس قد اختفى. وقد استاءت للغاية بطبيعة الحال من فقدانه، وأرسلت على الفور إلى زوجها الأمير، مُصِرَّة على ضرورة إخطار الشرطة على الفور واستدعاء المُحقِّقين، وهو أمرٌ طبيعي تمامًا. ولكن حدث أمر غريب في القضية، وهو أن الأمير منع نهائيًّا أي تغطيةٍ صحفية للخبر، ورفض الاستجابة لها عندما طالبت بضرورة إبلاغ الشرطة، مع أن الأمير يعرف أكثر من أي شخصٍ آخر قيمة الماس النفيسةَ للغاية.»

سألت الآنسة باكستر، وهي تنظر إليه بينما تُدوِّن ملاحظاتها: «ما سبب رفضه؟»

«لستُ متأكدًا تمامًا من ذلك؛ لكنني أعتقد أنه قال إنه لا يليق بمقام عائلة شتاينهايمر أن تستدعيَ الشرطة. على أي حال، كانت تلك حُجةً لا تُرضي الأميرة. لكن مع وصول الضيوف، ولأن الهدف كان عدم إحداث ضجة حول الموضوع بما يُفسد المناسبة، أذعنت الأميرة مؤقتًا لرغبة زوجها، ولم يُقَل أي شيءٍ علنًا عن السرقة. وظلَّ الحفل الرائع حديثَ ميران لعدة أيام، ولم يشُكَّ أحد في المشكلة ذات الشأن الخاص التي تدور أحداثها خلف هذا الحدث البارز. وخلال هذه الأيام العديدة، أصرَّت الأميرة على وجوب الاستعانة بالشرطة، بينما الأمير مُصرٌّ بالقدرِ نفسِه على عدم قول أو فعل أي شيءٍ حيال هذا الأمر. وبعد ذلك، وعلى نحوٍ غير مُتوقَّع تمامًا، تحوَّل موقف الأمير إلى النقيض، وأعلن أنه سيستعين بأفضل المُحقِّقين في أوروبا. والغريبُ في الأمر أنه عندما أعلن هذا القرار لزوجته، غيَّرت موقفها أيضًا، وعارضت استدعاء المُحققين بشدة كما فعل هو قبل ذلك.»

سألت الآنسة جيني: «ما السبب الذي علَّلت به تغيير موقفها؟»

«قالت، حسبما أعتقد، لقد فات الأوان الآن، وإن اللصوص، أيًّا كانوا، قد حصَلوا على الوقت الكافي للإفلات بفَعلتهم، ولن نجنيَ سوى ضجَّةٍ وقلقٍ بلا طائل.»

أكَّدت الفتاة: «أتعلم أنني أميل إلى الاتفاق معها.»

«حقًّا؟ إذن أخبريني ما هو رأيكِ في القضية وفقَ ما حصلتِ عليه من معلوماتٍ حتى الآن.»

«ما رأيك أنت؟»

«لن أُخبركِ في هذه المرحلة، لأنني أعرف المزيد من التفاصيل التي سأُخبركِ بها لاحقًا. أنا فقط أريد رأيكِ الآن، حتى أعرف إن كان ما يجب أن أخبركِ به بعد ذلك سيُغيره بأية حال.»

«حسنًا، بالنسبة إليَّ تُشير القضية نحو إدانة الأمير بالتأكيد.»

«وهذا ما يعتقده السيد بريجز. حيث يتخيَّل أن سموَّه قد سرَق الحُلي.»

«من أين حصلت على كل هذه التفاصيل؟»

«من السيد بريجز، الذي حصل عليها بالطبع عبر رسالة من ابنته.»

«إذن لدَينا، كما هو واضح، بيان من جانبٍ واحد.»

«أوه، بالفعل؛ ولكن لا يزال عليكِ أن تتذكري أن الأميرة لا تتَّهِم زوجها بالسرقة.»

«حسنًا، من فضلك استمِر. ما هي التفاصيل الأخرى؟»

«التفاصيل الأخرى هي أن الأمير أجرى بعض التحقيقات الهادئة بين الخدم، ووجد أن هناك رجلًا، على الرغم من أنه كان صديقًا له، كانت صداقته للأميرة أكثرَ قوة، وقد مُنِحَ هذا الرجل، في اليوم الذي أُقيمَ فيه الحفل، الحريةَ الكاملة للتجوُّل في القلعة. وهو ضابط شاب من أصول نبيلة يُدعى الملازم فون شاومبرج؛ وعلِم الأمير أن هذا الشاب كان يتعرَّض لضغوط شديدة بسبب بعض ديون القمار التي يبدو أنه غير قادر على سدادها. وقد ذهبَ الشاب على نحوٍ غير مُتوقَّع إلى فيينا في اليوم التالي للحفل، وعند عودته سدَّد كل ديونه. ثم علمت الأميرة، من إحدى وصيفاتها، خبر شكِّ زوجها، فذهبت إلى الأمير على الفور، وأخبرته أنها وافقت على رأيه بخصوص الماس المفقود. وأنها لن تسمح، تحت أي ظرفٍ من الظروف، باستدعاء مُحققين في هذا القصر. وعندئذٍ أخبرها أنه قد غيَّر رأيه هو الآخر، وقرَّر استدعاء المُحققين. وبذلك وجدا نفسَيهما في طريقٍ مسدودة مرةً أخرى. ومن ثمَّ كتبت رسالة إلى والدها تُعبر عن انزعاجها الشديد حول شكوك الأمير الظالمة، قائلةً إن فون شاومبرج رجل نبيل بكل معنى الكلمة. ومن ثمَّ أستطيع استنتاج أن العلاقات بينها وبين زوجها متوترة إلى حدٍّ ما، وأتخيل أن هناك ما هو أكثرُ بكثيرٍ في هذا الأمر من الماس المفقود.»

«هل تتخيل، إذن، أنها تتستَّر على الملازم؟»

«بصراحة، نعم.»

«وتظن أنه قد سرق الماس؟»

«نعم أظنُّ ذلك.»

«أنا لا أتفقُ معك. ما زلتُ أعتقد أن الأمير هو السارق، وأعتقد إلى جانب ذلك أنه تمكَّن بمهارةٍ من إلقاء الشكوك على المُلازم. هل استدعَوُا المُحققين أم لا؟»

«لا، إنهم في طريقٍ مسدودة، كما أشرتُ من قبل.»

«حسنًا، ماذا تنتظر مني أن أفعل؟»

«لقد أرسل السيد بريجز برقيةً لابنته — هو لا يكتب رسائل أبدًا — ليُخبرها أنه سيأتي ويحل المشكلة خلال خمس عشرة دقيقة. إنه متأكد من أن الأمير قد سرق الماس، لكنه لم يُخبر ابنته بذلك. وأخبرها أنه سيُحضر لها آلةً كاتبة جديدة كهدية، وأيضًا امرأة شابة من شيكاجو يُمكنها الكتابةُ بطريقة الاختزال كي تعتني بمُراسَلات الأميرة، وتعمل كسكرتيرة، في الواقع؛ لأنه يبدو أن الأميرة لديها مُراسلات أكثر مما يُمكنها التعامل معه على نحوٍ معقول، ومن ثمَّ يبدو أنها تحتاج بشدة إلى آلةٍ كاتبة. كما أخبرني الرجل العجوز أنها لا تعتني كثيرًا برسائلها، ولا يُمكنها أبدًا العثور على أي رسالةٍ تريدها، وأنها تُهملها دون ردٍّ لفتراتٍ طويلة، لذلك يعتقد أنها بحاجة إلى مَن يعتني بشئونها؛ وعندي شكٌّ في أن والدها يخشى أنها قد تُهمل رسالةً ما تتضمَّن أمورًا تضرُّ سُمعتها، لذلك يرغب في تجنُّب حدوث أزمة طلاق.»

«لا، أنا أتخيل أنك مُخطئ حيال هذا الأمر؛ فالأبُ لا تُساوره أدنى فكرة أن المشكلة يمكن أن تكون في ابنته. لكن من المُحتمَل أن الأميرة قد كتبت بعض العبارات التشهيرية عن زوجها، ومن المُرجَّح تمامًا أن الأمير رجل عنيف صلد، وأنَّ الشاب فون شاومبرج هو الشخص الأكثر سحرًا.»

تابع هاردويك: «حسنًا، كما كنتُ أقول، أرسل الرجل العجوز برقيةً لابنته يُخبرها أنه سيُحضِر لها سكرتيرة وآلة كاتبة. وقد اتفق مع مُحقِّقة من بينكرتون على دخول القلعة كسكرتيرةٍ للأميرة، وإذا أمكن، كي تَحلَّ لغز الماس. وهي امرأة شابة، عندما غادرت شيكاجو، كانت تُكِنُّ كراهية شديدة تجاه الإنجليز، لكنها تعرَّفت في الباخرة إلى شابٍّ إنجليزي أُعجِب بها كثيرًا، ولذا عندما وصلا إلى ليفربول أنهت بهدوءٍ اتفاقها مع الرجل العجوز، وأنجزت اتفاقًا جديدًا كانت قد عقدت العزم عليه مع الشابِّ وهو الزواج منه على الفور، بموجب رخصة زواج خاصة، كما قيل لي. ومن ثمَّ، أصبح لدى بريجز العجوز آلةٌ كاتبة جديدة لا تجد مَن يستخدمها، ولذا كنتُ سأقترح عليكِ أن تَحلِّي محلَّ الفتاة التي انتدبها من شركة بينكرتون في شيكاجو. لقد شعر بريجز بالاشمئزاز من المُحققات الإناث، لدرجة أنه تخلَّى عن فكرة إرسال مُحققة مع الآلة، ولا يتخيَّل أن مَن سوف يُرسَل إلى هناك سيكون إما مُحقِّقة أو صحفية. لقد تعرفتُ إليه منذ فترة من خلال إحدى ضربات الحظ التي تضع أحيانًا أخبارًا شيقة في طريقنا، وأخبرني القصة بأكملها، وطلب مني أن أُرشح له سكرتيرة تُتقن الكتابة بالاختزال والتعامُلَ مع الآلة الكاتبة. سوف أتناول العشاء معه هذا المساء، وسأُرشحكِ لتلك المهمة. ويجب أن أُخبركِ بأن بريجز قد

ذهب إلى ذلك المحقق اللندني الشهير السيد كادبوري تايلور، وطلب منه محاولة حل لغز الماس؛ لذلك كما ترين سيُصبح لديكِ مجالٌ واضح. وإذا كان بإمكانكِ المغادرةُ إلى القلعة مساء غدٍ، فقد تسعَدي برفقة السيد كادبوري تايلور. وهو لن يزور القلعة، لكنه سيذهب مباشرةً إلى فيينا؛ لذلك إذا رتبتِ خطواتكِ جيدًا، فيُمكنكِ أن تُسافري في العربة نفسِها معه حتى ميونيخ، وخلال تلك الرحلة قد تكتشفين ما يجول بخاطره حول هذه القضية. وأنا لا أعرف عن رأيه سوى أنه يعتقد أن المكان المناسب لبدء التحقيق هو فيينا، حيث يُفترَض، على الأقل، أن يكون بعض الماس قد رُهِنَ.»

«أوه، إنها قضية رائعة وسأستمتع بها. هل نُشِرَ في الصحف أي شيء له صلة بهذه السرقة؟»

«لم تُنشَر حتى كلمةٌ واحدة؛ لا أحدَ يعرف أيَّ شيءٍ عن الأمر، باستثناء الأمير والأميرة، وبريجز، وأنا وأنتِ، وربما واحد أو اثنان من الخدم في القلعة ... أوه، نعم، وكادبوري تايلور.»

الفصل الخامس

جيني تُقابل مُحققًا مُخضرمًا

ذهبت الآنسة باكستر في وقتٍ مبكر إلى المحطة قبل مغادرة القطار الأوروبي، وأخذت تسير على الرصيف ذهابًا وإيابًا، على أمل أن ترى السيد كادبوري تايلور الذي تعرِف وجهه وهيئته جيدًا. ثم استعانت بحمَّالٍ يتحدَّث الفرنسية، وتظاهرتْ أمامه بأنها لا تعرِف الإنجليزية.

وقالت: «أرغبُ في ركوب كابينة من الدرجة الأولى مع رجلٍ نبيل، سأشير لك نحوه كي تعرفه. وسأعطيك خمسة شلنات، ولذا عليك أن تُعيرَني كامل انتباهك. ولا داعي للقلق بشأن أمتعتي؛ فهي تحمل بطاقاتٍ تعريفية وجرى تسجيلها، ولكن عليك أن تُراقبني وتتبَعني في أي عربة أدخلها، وتُحضر معك حقيبة اليد وهذا الصندوق الثقيل.»

كان الصندوق الثقيل عبارة عن آلة كاتبة في حقيبتها. وقُبيل مغادرة القطار، دخل المحقق الشهير إلى المحطة بهيئته الطويلة النحيلة وهو يسير بخُطًى هادئة واثقة. كان يرتدي معطفًا خفيفًا يصل إلى كعبَيه تقريبًا، ويخلو وجهه المتوقِّد اليقِظ من شاربٍ أو لحية تمامًا. وعندما صعد إلى الرصيف، اقترب منه رجلٌ قصير بدين وتبادَل معه الحديث.

قال صديق المُحقق: «كنتُ أخشى أن تتأخر، لكنك جئتَ في موعدك تمامًا كالمعتاد.»

فقال السيد كادبوري تايلور: «محطة السكة الحديد ليست بالمكان الأكثر إلهامًا في لندن لقضاء نصف ساعةٍ إضافية، كما أنني كانت لديَّ بعضُ الحقائق لأستجمعها، والتي دوَّنتها الآن في دفتر ملاحظاتي، وأنا مُستعِدٌّ تمامًا للذَّهاب حالَما يتحرك القطار.»

«لقد حجزتُ كابينة مسموحًا فيها بالتدخين حيث سنكون بمُفردنا.»

قال كادبوري تايلور: «حسنًا يا سميث؛ أنت دائمًا تُحسن الاختيار.» ودخل الرجلان الكابينة معًا.

وبينما أخذ الحراس يصيحون: «ليجلس كلٌّ منكم في مقعده من فضلكم.» اقتحمت الآنسة باكستر الكابينة التي جلس فيها المُحقق وصديقه معًا في ركنَين مُتقابلين.

فقال سميث: «أستميحُكِ عذرًا، هذه كابينة مُدخِّنين.» ردَّت عليه السيدة بصوتٍ عالٍ بالفرنسية، وعلى الفور رفعَ الحمَّال الآلة الكاتبة وحقيبة اليد على المقعد المجاور لها. أظهر سميث استياءَه من التطفُّل، وبدا على وشك إلقاء اللوم على الحمَّال، لكن الرجل أجاب بسرعة وهو يُغلق الباب: «إن السيدة لا تتحدَّث الإنجليزية.» وفي اللحظة التالية تحرك القطار مغادرًا المحطة.

قال المُحقق: «لم يكن هناك داعٍ يا عزيزي سميث أن تعتمد على الحمَّال للحصول على معلوماتٍ تُفيد بأن السيدة لا تتحدَّث الإنجليزية. إنها سكرتيرة صاحب عملٍ ثري جدًّا في شيكاجو، وقد أتت من تلك المدينة إلى نيويورك، حيث أبحرت وحدَها على متن الباخرة سيرفيا، قادمةً إلى إنجلترا لإجراء بعض الأعمال الخاصة، والتي يُمكنني توضيحها لك بالتفاصيل الكاملة، إذا كان الأمر جديرًا بالاهتمام. لقد أتت من ليفربول إلى لندن عبر سكة حديد جريت ويسترن، وهي الآن في طريقها إلى باريس. وهذا كله واضح بالطبع حتى للمُشاهد العادي، ولذا يا عزيزي سميث، يُمكننا أن نُناقش قضيَّتنا بقدْرٍ من الأمان كما لو كنَّا وحدَنا تمامًا.»

صاح سميث بدهشة: «لكن، يا إلهي! كيف لك أن تعرف هذا كله يا كادبوري؟»

قال المُحقق بضجر: «يا صديقي العزيز، لا أحدَ يحمل آلة كاتبة معه وهو مسافر إلا إذا كان هذا الشخص سكرتيرًا. وهذه الفتاة، إذا لاحظتَ، تعمل الآن على مَلء هوامش كتابها بطريقة الاختزال، مما يُدلِّل على وظيفتها. كما أنَّ من الواضح أنها سكرتيرة رجل ثري؛ إذ إنها عبَرَت المُحيط قادمةً من أمريكا في كابينة درجة أولى على متن الباخرة سيرفيا، وهو ما يتَّضِح من خلال إلقاء نظرة سريعة على المُلصق الموجود على الحقيبة؛ ومن الواضح أنها جاءت بمفردها، أي إنَّ صاحب عملها لم يكن برفقتها؛ لأن الآلة الكاتبة تحمل مُلصَق (غير مطلوب)، ومن ثمَّ حُزِمَت ووُضِعَت على مقعدٍ جانبها؛ لأنه إذا كان رجل أعمال من شيكاجو يُسافر برفقة سكرتيرته، لوُضِعَت علامة «مطلوب في الكابينة» على حقيبة الآلة الكاتبة بدلًا من ذلك، حيث إن رجل أعمالٍ مثله يُفترَض أن يكتب مئات الرسائل، حتى وهو على متن باخرة في المحيط، لتُصبح جاهزةً للإرسال لحظةَ وصوله إلى الشاطئ. ومن الواضح أن حقيبة الآلة الكاتبة جديدة ومختومة باسم بائعها في شيكاجو وعُنوانِه. وما يدلُّ على أنها جاءت عبر جريت ويسترن هو ظهور كلمة «تشيستر» على

بطاقة أخرى فوق الحقيبة. وأعتقد حقًّا أن لديها عملًا خاصًّا في إنجلترا، وإلا لكانت قد سافرتْ إلى فرنسا مباشرةً من نيويورك إلى هافر؛ ولذا، كما ترى، يا ولدي العزيز، هذه كلُّها أمور يمكن استنتاجها بقوة الملاحظة، وهي جليَّة تمامًا لأي شخصٍ تعنيه التفاصيل.»

تمتم سميث قائلًا: «نعم، كل شيء يبدو بسيطًا جدًّا الآن بعد أن فسَّرته.»

قال المُحقق بعدم اكتراث: «كان ينبغي أن أكون أكثر غموضًا عمَّا أنا عليه الآن، لو أنني فقط لم أستفِض في الشرح والتفسير. لقد أصبحَت عادةُ التفسير هذه رذيلةً عندي، وأخشى أنه يجدُر بي الإقلاع عنها.»

قال سميث مُتلطفًا: «آمُل ألا تفعل هذا من أجلي، لأنني لو تُرِكتُ لأعتمد على نفسي، فلن أستطيع أبدًا معرفة كيفية توصُّلِك إلى استنتاجاتك الرائعة. هل تتوقع إذن أن يكون لُغز الماسات النمساوية صعبًا؟»

«صعب؟ أوه، لا يا عزيزي! لأصدُقكَ القول، لقد حلَّلتُ القضية بالفعل، ولكن لكي أجعل الأمريكي يشعُر بأنها مُعقدة وبأنني قطعتُ مشوارًا طويلًا كي أصِل إلى الحل، وهو بالتأكيد لن يُمانع، فهو مليونير حقَّق ثروته من توصيل الناس مقابل المال، لكونه صاحب سكة حديد، فسوف أتوجَّه الآن إلى فيينا. وإذا أخبرتُه بحل اللغز مباشرةً في لندن، فلن يُقدِّر مَوهبتي أكثر مما فعلتَ أنت قبل لحظةٍ عندما شرحتُ لك كيف عرَفتُ أن هذه الفتاة الفرنسية قادمة من شيكاجو.»

قال سميث بأسفٍ عميق: «لا تُؤاخذني في ذلك يا كادبوري؛ فأنا أعترفُ أنني انزعجتُ للحظةٍ لأن كل شيءٍ بدا بسيطًا للغاية.»

«يا صديقي العزيز، إنَّ كلَّ لُغز في هذا العالم بسيط باستثناء لغزٍ واحد، وهو أن تجد مشكلة يُمكن أن تصفها بأنها صعبة.»

«إذن مَن سرق الماس؟ هل هو الملازم؟»

ابتسم المُحقق وحدَّق لأعلى نحوَ سطح العربة لبضع لحظاتٍ تشويقية.

ثم قال أخيرًا: «لدَينا هنا أمير مُفلس تزوَّج وريثةً أمريكية، كما يفعل الكثير من الأمراء. وتبدأ الفتاة حياتها في النمسا بمليون دولار، لنَقُل مائتَي ألف جنيه إسترليني، وعلبة ماس يُقال إنها تساوي مائتي ألفٍ أخرى على أقل تقدير، وربما أكثر. ولا شيءَ يُنذِر بكثيرٍ من السوء إذا هم أنفقوا هذه الأموالَ بسرعةٍ كبيرة للغاية، أليس كذلك يا سميث؟»

«لا، أظنُّ ذلك.»

فتابع المُحقق: «وهكذا سيظن الرجل العادي؛ ومع ذلك، فقد أقلعتُ منذ فترةٍ طويلة عن عادة الظن؛ ولذلك كان عليَّ أن أتأكد. أول مسألة حدَّدتها لنفسي كي أتحقق منها هي: كم المبلغ الذي أنفقه الأمير والأميرة منذ أن تزوَّجا؟ فوجدتُ أن الإصلاحات في قلعة شتاينهايمر، الواقعةِ في تايرول، قد تكلَّفَت ما يقرُب من أربعين ألف جنيه. إنه مكان ضخم، ولم تحظَ عائلة شتاينهايمر بوريثةٍ منذ عدة قرون. كما استدان الأمير الكثير من المال عند الزواج، وتطلَّب الأمر ستين ألف جنيهٍ لتسوية تلك الديون؛ وهو في ذلك يُحاكي الأمراءَ الأوروبيين في بذخهم إلى حدٍّ ما، ولكن مَنْ يرغب حتمًا في اقتناء كل وسائل الراحة والفخامة، لا يُمكنه ادخار المال. وحتى لا أُضجرك بالتفاصيل، وجدتُ أن مبلغ مائتي ألف جنيه قد أُنفِق منذ شهرين تقريبًا؛ أي قبل السطو المزعوم في واقع الأمر. ولا شك أن الأمير مُفلس، وإلا لَمَا تزوَّج وريثةً من شيكاجو، وماذا عساها أن تفعل الأميرة، بطبيعة الحال، بعدما أصبحت مُفلسة؟»

صاحَ سميث بحماس: «ترهن الماس خاصتها!»

فابتسمَ المحقق.

«جالَ بخاطري أن الاحتمال الأرجح هو أن تطلُب مالًا من والدها. فسألتُه عما إذا كانت قد فعلت، وحددتُ له تاريخ الرسالة تقريبيًّا. فاتسعت عينا الرجل العجوز عند سماع سؤالي، وأخبرني أنه تلقى فعلًا رسالة بذلك. فتجرأتُ وسألتُه: «لكنك لم تُرسل المال؟» فأجاب: «بلى، لم أفعل؛ فالحقيقة هي أن المال شحيح للغاية في شيكاجو الآن، ولذا أرسلتُ إليها برقية كي تُرجئ الحديث عن ديونها لبعض الوقت.» وأكَّد هذا الاستنتاجَ الذي توصلتُ إليه بالفعل؛ إذ بعد أن فشلَتِ السيدة في الحصول على المال من والدها، لجأت إلى الماس، وهو الضمان الوحيد الذي بحوزتها، ويُمكنها تقديمه إلى البنك. ومن المُحتمل أنها فعلت ذلك قبل وصول برقيَّة والدها، وهذا هو سبب رغبتها الواثقة في استدعاء الشرطة والإدلاء بمعلوماتٍ عن الواقعة. فقد توقَّعَت أن تحصل على المال لاسترداد مجوهراتها، ولأنها امرأة ذكية، كانت تعرف الغباء المعهود للشرطة الرسمية، ومن ثمَّ اعتقدَتْ أنه ليس هناك ما يُنذر بأن يتمكَّنوا من اكتشاف خدعتها الصغيرة. ولكن عندما وصلتِ البرقية التي تُفيد بعدم إرسال أي أموال إليها، تغيرت ملامح الموقف برُمته؛ ذلك أنها لم تكن تعرف، ولكن لو أن الشرطة أُعطِيَت مُتسَعًا من الوقت، فلربما تمكنَت من العثور على الماس بضربة حظ.»

«لكن يا عزيزي كادبوري، لماذا لم تأخذ الماس علانيةً وترهنه وتحصل على المال بضمانه؟»

«يا صديقي العزيز، هناك عشرات الأسباب، وأي سبب منها كافٍ لتوضيح وضع المرأة في القضية؛ أولًا: ربما هي تخشى الإساءة إلى كبرياء عائلة فون شتاينهايمر. ثانيًا: نحن لا يُمكننا التنبُّؤ بطبيعة علاقتها مع زوجها؛ فربما لم ترغب في أن يعرِف أنها تُعاني من عجزٍ مالي. ولكني مُتأكد تمامًا ولا يُساورني أدنى شكٍّ في أنها قد سَرَقَت ماساتها. كلُّ ما ينبغي أن أفعله الآن هو معرفة عدد الأشخاص الموجودين في فيينا الذين بإمكانهم أن يُقرِضوا مبالغَ كبيرة من المال بضمان مجوهراتٍ ثمينة، وعندئذٍ، سوف أعثر على مَن رهنَت الأميرةُ ماساتها عنده.»

«ولكن يا عزيزي كادبوري، إنَّ السيدة تُقيم في ميران، وفيينا تبعُد عنها مئات الأميال. كيف يُمكن لسيدةٍ في منطقة تايرول أن ترهن ماساتها في فيينا دون أن يُلاحظ أحدٌ غيابها؟ أم هل تعتقد أن لديها وكيلًا تولَّى القيام بذلك نيابةً عنها؟» مرة أخرى ابتسم المُحقق باستسهالٍ ثم قال:

«لا، ليس لديها وكيل. إنَّ الماس لم يُغادر فيينا. انظر، لقد أُعلِن عن الحفل، وكانت هناك حاجة ماسة إلى أموالٍ فورية؛ ومن ثمَّ رهنت الماس قبل أن تُغادر عاصمة النمسا، ومن المُحتمَل أنها لم تكن تنوي أن يعرف أحد أنه مفقود؛ ولكن عشية الحفل أصرَّ زوجها على أن ترتدي الماسات، ولكونها امرأةً سريعة البديهة، قالت إنها قد سُرقَت. وبعد أن أعلنت ذلك، كان عليها بالطبع أن تلتزم بما قالت. والآن، بعد أن فشلَت في الحصول على المال من أمريكا، يُساورها قلق بالغ أن يُستعان بمُحقِّق مُخضرم للتحقيق في الواقعة.»

في دوفر، بعد أن سجلت الآنسة باكستر ملاحظاتها على هذه المحادثة الشيقة بطريقة الاختزال، شاهدت المُحقق وهو يودِّع صديقه سميث، الذي عاد إلى لندن على متن قطارٍ لاحِق، وداعًا حارًّا، ولم تعرف المزيد من السيد كادبوري تايلور بعد ذلك. ثم وصلت إلى قلعة شتاينهايمر في ميران دون مزيدٍ من المغامرة.

الفصل السادس

جيني تحل لغز الماس

وجدَت الآنسة باكستر الحياة في القلعة مختلفة كثيرًا عما كانت تتوقعه؛ فالأميرة سيدة شابة وجذَّابة وفاتنة للغاية، ولكنها في حالةٍ من الاكتئاب المُستمر. وقد رأتها الآنسة باكستر عرَضًا مرةً أو مرتَين وقد بدَت آثارُ البكاء واضحةً على وجهها. ولم يكن الأمير رجلًا عجوزًا، كما تخيَّلت، بل هو شابٌّ ذو مظهر رجولي قوي. ومن الواضح أنه صاحب مِزاج صعب للغاية، وهو يتنقَّل ببطءٍ في جنبات القلعة مع عُبوسٍ دائم على جبينه.

وكانت مُراسَلات الأميرة في غاية الفوضى؛ فهناك مئات ومئات من الرسائل، وبدأت الآنسة باكستر في جدولتها وترتيبها. وفي الوقت نفسِه أبقت الصحفيةُ الشابة عينَيها مفتوحتَين؛ حيث أخذت تتجوَّل في القلعة دون أن يُضايقها أحد، وتتفحَّص كل ركنٍ من أركانها الغريبة، كما تحدَّثَت إلى الخدم، بل في الواقع، إلى الجميع، لكنها أبدًا لم تجد دليلًا واعدًا يقود إلى حلِّ لُغز الماس. وفي إحدى المرات صعدت إلى إحدى غرف البرج، وفوجئت بوجود الأمير هناك، حيث كان جالسًا على حافة النافذة، ينظر بذهنٍ شارد إلى الوادي الواسع المُبهج الذي يمتدُّ لأميالٍ عند سفح القلعة. فقفز واقفًا على قدمَيه وحدَّق بقوةٍ فيمَن اقتحم عليه خلوته، لدرجة أنَّ قلب الفتاة كاد أن يتوقَّف، ولم يكن ذهنها حاضرًا حتى ليُرشِدها للالتفاف والركض.

وقال لها باقتضاب، وهو يتحدَّث الإنجليزية بإتقان: «ماذا تريدين؟ أفترض أنكِ الفتاة القادمة من شيكاجو؛ أليس كذلك؟»

أجابت الآنسة باكستر، وقد نسيت للحظةٍ الدورَ الذي كانت تلعبه: «لا، أنا من لندن.»

«حسنًا، لا يُهم. أنتِ السكرتيرة التي تُرتِّب مراسلات زوجتي، أليس كذلك؟»

«بلى.» فتقدَّم الأمير بسرعةٍ نحوَها وأمسكها من معصمها عاقدًا جبينه بعبوسٍ شديد وقال بصوت أجشَّ:

«اسمعي يا فتاتي الطيبة! هل تريدين أن تحصلي على أموالٍ مني تفوق ما ستحصلين عليه من الأميرة خلال عشر سنواتٍ من الخدمة؟ استمعي إذن إلى ما أقوله لكِ. إذا كانت هناك أي رسائل من ... من ... رجال، فهل تُحضرينها إلي؟»

كانت الآنسة باكستر خائفةً للغاية، لكنها قالت للأمير بحِدَّة:

«إذا لم تترُك معصمي، فسوف أصرخ. كيف تجرؤ على وضع يدِك عليَّ هكذا؟»

فأطلق الأمير معصمها وتراجع.

ثم قال: «سامحيني؛ أنا رجلٌ بائس جدًّا. انسَيْ ما قلتُه.»

صاحت الفتاة: «كيف أنساه؟» ثم استجمعت شجاعتها وهي ترى شجاعتَه تخونه أمام عينَيها المُتَّقِدتَين وقالت: «ماذا تُريدني أن أفعل؟»

«أُريدكِ أن تُحضري إليَّ أي رسائل كتبها ... كتبها ...»

صاحت الفتاة: «كتبها فون شاومبرج!» حيث لاحظَت تردُّدَه واستنتجَت الاسم.

تفجرَت موجة عارمة من الغضب في وجه الأمير فاكتسى كلُّه بالحُمرة.

وصاحَ: «نعم؛ أحضري لي رسالةً وصلَتها من فون شاومبرج، وسأدفع لكِ ما تطلبين.»

ضحكت الفتاة.

وقالت: «أيُّها الأمير، ستعذُرني إذا وصفتُك بالأحمق؛ إذ لا تُوجَد رسائلُ من فون شاومبرج، لقد راجعتُ كامل المُراسلات.»

«ما الذي جعلكِ إذن تُخمِّنين اسم فون شاومبرج؟ أين سَمِعتِه من قبل؟»

«سمعتُ أنك تشتبِهُ فيه وتظن أنه قد سرق الماس.»

«أجل، فعلَها اللصُّ الجبان. ولولا أن الأمر سيُلوِّث اسم الأميرة بجيفةٍ مثله، لكنتُ ...»

لكن الأمير أخذ يخطو غاضبًا في الغرفة ذَهابًا وإيابًا دون أن يُفصِح عما كان سيفعله. فأجبرته الآنسة باكستر بسرعة على التوقُّف وهي تقول في تردُّد:

«هناك أمرٌ يتعارَض مع واجبي تجاه الأميرة.» عندئذٍ توقَّف والتفتَ إليها بشدة وقال:

«ما هو الأمر المتعارِض مع واجبك؟»

«هناك رسائل مربوطة بشريطٍ أزرقَ رقيق، وهي مِن رجل، لم تسمح لي الأميرة بقراءتها، لكنها أخفتها في دُرجٍ سري في غرفة تبديل الملابس خاصتها، وأغلقته بالمفتاح، لكنها لا تكترِث كثيرًا بمفاتيحها وكلِّ شيء آخر، وأنا واثقة أن بإمكاني إحضارَها لك، إذا كنتَ تُريدها.»

قال الأمير: «نعم، نعم، أريدها، وسأُجزِل لكِ العطاء مقابل ذلك.»

أجابت الآنسة باكستر: «حسنًا، حسنًا، ستحصُل عليها. إذا انتظرتَ هنا عشر دقائق، فسأحضرها لك.»

قال الأمير مُترددًا: «لكن لا تقولي شيئًا للأميرة.»

«أوه، لا، لستُ بحاجة إلى ذلك؛ فمن المؤكد أن المفاتيح ستكون على طاولة الزينة.»

ركضَت الآنسة باكستر إلى غرفة الأميرة، ولم تجد صعوبةً تُذكَر في الحصول على المفاتيح، ففتحت قفل الدرج السري الذي رأت الأميرة تضع حزمة الرسائل فيه، وأخرجتها، وسحبَتْ ورقةً أخرى معها، قرأتها وهي تُحدِّق في دهشة، ثم أطلقت صفيرًا بشفتَيها الجميلتَين، جاء أشبهَ بالفحيح. فأخذَت كُلًّا من حزمة الرسائل والورقة معها، وركضت بسرعةٍ أعلى السُّلَّم وعلى طول الممر إلى الغرفة؛ حيث كان الأمير ينتظرها بصبرٍ نافد.

قال بشدة: «أعطيني إيَّاها.» وانتزع بوقاحةٍ حزمة الرسائل من يدِها. لكنها تشبَّثت بقطعة الورق المنفصلة ولم تقُل شيئًا؛ فوقف الأمير بجانب النافذة وفكَّ الحزمة بيدَين مُرتجفتَين، ثم تفحص الرسائل واحدةً تلوَ الأخرى، واستدار أخيرًا نحو الفتاة وقد عادت أماراتُ الغضب ترتسِم على وجهه.

وصاحَ قائلًا: «أنتِ تعبَثِين معي أيَّتها الفتاة.»

فقالت بشجاعة: «لا، أنا لا أعبث.»

«إنَّ هذه هي رسائلي الخاصة، التي كتبتُها إلى زوجتي قبل أن نتزوَّج!»

«بالطبع هي كذلك. ماذا كنت تتوقَّع إذن؟ هذه هي الرسائل الوحيدة، حسب علمي، التي كتبها أيُّ رجلٍ إليها، والرسائل الوحيدة التي تهتمُّ بها من بين كل الآلاف التي تلقَّتها. عجبًا لك، أيُّها الأحمق الأعمى، لم يكن قد مضى على وجودي في هذه القلعة سوى يومٍ واحدٍ حتى علمتُ حقيقة الأمور؛ فالأميرة قد انفطر قلبها المسكين لأنك غيرُ لطيفٍ معها، وهي لا تهتم بأحدٍ على وجه الأرض سواك، أيُّها الغبي الكبير.»

صاح الأمير، وأسقط الحُزمة وتوجَّه مُسرعًا نحو الفتاة وهو يقول: «هل هذا صحيح؟ هل تُقسِمين على أن هذا صحيح؟» وقفتِ الآنسة جيني وظهرُها إلى الحائط، ووضعتْ يدَيها خلفها، وقالت:

«توقَّف، توقَّف؛ لا تلمِسْني مرةً أخرى. بالطبع هذا صحيح، ولو كان لديك إحساسُ طفلٍ في السادسة من عمره، لكنتَ أدركتَ الأمر منذ زمنٍ بعيد؛ وهي قد دفعت ستين ألف جنيه من ديونك بسبب القمار أيضًا.»

«عمَّ تتحدَّثين؟ لم تُعطني الأميرة بنسًا قط من مالها. أنا لا أحتاجه؛ فالله يعلم أن لديَّ ما يكفي من مالي الخاص.»

«حسنًا، قال كادبوري تايلور إنك ... أوه، سأضمن لك، إنه مثل بقية تصريحاته، لغوٌ خالص.»

«عمَّن تتحدَّثين؟ ولماذا حمَت زوجتي ذلك البائس الحقير الذي تعرف أنه قد سرق ماساتها؟»

«هل تقصد فون شاومبرج؟»

«نعم.»

«أعتقد أن الأميرة تظنُّ أنه قد سرقها، والسببُ في أن الأميرة تحميه هو أن تمنعك من مُجابهته، لأنها تخشى أن يقتُلك، كونه رجلًا عسكريًّا، على الرغم من أنني أتخيَّل أنها كانت ستتخلص منك، وهذا من الأفضل لها.»

«لكنه سرق الماس، ما من أحدٍ غيره.»

«لم يفعل شيئًا من هذا القبيل. اقرأ هذه!»

أخذ الأمير، مُتعجبًا، الورقة التي سلَّمته إيَّاها وقرأها، وعقد جبينه من الحيرة. وقال: «لا أفهم! ما علاقة هذا بالقضية؟»

«يبدو أنه طلبٌ موجَّهٌ إلى البنك في فيينا بشأن الماس، كتبَته الأميرة نفسُها.»

«بالطبع هو كذلك. حسنًا، لو أنَّ الأميرة قد تسلَّمَت الماس، لكانت هذه الورقة الآن في حوزة البنك بدلًا منك.»

«ربما أخطأتْ في كتابة هذا الطلب وكتبَت غيره.»

«ربما. لكن ربما لا تزال الحقيقة جديرةً بأن تكتشِفها.»

«إذن، خُذي هذا إلى الأميرة واسأليها.»

«من غير المُحتمَل أنها ستتذكَّر. من الأفضل إرسالُ برقيةٍ في الحال إلى بنك فيينا، نطلُب منهم فيها إرسال الماس إلى ميران مع مبعوثٍ خاص. لا أحدَ هناك يعلم أن الماس مفقود.»

صاح الأمير: «سأفعلُ ذلك في الحال.» وقد أصبح صوته أكثرَ حيويةً ممَّا لاحظَته الآنسة باكستر سابقًا. حيث أصبح سموه مهتمًّا بالفكرة.

وبعد تناول الغذاء، جاءت الأميرة إلى الآنسة باكستر، التي كانت جالسة إلى مكتبها، وسلَّمت لها رسالة.

«هناك دعوة من دوقة تشيزيلهورست لحضور حفلٍ كبير ستُقيمه قريبًا في منزلها الكائن في لندن. يبدو أنه سيكون حفلًا رائعًا للغاية، لكني لا أهتمُّ كثيرًا بتلك الأمور لأقطع كلَّ هذه المسافة إلى إنجلترا كي أستمتع بها. من فضلِك أرسلي إليها رسالة اعتذارٍ عن عدم الحضور.»

«سأفعل في الحال.»

في تلك اللحظة جاءَ مرسال من الأمير يطلب من الآنسة باكستر مُقابَلته في المكتبة. فنظرت الفتاة إلى الأميرة.

وقالت: «هل تأذنين لي بالذَّهاب؟»

نظرت الأميرة إليها بثباتٍ للحظة، مع مسحةٍ طفيفة من العبوس على جبينها الجميل.

وتحدثت سموها بتأنٍّ: «لا أظنُّ أنكِ بحاجةٍ إلى إذني؛ لقد تعطف زوجي ليهتمَّ بكِ كثيرًا. إذ بينما كنتُ أمرُّ عبر الردهة صباح اليوم، سمعتُ أصواتكما وأنتما تتجاذبان أطراف الحديث في حوارٍ حماسي للغاية.»

«هل كان لديكِ من الاهتمام بمناقشتنا ما يجعلكِ تتوقَّفين وتستمِعين إلى ما قُلناه، أيَّتها الأميرة فون شتاينهايمر؟»

«آه، أنتِ تُسيئين الأدب وتتطاوَلين في الحديث، وعليَّ أن أُعلِمَكِ أن تعتبري وظيفتكِ لديَّ قد انتهت.»

«بالتأكيد لن تطرديني من وظيفتي بهذه القسوة أيَّتها الأميرة. أعتقدُ أنه يحقُّ لي الحصولُ على إخطارٍ مدته شهر، أم أنه أسبوع فقط؟»

قالت الأميرة، التي لم يكن لديها حسُّ دعابة، وبالتالي اعتقدتْ أن الفتاة كانت جادةً عندما طلبت إخطارًا: «سأدفع لكِ راتبَ عامٍ كامل، أو عامَين إذا كان ذلك يُرضيكِ. لا أريد أن أتعامل معكِ بقسوة، لكنني أُريدكِ أن تُغادري على الفور.»

ضحكت الآنسة باكستر بمرح، وأجابت بعدما تمكَّنت من كبح جماح فرحتها: «أنا أكره مُغادرة القلعة بعدما بدأتِ الأمور تصير مُمتعة ومُشوقة. ومع ذلك، لا أعتقد أنني سأُضطَر حقًّا إلى المغادرة على الرغم من إقالتكِ لي؛ لأن الأمير عرض عليَّ صباح اليوم عشرة أضعاف المبلغ الذي تدفعينه لي.»

«هل فعل حقًّا؟»

«نعم بكلِّ تأكيد؛ إذا كنتِ لا تُصدقينني، فاسأليه. لقد قلتُ له إنه أحمق، لكن، يا للأسف! نحن نعيش في عصرٍ يدعو إلى السخرية، وقليل من الرجال يُصدِّقون كلَّ ما يسمعونه، لذلك أخشى أنَّ تعبيري عن رأيي قد أثَّر فيه قليلًا.»

قالت الأميرة بكبرياءٍ فاتر: «لن أُؤخركِ عن سموه أكثر من ذلك.»

«شكرًا جزيلًا. فأنا أتوق لمقابلته بشدة، لأنني أعلم أن لديه شيئًا مهمًّا ليُخبرني به. ألا تعتقدين أنتِ نفسك، أيَّتها الأميرة، أن الرجل يتصرَّف مثل الأحمق عندما يكون في حالة عشقٍ وهيامٍ عميقَين؟»

لم تردَّ الأميرة على هذا السؤال، وغادرت الغرفة.

قفزت الآنسة جيني على قدَمَيها وهرولت مسرعةً إلى المكتبة، فوجدت الأمير يمشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة الطويلة، مُمسكًا ببرقيةٍ في يده. ومن ثم قال لها: «أنتِ امرأة مُميزة للغاية؛ اقرَئي ذلك.»

قالت الفتاة وهي تُمسك البرقية: «لقد أخبرني بذلك من قبل رجالٌ أكثرُ تميزًا منك، أيُّها الأمير فون شتاينهايمر.» كانت البرقية من مدير البنك في فيينا، وقال فيها: «سيصلُكم الليلة مبعوثٌ خاص مع الطرد مُستقلًّا قطارَ ميران السريع.»

قالت الآنسة جيني: «كما اعتقدتُ تمامًا؛ إن الماس لم يُغادر البنك أبدًا. أعتقد أن هؤلاء الخدم الحمقى الذين يُحيطون بالأميرة لم يعرفوا ما الذي أخذوه من فيينا وما الذي تركوه. وبعد ذلك، عندما لم تجد الأميرة الماس، فقَدوا صوابهم تمامًا، وكأنَّ كلَّ مَن في القلعة لم يَعُد لديهم أدنى قدرٍ من الذكاء ليستخدموه. لم أرَ قطُّ مثل هذا القدْر من عدم الكفاءة.»

فضحك الأمير وقال:

«ربما تعتقدين أنني لستُ ذكيًّا بما يكفي لأرى أن زوجتي تهتمُّ بي، أليس كذلك؟ هل لهذا السبب أعطيتِني رسائلي التي أرسلتُها إليها؟»

«أوه، إنَّ زوجتك تُحبك للغاية! وقد منحتني الأميرة الآن شرفَ أن أكون سببًا في إثارة شعورها بالغيرة. فَكِّر في ذلك! كما لو أنَّ من المُمكن أن أهتمَّ بك، مع أني رأيتُ رجالًا حقيقيِّين في حياتي.»

فرمَقَها الأمير بنظرة صارمةٍ وهو يقول:

«ألستِ تمتدحين نفسَكِ إلى حدٍّ ما أيَّتها الآنسة الشابة؟»

«أوه، لا يا عزيزي! أنا أعتبر ذلك عكس المدح؛ إذ ليس من المُفترَض أن يُراوِدني أيُّ إعجاب بشخصٍ ساذَجٍ مثلِك. يا له من مدحٍ حقًّا! وقد فصلَتني هي مِن وظيفتي بغطرسة، ولذا أستميحك عذرًا.»

«هل فعلَت الأميرة ذلك؟ ماذا قلتِ لها كي تفعل هذا؟»

«أوه، لقد قدَّمتُ أكثر الملاحظات براءةً، وكانت هي الحقيقةَ أيضًا، مما يدل على أن الصدق ليس دائمًا أفضلَ سياسة. لقد أخبرتُها فقط أنك عرَضتَ عليَّ عشرة أضعاف الراتب الذي تدفعه هي لي. وليس في ذلك ما يدعوك إلى القفز كما لو أن أحدَهم قد أطلق مُسدسًا على أذنك. أنت تعلم أنك قدَّمت لي هذا العرْض.»

صاح الأمير بغضب: «يا لكِ من مُزعجة بغيضة. هل أخبرتِها بالسبب الذي جعلني أُقدِّم لكِ هذا العرض؟»

«لا؛ هي لم تسأل.»

«سأكون شاكرًا لكِ بشدة إذا استخدمتِ مهارتك هذه لرأب الصَّدْع الذي تسبَّبتِ فيه دون أدنى مبالاةٍ من جانبك.»

«كيف يُمكنني ذلك؟ لقد أُمِرت بالمغادرة الليلة، بينما أرغبُ في البقاء كي أرى حلَّ لُغز الماس.»

«لن تُغادري الليلة. سأتحدَّث مع الأميرة حول هذا الموضوع إذا كان ذلك ضروريًّا. يُذكرني حديثك عن الماس بما أخبرني به والد زوجتي المُحترم، السيد بريجز، عن أنه قد استعان بمُحقق مشهور، اسمه تايلور على ما أظن، سيصِل هنا غدًا لتفسير لُغز الماس، ومن ثمَّ سيُصبح لديكِ منافس.»

«أوه، هل سيأتي كادبوري إلى هنا؟ هذا أمر مبهج للغاية. يجب أن أبقى وأستمع إلى تفسيره؛ لأنه مُحقق ذائع الصيت جدًّا، والاستنتاجات التي توصَّل إليها ستكون حتمًا الأكثر تشويقًا.»

«أعتقد أنني في انتظار بعض التفسيرات أيضًا؛ إذ يبدو أن والد زوجتي الوجيهَ قد كلَّف هذا الشخص دون أن يُفكر في ضرورة استشارتي على الأقل. وفي الواقع، عندما يأتي السيد بريجز إلى القلعة، فإنه يُقابلني وهو مُتجهِّمٌ ومُكفهرٌّ للغاية، لدرجة أنني أشكُّ أحيانًا فيما إذا كان هذا منزلي أم لا.»

«وهل هو كذلك؟»

«ماذا تقصدين؟»

«أقصدُ هل هو منزلك؟ قيل لي إنه مرهون حتى أعلى برجٍ فيه. ومع ذلك، لا يُمكنك إلقاء اللوم على السيد بريجز لقلقه بشأن الماس؛ فهو مِلكٌ لابنته.»

«إنه ملكُ زوجتي.»

«هذا صحيح. وهو ما يُعقِّد الأمور قليلًا، ويمنح شيكاجو وفيينا الحقَّ في أن تبدُوا قاتمتَين حزينتَين. والآن، يجب أن أستأذن سموك في الانصراف. وإذا وصل الماس بأمان في الصباح، فتذكَّر أنني أنوي المطالبة بإعلان أني مَن حلَلتُ لُغز اختفائه. وفي غضون ذلك، سأكتبُ قصة صغيرة لطيفة عنه.»

وفي الصباح، وصل الماس مع المبعوث الخاص، الذي أخذ في البداية إيصالًا رسميًّا باستلامه، ثم غادر. وعلى متن القطار نفسِه وصل السيد كادبوري تايلور، مُتواضعًا كما هو دائمًا، ولكن مع إعطاء بعض الدلائل في مظهره على أهمية الاكتشاف الذي ساعدَه منطقه الرائع في تحقيقه. وقد تهرَّب بلطفٍ من فضول السيد بريجز، وقال إنه ربما يكون من الأفضل الكشفُ عن السرِّ في حضور الأمير والأميرة، حيث أدَّت تحقيقاته إلى استنتاجاتٍ قد تكون غيرَ سارةٍ لأحدهما، ومع ذلك يجب عدم الكشف عنها في غيابهما.

تمتم السيد بريجز، الذي كان مُقتنعًا منذ فترةٍ طويلة بأن الأمير هو الجاني الحقيقي: «هذا ما كنتُ أظنه.»

ومن ثمَّ جلسوا جميعًا في المكتبة؛ فجلس الأمير، وفي جيب معطفه الماس، على رأس المنضدة الطويلة، وجلست الأميرة عند نهايتها، بعيدًا عن زوجها بقدْر ما تستطيع دون أن تلفت الانتباه. بينما وقفت الآنسة باكستر بالقُرب من النافذة تقرأ رسالةً مهمة من لندن وصلت إليها هذا الصباح. ثم جاء المُحقق الطويل النحيف مع السيد بريجز، وحيَّى الرجلُ اللندني الأمير والأميرة بانحناءةٍ واثقة. وجلس السيد بريجز إلى كرسي على جانب المنضدة، لكن المُحقق ظل واقفًا، ينظر بفضول إلى الآنسة باكستر، لكن من الواضح أنه لم يُدرك أنها السيدة التي التقت به وصديقِه مُصادفةً عندما استقلَّا القطار.

«أستميحك عذرًا يا صاحب السمو، ولكن ما يجب أن أقوله من الأفضل أن يُقال في حضور أقلِّ عددٍ مُمكن من المُستمعين. سأكون مُمتنًّا جدًّا إذا قرأتْ هذه الآنسة رسالتها في غرفة أخرى.»

قال الأمير ببرود: «الآنسة هي سكرتيرة سُموِّها وهي تثِق فيها ثقةً كاملة.»

لم تقُل الأميرة شيئًا، لكنها جلسَت وعيناها على المنضدة، دون أن يبدوَ عليها أي تأثُّرٍ بما يجري. وبينما تورَّد وجهها باللون الأحمر، رمقها المُحقق الذكي بنظرةٍ سريعة خاطفة، فرأى أمامه امرأة شاعرةً بذنبها، وتخشى أن يفتضح أمرها، لكنها لا تعرف كيف تتفادى ذلك.

قال السيد تايلور بلُطفٍ: «هل ستعذُرني سموك لإصراري؟»

قاطعه الأمير على نحوٍ فظ: «لا، واصِل روايتك دون الكثير من المُوارَبة والإطناب.»

تنحنح المُحقق، الذي يبدو أنه غير مُنزعج من أسلوب الأمير الفظ، ثم انحنى بعمقٍ نحو الأمير، وبدأ.

فقال، مخاطبًا الأميرة: «هل لي أن أسأل سموكِ، كم كنتِ تمتلكين من المال قبل مُغادرتكِ فيينا؟»

نظرَت إليه السيدة مُتفاجئةً لكنها لم تُجِب.

صاح الأمير، وقد طغى مزاجه العصبي عليه مرةً أخرى: «بحقِّ السماء، ما علاقة ذلك بفقدان الماس؟» بسط كادبوري تايلور يدَيه وهزَّ كتفَيه احتجاجًا على المقاطعة. وتحدَّث باحترام وإذعان، ولكن مع ذلك كانت هناك لمسةٌ من اللوم في نبرته.

«لقد اعتدتُ أن يُستمَع إليَّ بصبر، ويُسمَح لي بسرد قصتي بطريقتي الخاصة، سموَّك.»

«ما أشكو منه هو أنك لا تسرد أي قصة على الإطلاق، لكنك تسأل بدلًا من ذلك سؤالًا وقحًا للغاية.»

«الأسئلة التي قد تبدو لك غير ذات صِلة، قد تكون لعقلٍ مدرَّب ...»

«كلام فارغ! حَمير مُدرَّبة! هل تعرف أين الماس؟»

أجاب كادبوري تايلور وهو لا يزال صامدًا، على الرغم من الاستفزاز الذي يتلقَّاه: «نعم، أعرف.»

«حسنًا، أين هو؟»

«إنه في خزائن البنك الذي تتعامل معه في فيينا.»

«أنا لا أُصدِّق ذلك. فمَن سرقه إذن؟»

«لقد وُضِعَ هناك من قِبَل صاحبة السمو الأميرة فون شتاينهايمر، بلا شك كضمانٍ مقابل المال …»

زأر الأمير، وقد انتفض واقفًا على قدمَيه، بصوتٍ جهوري وهو يقول: «ماذا! هل تقصد التلميح، أيُّها الشرير، بأن زوجتي قد سرقت ماساتها؟»

«إذا سمح لي سموك بالمُضي قدمًا في تفسيري …»

صاحَ الأمير وهو يُخرج الصندوق من جيبه ويضعه بقوةٍ على الطاولة: «كفاكَ حمقًا! هذا هو الماس.»

صاحَ العجوز بريجز، وهو يضربُ بقبضته على المنضدة المصنوعة من خشب البلوط: «ها هو! ألم أخبرك؟ كنتُ أعرف ذلك طوال الوقت. لقد سرق الأمير الماس، وها هو في حماسته يُخرجه من جيبه ويُثبت ذلك. كان هذا رأيي طوال الوقت!»

قالت الأميرة في خفوتٍ وهي تتحدَّث لأول مرة: «أوه، أبي، أبي! كيف يُمكنك أن تقول مثل هذا الكلام؟ لا يمكن أن يُقدِم زوجي على مثل هذا التصرُّف الشائن. فكرة أنه مَن سرق الماس غير واردة على الإطلاق! لا يمكن أن يفعل ذلك حتى لو كان يُساوي ألف مليونٍ وحتى لو كان متأكدًا من أن اكتشاف السرقة مُستحيل.»

أدار الأمير نظرَه إلى زوجته التي وضعت ذراعَيها على الطاولة ودفنتْ وجهها فيهما، بعد أن كان يُحدِّق في السيد بريجز، وبدا وكأنه على وشك أن يُصارح الرجل ذا الوجه الأحمر بالحقيقة.

فصاحت الآنسة جيني باكستر، وهي تتقدَّم بقوة إلى الأمام: «هيا، هيا، أتصوَّر أن الجميع قد سئم من هذا. فلتخرُج الآن يا سيد بريجز وخُذ السيد تايلور معك. أنا متأكدة من أنه لم يتناول أي إفطارٍ بعد، ومن المؤكَّد أنه يبدو جائعًا. وإذا استعنْتَ بمُحقِّقين يا سيد بريجز، فلا بدَّ أن تعتنيَ بهم جيدًا. هيا اذهب. ستكون غرفة الطعام أنسبَ من المكتبة الآن؛ وإذا لم تجد ما تُريد من الطعام، فاستدعِ الخدَم وسيُحضرونه لك.»

ومن ثمَّ اقتادت الرجلَين الصامتين أمامها، وأغلقت الباب، وقالت للأمير، الذي كان لا يزال يقف في حيرةٍ مِن إجباره على إظهار ما في حوزته على هذا النحو:

«إذن! ها قد تخلَّصنا من اثنين من الحمقى وتبقَّى اثنان. والآن يا أعزائي — لن أُبجِّل أيًّا منكما — أنتما ببساطةٍ شخصان وحيدان يُحِب أحدُهما الآخرَ حبًّا جمًّا، لكنكما

تتباعدان بسبب سوء فهم أحمق يمكن أن تُصحِّحه بِضعُ كلماتٍ إذا كان لدى أيٍّ منكما شعور كافٍ للإفصاح بها، وهو ما ليس لديكما، ولهذا السبب أنا هنا للتحدُّث نيابةً عنكما. الآن يا سيدتي، أنا على استعدادٍ لأَنْ أُقسِم أن الأمير لم يقُل لي أبدًا أيَّ شيءٍ يُخالِف حبَّه العميقَ لكِ، وإن كنتِ قد سمعتِ الحوار الذي دار بيننا، فلن تكوني في حاجةٍ إلى إخباركِ بذلك. وهو يظن أنكِ معجبة بذلك الأبله فون شاومبرج؛ وذلك ليس لأنني رأيتُ المسكين من قبل، لكنه لا بدَّ أن يكون أبله، وإلا فما كان الأمير ليغار منه. وكما أن أحدًا لم يسرق الماس بعد كل هذه الجَلبة، فإنَّ أحدًا لم يسرق الحُبَّ الذي يُكِنُّه أيٌّ منكما تجاه الآخر. أستطيع أن أرى من خلال الطريقة التي ينظُر بها أحدكما إلى الآخر أنني لستُ بحاجةٍ إلى أن أستسمِحَكما أن أترُككما وحدكما بينما أركض أنا إلى غرفتي كي أحزم أمتعتي.»

صاحت الأميرة: «أوه، لكنكِ لن تتركينا، أليس كذلك؟»

«كم يُسعدني أن أبقى؛ لكن لا راحة في هذا العالَم، وعليَّ أن أعود إلى لندن.»

بعد ذلك ركضَت الفتاة إلى غرفتها وهناك أعادت قراءة الرسالة التي تلقَّتها:

عزيزتي الآنسة باكستر (انتقلَتْ بسرعة إلى الجزء التالي)، نحن في معضلة كبيرة للغاية هنا، ولذا أكتبُ إليكِ كي أطلب منكِ أن تُقابليني في لندن دون تأخير، ثم تستطيعين العودة إلى تايرول لاحقًا إذا كان التحقيق في لُغز الماس يستلزم عودتَكِ؛ حيث ستُقيم دوقة تشيزيلهورست حفلًا رائعًا في التاسع والعشرين من هذا الشهر. إنه حدَث مُهم للغاية، ستحضره شخصياتٌ بارزة من كل أنحاء أوروبا، ويبدو أن منظِّمي الحفل مصرُّون على عدم حضور أي صحفي. وقد بذلنا قصارى جهدنا للحصول على دعوة حضورٍ رسمية لمُراسلنا، ولكن دون جدوى، فالردُّ دائمًا أنهم سيُرسلون بيانًا رسميًّا كي تنشره كل الصحف. والآن، أريدكِ أن تستغلِّي براعتَكِ في العمل، وتحصلي على الدعوة إن أمكن؛ لأنني مصرٌّ على أن أحظى بتغطيةٍ صحفية لهذا الحفل مكتوبة بطريقة تجعل كلَّ من يقرؤها يعرف أن الكاتب قد حضرَها بالفعل. وإذا تمكنتِ من فعل هذا، فلا يسَعُني أن أُعبر لكِ عن مدى امتناني ومالكِ الصحيفة تجاهَ ذلك.

المُخلِص

رادنور هاردويك

جلسَت الآنسة جيني باكستر للحظاتٍ مُستغرِقةً في التفكير، والرسالةُ في يدها، وأخذت تسترجع في ذهنها أسماءَ أولئك الذين قد يُمكنهم مساعدتُها في هذه المهمة، لكنها استبعدتهم واحدًا تلو الآخر، مُدرِكة جيدًا أنه إذا كان السيد هاردويك ومالك صحيفة بيجل قد التمسا مساعدة جميع أصدقائهم المُؤثِّرين دون جدوى، فإنها بدورها لم يكن بإمكانها أن تأمُل في النجاح بمساعدة عدد قليل جدًّا من الشخصيات المهمة التي تعرفها. ثم تساءلَتْ عمَّا إذا كان بإمكان الأميرة أن تحصل لها على دعوة؛ وفجأة لمعت عيناها، وقفزت بلهفةٍ على قدمَيها.

وصاحت بصوتٍ عالٍ: «يا للحظِّ السعيد! فأنا لم أبعث رسالةَ رفض الأميرة لحضور الحفل إلى دوقة تشيزيلهورست حتى الآن. لقد نسيتُها تمامًا حتى هذه اللحظة.»

الفصل السابع

جيني تُرتِّب لزيارة مثل زيارة سندريلا

تتميَّز الغرفة التي خُصِّصت لجيني باكستر في قلعة شتاينهايمر بإطلالةٍ مترامية الأطراف. وهي مزوَّدة ببابٍ زجاجي يُؤدي إلى شُرفة حجرية مُعلَّقة على جدار القلعة مثل عُش سنَونو مُعلَّقٍ على إفريزِ منزل. كانت هذه الشُّرفة واسعة بما يكفي لتوفير مساحةٍ كبيرة لواحدٍ من الكراسي الهزازة المُريحة، جلَبَته الأميرة من أمريكا، وترى جيني أنه قطعةُ الأثاث الوحيدة المُريحةُ حقًّا في هذه القلعة العتيقة، مع العِلم أنها أُعجِبت بالتميز الفني للكراسي والمناضد والخزانات التي تحمل طراز العصور الوسطى التي خدَمَت لقرونٍ احتياجات الأجداد الذين عاشوا في القلعة. كان الكرسي الهزَّاز عصريًّا مثل جريدة الصباح اليومية، وقد طُلِيَت أجزاؤه الخشبية باللون القرمزي اللامع، وتبدو ذراعاه كرفَّيْن عريضَين، ونوابضه متوازنة على نحوٍ دقيق وحسَّاس مثل البوصلة البحرية. في الواقع، لن يجد المرءُ مثل هذا الكرسي إلا في أرجاء شرفة شاسعة بأحد الفنادق الصيفية في أمريكا. ومن ثَمَّ جلست الآنسة جيني على هذا الكرسي، وعلى رجلَيها رسالتان مفتوحتان، والحيرة بادية في العبوس الطفيف الذي جعَّد نعومةَ جبينها الرقيق. كان المشهد من الشرفة العالية لا يُنسى؛ ولكن، على الرغم من أن هذا هو آخِر يومٍ لها في القلعة، لم ترَ الفتاة شيئًا من بلدة ميران الجميلةِ في الأسفل حتى الآن؛ فيما وراء خطِّ التحديد المُمتد أسفل المنحدر الذي يُحدِّد الطريق المُتعرِّج لمقاطعة أديجي ذات البحيرات الجميلة، أو الجبال الشاهقة التي تُحيط بالمكان، أو القمم الثلجية البعيدة، التي تتلألأ باللون الأبيض على خلفية لون السماء الأزرق الداكن.

كانت إحدى الرسالتَين التي وضعَتها في حجرها هي تلك التي تلقَّتها من رئيس التحرير، ويسرد فيها الصعوبات التي واجهها أثناء محاولته اتخاذَ الترتيبات اللازمة

لتغطية حفل دوقة تشيزيلهورست؛ بينما تحمل الرسالةُ الأخرى دعوةَ الدوقة للأميرة من أجل حضور الحفل، التي لم يُرسَل ردٌّ عليها حتى الآن. شعرت جيني بالإطراء عندما علِمت أن رئيس التحرير، الذي أشركها بتردُّدٍ غير مَخفي، يتوقَّع منها أن تُنجِز ما يعجز فريق المُحررين بأكمله عن تحقيقه. كانت تعلم أنها، لو كان لديها الشجاعة الكافية، فمن الضروري أن تقبل الدعوة باسم مُضيفتها الحاليَّة، وحضور الحدث الاجتماعي الكبير مُنتحِلةً شخصية الأميرة فون شتاينهايمر. ومع ذلك فقد تردَّدت، ليس بسبب الاحتمال الوارد جدًّا لافتضاح أمرها، ولكن لأنها أصبحَت تُحبُّ الأميرة، وانتحالُ الشخصية هذا، إذا وصلَ إلى معرفة الشخص المَعني به وهو الأميرة، وهو أمرٌ من المؤكد تقريبًا أنه سيحدُث، فسوف يُعتبَر بلا شك غلطةً لا تُغتفَر. وبينما هي تتمايل بلُطفٍ ذهابًا وإيابًا على الكرسي الهزَّاز، فكرَت في الاعتراف بكلِّ شيءٍ للأميرة وطلَبِ مساعدتها؛ لكن بالتفكير في هذا، رأتْ أنها تُغامر بكلِّ شيءٍ في رميةِ نردٍ واحدة. فإذا رفضت الأميرة، يُصبح المُخطَّط مُستحيلًا، حيث سترُدُّ السيدة بنفسها على خطاب الدوقة وترفض الدعوة. هدَّأت جيني ضميرها اليقِظ بقولها لنفسها إنَّ هذا الانتحال لن يضُرَّ الأميرة فون شتاينهايمر، أو أيَّ شخصٍ آخر في هذا الشأن، في حين أنه سيكون مساعدةً لا تُقدَّر بثمنٍ لمسيرتها المهنية كصحفية. ومن تلك النقطة انجرفت إلى التأمُّل في أوجه عدم المساواة في هذه الحياة؛ الوَفْرة الفائضة التي يمتلكها البعض، في مقابل الصعوبة الشديدة التي يواجهها البعض الآخر، وهو ليس أقلَّ استحقاقًا، في الحصول على الضروريات الشحيحة. وقد قدَّم هذا التسلسلُ الفكري بعض المواساة بعد أن انعقد عزمها على أخذ المنحة التي نثرَها القدَرُ عند قدمَيها، أو ألقاها في حجرها، فزَفَرَت تنهيدة طويلة بإصرار بينما جاءت نقرةٌ لطيفة على باب غرفتها، مع صوت الأميرة نفسها وهي تقول: «هل لي بالدخول؟»

ألقت جيني الرسالتَين على المنضدة، بينما احمرَّت وجنتاها وهي تقفز على قدمَيها لتفتح الباب.

دخلتِ الزائرة، وقد بدَت جذَّابة بما يكفي لتكون أميرةً من دنيا الخيال، وحيَّت الآنسة باكستر بحرارة.

ثم قالت: «أشعُر ببالغ الأسى لمُغادرتكِ، ألا يُمكنني إقناعكِ بتغيير رأيكِ والبقاء معي؟ أين يُمكنكِ أن تجدي منظرًا أجملَ من هذا بخلاف شُرفتكِ هنا؟»

قالت الفتاة وهي تنظر إلى الأميرة بإعجابٍ واضح وتتجاهل المناظر الطبيعية تمامًا: «أو مُضيفة أكثرَ جمالًا؟»

ضحكَت الأميرة، وبينما أصبحتا تقِفان الآن معًا في الشرفة، رفعت يدَيها، ودفعت جيني برفقٍ إلى الكرسي الهزَّاز مرة أخرى، وجلست برشاقةٍ على ذراعه العريضة، وهكذا بدت الاثنتان كتلميذتَيْن عابثتَيْن، في المنزل في فترة العطلة، تستمتِعان بحُريتهما تمامًا.

وصاحت الأميرة: «اجلسي هنا، أنتِ الآن أسيرتَي، وعلى وشك أن تُعاقَبي بتهمة الإطراء، وقد لاحظتُ من حركة الكرسيِّ أنكِ قد قفزتِ للتوِّ منه عندما طرقتُ أنا الباب، ولذا ها أنتِ ذا، عُدتِ إليه مرةً أخرى. فيمَ كنتِ تُفكرين؟ إنَّ الكرسي الهزاز يُطلِق العِنان للتأمُّل على نحوٍ بالغ اللذة، ودائمًا ما نحلم بشخصٍ مُميَّز للغاية بينما نحن جالسون عليه.»

تنهَّدَت جيني قائلةً: «لستُ استثناءً من القاعدة، لقد كنتُ أفكر فيكِ أيَّتها الأميرة.»

«إنه لطفٌ منكِ أن تقولي ذلك؛ وبما أن المجاملة اللطيفة تستحق أن تُقابَل بأخرى مثلها، فإليكِ دليلًا على أنني كنتُ أُفكر في سيدة شابة بعينها.»

وأثناء حديثها، أخذت الأميرة من جيبها حقيبةً منقوشة من الجلد الروسي، وفتحتها وأخرجت عقدًا من الماسات الصغيرة، المُتلألئة مثل قطرات الضوء السائل.

ثم قالت: «أريدكِ أن ترتدي هذا العقدَ الماسيَّ كذكرى لحلِّ لغز الماسات، ولهذا السبب اخترتُ الماس كهدية، وأعترفُ أيضًا بسبب آخر، وهو أنني أريدُكِ أن تُفكري بي في كل مرةٍ ترتدينه. انظري كم أنا مغرورة! لا يُحب المرءُ أن يُنسَى.»

أخذت جيني العِقد، وتألقت عيناها للحظةٍ ببريق ماساته؛ ثم حجبت الرطوبةُ رؤيتها ونقلت العقد تلقائيًّا من يدٍ إلى أخرى، كما لو كان بريقه المتلألئ يُنوِّمها مغناطيسيًّا. وحاولت مرةً أو مرَّتين أن تتكلم، لكنها لم تكن متأكدة من خروج صوتها، لذلك ظلت صامتة. لاحظت الأميرة توتُّرها، فرفعت العقد بلطفٍ ووضعته حول عنق الفتاة الأبيض، وهي تُثرثِر طوال الوقت في عجلة وانفعال.

«ها أنتِ ذا! الماس يليق بكِ، وهناك الكثيراتُ ممَّن لا يليق عليهن. أنا أيضًا أبدو جميلةً عند ارتداء الماس؛ على الأقل، هكذا قِيل لي مرارًا وتكرارًا، وقد أصبحتُ أُصدِّق ذلك في النهاية. أفترضُ أن الفتيان لم يُخفوا عنكِ حقيقةَ أنكِ فتاة جميلة للغاية يا جيني. وفي الواقع، وهذا تفاخُر إذا سمحتِ، فنحن مُتشابهتَان بما يكفي لأن نكون أُختَيْن، بنفس الطول تقريبًا، ونفس لون العينين والشعر. تعالَي إلى المرآة أيَّتها الفاتنة، وتباهَي بنفسك.»

ومن ثمَّ أوقفت جيني على قدمَيها وسحبتها إلى الغرفة، وأوقفتها أمام المرآة الرائعة التي تعكس لهما صورةً كاملة الطول.

وصاحت الأميرة بابتهاج: «اعترفي الآن أنكِ لم تُشاهدي فتاةً أجملَ من قبل.»

وافقت جيني، لكنها كانت تنظُر إلى صورة الأميرة وليس إلى صورتها، وقالت: «لا أظنُّ أنني شاهدتُ.» فضحكَت الأميرة، لكن بدَت الآنسة باكستر متأثرةً للغاية بالهدية غير المتوقَّعة لدرجةٍ يصعب معها أن تُظهِر ابتهاجها. ونظرت إلى نفسها بوقارٍ في المرآة لبضع لحظات، ثم فتحت المشبك ببطءٍ، وخلعت العقد من رقبتها، وأعادته إلى الأميرة وهي تقول: «أنتِ لطيفة جدًّا جدًّا، لكن لا يُمكنني قَبول هدية باهظة الثمن مثل هذه.»

«لا يُمكنكِ؟ لماذا؟ هل أسأتُ إليكِ بأي شيءٍ قلتُه منذ أن أتيتِ إلى هنا؟»

«أوه، كلَّا، كلَّا. إن الأمر ليس كذلك.»

«ماذا إذن؟ ألا أروق لكِ، بعد كل شيء؟»

صاحت الفتاة باندفاع، وألقتْ بذراعَيها حول رقبة الأخرى وهي تقول: «تروقين لي؟ إنني أُحبكِ أيَّتها الأميرة!»

حاولت الأميرة أن تضحك وهي تضمُّ جيني إليها، لكن صاحبَت الضحكة بعضُ الدموع وهي تقول:

«يجب أن تأخُذي هذه الهدية الصغيرة كتَذْكارٍ لزيارتكِ لي. لقد كنتُ حقًّا حزينةً للغاية عندما أتيتِ، والآن، حسنًا، لقد أزلتِ سوء الفَهم ووضحتِ الكثير من الأمور، وأنا أكثرُ من ممتنَّة لكِ. وفي نهاية الأمر ليس من الطبيعي للمرأة أن ترفُض الماس يا جيني.»

«أعلم ذلك؛ وأنا لن أرفض الهدية تمامًا، لكن سأُؤجِّل قَبولها.؛ إذ من المُحتمَل أن شيئًا ما سأفعله قريبًا قد يُسيء إليكِ بشدة. فإذا أساء إليكِ، فلن أستطيع قَبولها! وإذا لم يحدُث ذلك، عندما أُخبركِ بكل شيءٍ عن تصرُّفي السيئ — وسأعترفُ بشجاعة — فعندئذٍ سأقبلها.»

«عزيزتي جيني، ما هي الجريمة الرهيبة التي تُوشكين على ارتكابها؟ لماذا لا تُخبرينني الآن؟ لقد أثَرتِ فضولي بشدة.»

«لا أجرُؤ على إخباركِ أيَّتها الأميرة؛ ليس قبل أن يُثبت مشروعي النجاحَ أو الفشل. فنحن النساء بعضنا فُرِضَ عليهن مصيرهن، وبعضنا يصنَعن مصيرهن. وأنا ممَّن اخترن أن يصنعن مصيرهن، وآمُل أن تتذكَّري ذلك، إذا حدث أن شعرتِ بالغضب منِّي في أي وقت.»

«هل هو نوع جديد من التكهُّنات؟ ثروة صُنِعت بضربة حظ؟ مراهنة؟»

«شيءٌ من هذا القبيل. سأُراهن على أمرٍ يستلزم قدرًا كبيرًا من الحظ؛ ولذا أرجو منكِ الدعاءَ حتى يُحالفني الحظ.»

«إذا كانت العزيمة ستجعلكِ تفوزين، فأنا متأكدة من أنكِ ستنجحين في ذلك، ولكن إذا لم تنجحي في البداية، فحاولي، وحاولي مرةً أخرى، وإذا لم يكن لديكِ المالُ اللازم، فسأُزوِّدُكِ برأس المال. وأنا أحبُّ أن أُراهِن. وعلى أية حال، مع أطيب تمنياتي بالنجاح.»

«أشكركِ أيَّتها الأميرة. كيف يُمكنني أن أفشل بعد كل ذلك.»

ثم حان وقتُ افتراق الصديقتَين. وكانت العربة تنتظر لاصطحاب الآنسة باكستر إلى المحطة، فودَّعت الفتاة مُضيفتَها وهي تشعر بأنها تصرَّفَت بأسلوب يفتقر إلى الوفاء تجاه شخصٍ أهدى إليها صداقتَه. وبداخل حقيبة يدِها كانت دعوةُ الحفل، وكذلك رسالةُ قَبول الحضور التي كتبتها باسم الأميرة، والتي أرسلتها عبر البريد بعد ذلك في ميران. ثم وصلَت في الموعد المُحدَّد إلى لندن، وذهبت لمقابلة رئيس تحرير «دايلي بيجل».

قال رئيس التحرير: «حسنًا يا آنسة باكستر، لقد نجحتِ على نحوٍ فائق للعادة في حلِّ لُغز الماس، وأنا أُهنئُكِ. أعتقد أن رسالتي قد وصلتْ إليكِ؛ فهل لديكِ أي أفكار لحل المشكلة التي تُواجهنا الآن؟ هل يمكنكِ أن تُحضِّري لنا تقريرًا كاملًا عن حفل دوقة تشيزيلهورست، مكتوبًا بأسلوب مُقنع للغاية بحيث يعرف جميع الضيوف الذين سيقرَءونه أن الكاتِب قد حضرها بالفعل؟»

«إنها مسألةُ مالٍ في المقام الأول يا سيد هاردويك.»

«وهكذا هي معظم الأمور. حسنًا، نحن على استعداد لإنفاق المال في سبيل الحصول على ما نريده بالضبط.»

«كم بالتحديد؟»

«كل ما يلزم.»

«جوابٌ غامض. حدِّدْ مبلغًا بعينه.»

«خمسمائة جنيه، سبعمائة، ألف إذا لزم الأمر.»

«لن تُكلفك ألفًا، وقد تصل إلى أكثر من خمسمائة. ضع الألف في رصيدي، وسأُعيد ما يتبقَّى. يجب أن أذهب على الفور إلى باريس وأُنفذ خُططي من تلك المدينة.»

«إذن فقد فكَّرتِ في مُخطط. ما هو؟»

«لم أُفكر في ذلك فحسب، ولكن أجريتُ معظم الترتيبات بالفعل. لا أستطيع قول المزيد عنها. عليك فقط أن تثق بي تمامًا.»

«هناك مبلغ كبير من المال على المَحكِّ يا آنسة باكستر، وسُمعتنا كصحيفةٍ أيضًا. أعتقد أنني يجب أن أعرف ما تعتزمين القيام به.»

«بكلِّ تأكيد. أنا أعتزم أن أحصل على وصفٍ دقيق للحفل، كتبَهُ شخصٌ حضره بالفعل.»

أصدر رئيس التحرير عبارةَ تعجُّب مُقحَمة، دائمًا ما يستخدمها بدلًا من الضحك، وقال:

«بعبارةٍ أخرى، أنتِ لا تُريدين تدخُّلًا ولا نصيحة!»

«بالضبط يا سيد هاردويك. أنت تعلم بخبرتك أن كثرة الحديث عن مشروعٍ سرِّي لم يكتمل بعد، تُفسد الأمور.»

نقر رئيس التحرير بأصابعه على المنضدة لبِضع لحظاتٍ وهو يُفكر.

«حسنًا، إذن، سيتمُّ الأمر كما طلبتِ. كنتُ سأكون سعيدًا جدًّا لتقاسُم مسئولية الفشل معكِ؛ ولكن إذا كنتِ تُفضلين تحمُّلَ المخاطرة كاملةً بنفسك، فلا يُوجَد ما يُمكن قوله. سيُودَع مبلغ الألف جنيه في رصيدكِ دفعةً واحدة. ماذا بعد؟»

«في ليلة الحفل، أودُّ أن يُوجَد هنا في مقرِّ الصحيفة ثلاثة أو أربعة أشخاصٍ ممَّن يُجيدون الكتابة بطريقة الاختزال. لا أعرفُ كم بالتحديد سيستلزم الأمر؛ أنت تفهم ذلك أكثر منِّي، لكنني أعتزم إملاء التقرير بأسرعِ ما يُمكنني التحدُّث به حتى نُنجزه، ولا أرغبُ في أن يُوقِفني أو يُقاطعني أحد، لذلك أريد أفضلَ مَن يُجيدون الكتابة بالاختزال لديك؛ عليهم أن يتناوَبوا فترات الراحة بينهم كما لو كانوا يكتبون خطابًا برلمانيًّا طويلًا. ومن الأفضل أن يكون الرجال مُستعدِّين عند منتصف الليل، وسأعود إلى هنا في أقرب وقتٍ ممكن بعد ذلك. وإذا كنتَ سوف تتفضَّل بمراجعةِ ما كتبوا؛ فسوف أُلقي نظرةً على البروفات عندما أنتهي من الإملاء، قبل تسليم التقرير إلى مرحلة التجميع في المطبعة.»

«إذن أنتِ تأمُلين في حضور الحفل بنفسكِ.»

«ربما.»

«لقد عُدتِ لتوِّكِ من تايرول، وأخشى أنكِ لا تُقدِّرين الصعوبات التي تعترض طريقكِ. إنَّ هذا ليس حدثًا مُجتمعيًّا عاديًّا، وإذا كنتِ تعتقدين أن مبلغًا من المال حتى لو كان ألف جنيه سيسمح بدخول ضيفٍ غير مدعوٍّ، فستجدين نفسَكِ مُخطئة تمامًا.»

«لقد فهمتُ هذا من رسالتك.»

مرة أخرى حلَّت عبارة التعجُّب المقحمة محلَّ الضحك، وقال رئيس التحرير:

«أنتِ متفائلة جدًّا يا آنسة باكستر. أتمنَّى لو أن لديَّ نفس ثقتك؛ ومع ذلك، سوف نأمُل في الأفضل، وإذا لم نتمكن من تحقيق النجاح، فسوف نسعى على الأقل لكي نكون جديرين به.»

ذهبَت جيني إلى باريس، وفي حوزتها ألف جنيه تحت تصرُّفها، وحجزَت جَناحًا في أكثر الفنادق أرستقراطية، ووظَّفَت لديها خادمة، وشرَعَت في صُنع فستانٍ يُناسب الحفل؛ والذي سيُصبح قمةً في الجمال. ولحُسن الحظ، كانت تعرف بالضبط جهات صناعة الثياب في باريس، وقد حرَص صناع الثياب الذين أعطتهم أوامرها على إرضائها تمامًا عندما علموا أنها لن تعترض على مسألة التكلفة. ومن باريس، أرسلت برقيةً باسم الأميرة فون شتاينهايمر إلى فندق كلاريدج لتخصيص جناح لها في ليلة الحفل، وطلبت توفير العربة المناسبة التي سوف تُقِلُّها إلى ذلك الحفل ومنه.

وعند وصولها إلى فندق كلاريدج، كانت تُدرك جيدًا أن الخطر الأول الذي يُحدق بها هو أن يرغب شخص يعرف الأميرة فون شتاينهايمر في مُقابلتها؛ ولكنها أعلنت أنها لن تستطيع رؤية أي زائرٍ تحت أي ظرفٍ من الظروف؛ لأنها مُرهقة جراء الرحلة، ومن ثمَّ تفادت فشل الخطة في مهدِها. وفي الواقع لم يكن من المُرجَّح أن تكون الأميرة فون شتاينهايمر معروفةً بصفة شخصية للكثيرين ممَّن سيحضرون الحفل؛ حيث أوضحت الأميرة لجيني أنها لا تعرف أحدًا في لندن؛ وهو ما اعتبرته سببًا رئيسيًّا لرفض الدعوة. وأنها دُعِيَت فقط بسبب الوضع الاجتماعي للأمير في فيينا، وحتى مُضيفتها دوقة تشيزيلهورست لم تُقابلها من قبل قطُّ. وبأسلوبٍ تفنيدي، جلسَت تُقارن فُرَص النجاح بفُرَص الفشل، وغالبًا ما كان يبدو أن حدوث كارثة هو أمر حتمي؛ إذ كانت تعرف أنها غيرُ خبيرةٍ بعادات المجتمع الراقي وحفلاته الراقية، ومع ذلك لم يتسلَّل إليها الخوف من كون كل الاحتمالات تُشير إلى فشلها، وقررت المراهنة بمسيرتها المهنية، مُعتمِدةً على حظِّها هذه الليلة.

الفصل الثامن

جيني تختلط بعِلْية القوم

يُقال إنَّ المرأة التي تهتمُّ بارتداء الثياب الفخمة تتفوَّق على كل المصاعب وتجتاز كلَّ الاختبارات. وكان هذا هو الحال مع جيني عندما غادرت عربتَها، وسارت على طول البساط المُمتدِّ عبر الرصيف تحت مِظلَّة، ودخلت القاعة الكبرى لمنزل دوق تشيزيلهورست، وهو أحد القصور الضخمة في غرب لندن. وهي لم تشهد أو حتى تتخيَّل شيئًا مُتألقًا مثل المشهد الذي شدَّ انتباهها عندما وجدت نفسها على وشك صعود الدَّرَج الواسع الذي وقفتِ المُضيفة عند قمَّته تستقبل ضيوفها الوجهاء. ورغم حضور جيني في وقتٍ مبكر، بدا أن الدَّرَج والقاعات التي يُؤدِّي إليها مُكتظَّة حقًّا. وقد وقف الخدم، وهم يرتدون زيًّا رائعًا قرمزيَّ اللون، على جانبَي كل درجةٍ من درجات الدرَج، كما أضْفَت الأزياء المتنوعة فخامةً وروعة على المظهر العام للحفل، فهي تتنوَّع بين الملابس الشرقية المُبهرة للأمراء الهنود والملوك الشرقيين، إلى الملابس الأكثر رصانة، التي مع ذلك نادرًا ما تكون أقلَّ ثراءً من أعضاء السلك الدبلوماسي، ووزراء الإمبراطورية، والضباط البحريين والعسكريين. وبدَت السيدات مثل الزهور المدارية في هذه الحديقة الغنية بالألوان؛ حيث يتنقَّلن ذَهابًا وإيابًا برشاقةٍ ورقة، يبتسِمنَ هنا ويهمِسْنَ هناك، ومع ذلك، وعلى الرغم من توتُّرها، فإن نظرةً سريعة مُختلسة لما حولها أقنعت جيني بأنها ربما كانت أكثرَهنَّ أناقة، مما هدَّأ من توترها إلى حدٍّ ما. بدا لها الجوُّ العام بأكمله غيرَ حقيقي، ومضت إلى الأمام كما لو كانت في حلم. ثم سمعتْ صوتًا يُناديها: «أيَّتها الأميرة فون شتاينهايمر.» ووجدَت صعوبةً في البداية في إدراك أنها هي المقصودة بالنداء، وأنَّ هذا اللقَب هو لقبُها في هذه اللحظة. وفي اللحظة التالية كانت يدُها في يدِ دوقة تشيزيلهورست، التي قالت لجيني إنها لفتةٌ كريمة منها أن تقطع كلَّ هذه المسافة وتُشرِّفها بحضور الحفل. فقدَّمت الفتاة ردًّا من

نوعٍ ما، لكنها وجدَت نفسها عاجزة عن تذكُّره بعد ذلك، ولكن التوافُد السريع لجموع الضيوف الآخرين جعلها تأمُل أنها حتى إذا كانت قد استخدمت أيَّ عبارةٍ غير لائقة، فإما أنها لم تُسمَع أو نُسِيَت في ظلِّ وتيرة الأحداث المُتسارعة. ثم أفسحت الطريق ووقفت ضمن الكوكبة المُتألقة في أعلى الدَّرج، مُمتنةً أنَّ هذا الاختبار الأول قد مرَّ بسلام. ومن ثَمَّ حصل قلبُها السريعُ الخفقان على فرصةٍ الآن للحدِّ من خفقانه، وبمجرد أنْ أدركَتْ أنَّ أحدًا لم يلحَظها تقريبًا، بدأت تستعيد هدوءَها الطبيعي، فتذكرت سبب وجودها هنا، وقد مكَّنتها عيناها الفَطِنة من أن تطبع في ذاكرتها القوية كلَّ التفاصيل المختلفة للمشهد غير المعتاد، الذي ترك بحداثةِ العهد به وعدَم أُلفتِه انطباعًا قويًّا في ذهن الفتاة. وابتعدت عن المجموعة، عازمةً على التجوُّل في القاعات العديدة التي فُتِحت لهذه المناسبة، وهكذا يُمكنها — بطريقةٍ أو أخرى — أن تحصل على مُبتغاها. وبعد وقتٍ قصير، تبدَّدت كلُّ مخاوفها من اكتشاف خدعتها، وبدأت تشعُر بارتياحٍ بالِغ بينما تتجوَّل في الصالونات الفخمة المزدحمة، حتى إنها توقَّفت للاستمتاع بالموسيقى التي تعزفها فرقة عسكرية، مَخفيَّة جزئيًّا خلف أوراق الشجر، وهم يعزفون ببراعةٍ تحت قيادة أشهر مايسترو آنذاك. وقد طمأنَها أن احتمال مُقابلة أي شخصٍ يعرف الأميرة هنا باتَ بعيدًا، وسرعان ما بدأت تشعر بالبهجة وسط مظاهر الترَف المتنوِّعة لهذا الحفل الرائع. كما لاحظَت أن كلَّ شخصٍ هنا لديه اهتمام بشخصٍ آخر، وهو ما جعلها تشعر بالارتياح الشديد، حيث وجدت نفسها متروكةً بمفردها تمامًا، مع التأكُّد بقدْرٍ معقول من أنها ستظل هكذا حتى لحظةِ التحدي الأخير عند المُغادرة؛ وهي تجربة لا مفرَّ من خَوضها، لكنها تجنَّبَت التفكير في الأمر بحزم، فهي واثقة من حظها الجيد الذي لم يتخلَّ عنها حتى الآن.

كانت جيني شاردة تُفكر في حظها الجيد؛ عندما انتبهت فجأة على صوتٍ يُخاطبها.

«آه، أيَّتها الأميرة، لقد كنتُ أبحث عنكِ في كل مكان، وقد لمحتكِ بين الحين والآخر وسط الزحام، لكني لم أستطع اللَّحاق بكِ، مثلما، للأسف الشديد، كان قدَري في مناسبةٍ أكثرَ وقارًا من هذه. هل لي أن أُبهج نفسي بالاعتقاد بأنكِ تذكُرينني أيضًا؟»

لم تتعرَّف عليه عيناها الواسعتان المُرتعبتان اللَّتان التفتت بهما إلى صاحب الصوت؛ حيث رأت شابًّا ينحني ليُقبل يدَها الرقيقة التي لا تُقاوَم. وهو ذو وجهٍ يدل بجلاءٍ على أنه رجل إنجليزي، وشعره قصير كستنائي اللون، وبينما كان رأسه يرتفع حتى يُجاوز رأسها، لم يسَع الفتاةَ، التي كانت مرعوبةً للغاية، إلا أن تُعجَب بشاربه الأشقر الكاسح

الذي يحجب تحته ابتسامةً نصف حزينة ونصف مرحة، والتي أضاءت وجهه الوسيم. وكان يرتدي وشاحًا على صدره وثيابًا مَلكية، بدَت أنيقةً على هيئته وبِنيته القوية.

واستمرَّ في مُحادثتها قائلًا: «إنني أشعر بخيبة أملٍ لكونكِ قد نسيتِني بالفعل أيَّتها الأميرة، وهكذا يتلاشى وهمٌ عزيز آخَر عندي.»

أخفَت مِروحةٌ يدِها الجزءَ السفلي من وجهها، ونظرت إليه من فوق مروحتها نصف الدائرية الناعمة.

ومع بريق لهوٍ دفين في عينَيها، قالت في خفوت: «عليك ألا تثِق في الأميرات.»

ضحك الشاب وهو يقول: «في الواقع، لو أنني خدمتُ بلدي بإخلاصٍ كما كنتُ مُخلصًا في تذكُّري لكِ أيَّتها الأميرة، لأصبحتُ سفيرًا منذ فترة طويلة، ومُغطًّى بالأوسمة. هل نسيتِ إذن كلَّ ذكريات ذلك الشتاء في واشنطن قبل خمس سنوات؟ تلك البهجة العارمة التي انتهت بانتقالكِ بعيدًا للعيش في بلدٍ أجنبي؟ إن ذلك الشتاء الحافل بالأحداث لا يُفارق ذاكرتي وكأنه إعصار غربي هادر. هل عليَّ حقًّا أن أُعيد تقديم نفسي إليكِ على أنني دونال ستيرلنج؟»

سألته جيني: «هل أنت اللورد دونال ستيرلنج؟» وتذكرَت بصعوبةٍ أنها قد سمِعت هذا الاسم فيما له صلةٌ بأمرٍ دبلوماسي، وتأكَّد تخمينُها أنه كان في هذه الخدمة من خلال ملاحظته السابقة حول كونه سفيرًا.

«نعم أنا اللورد دونال، إذا كنتِ ستُصرِّين بقسوة على مُناداتي بذلك؛ لكن هذا لا يُمكن أن يَسلبني ما يُواسيني، وهو أنكِ ذات مرةٍ في المشتل الزجاجي للبيت الأبيض، وأمام الرئيس، تنازلتِ وناديتِني باسم دون.»

«لا يُمكنك أن تتوقَّع أن يتذكَّر المرءُ ما حدث في واشنطن قبل خمس سنوات. أنت تعلم أن إدارة الحُكم نفسَها تتغير كل أربع سنوات، ونادرًا ما تبقى الذكريات عالقةً بالذهن إلى هذا الحد.»

«كنتُ آمُل أن يكون إعجابي الصريح قد تركَ ذكرياتٍ ربما تدوم لفترةٍ أطولَ من فترة الإدارة؛ ذلك لأن النسيان لم يكن بهذه السهولة بالنسبة لي.»

«هل أنت متأكد من ذلك يا لورد دونال؟» سألته الفتاة بخُبث، وهي تطوي مروحتها لتكشف له لأول مرةٍ عن وجهها بالكامل.

بدا الشابُّ مُرتبكًا للحظة، لكنها واصلَت ولم تمنحه سوى القليل من الوقت للتفكير. «هل أخذتك واجباتُك الدبلوماسية بعيدًا عن واشنطن؟»

«نعم، إلى الطرَف الآخر من الأرض. أنا الآن في سانت بطرسبرج، وآمُل بشدة أن أعمل في فيينا أيَّتها الأميرة. وقد تصادف وجودي في لندن هذا الأسبوع، وسمعتُ أنكِ ستحضرين هذا الحفل، ففعلتُ المُستحيل للحصول على دعوة.»

فقالت: «والتي ما كدتَ تحصل عليها حتى وجدت نفسك مَنسيًّا. يا له من عالمٍ أجوف بلا معنًى، أليس كذلك؟»

فأجابها: «للأسف، نعم. إن رجلًا في مثل مهنتي يرى قدرًا كبيرًا من الجانب البغيض للحياة، وأنا مُتيقن تمامًا أن ثقتي المتناقصة في صدق البشر سوف تتبدَّد مع قرار رؤسائي بإرسالي إلى إسطنبول. ولكن اسمحي لي أن أجد لكِ مقعدًا بعيدًا عن هذا الزحام حيث يُمكننا التحدُّث عن الماضي.»

«أنا لا أهتمُّ كثيرًا بالماضي مثلما أهتمُّ بالحاضر. دعنا ندخل إلى الشرفة، حيث ستُوضح لي أسماء هؤلاء المشاهير. أفترضُ أنك تعرفهم جميعًا، بينما أنا غريبة تمامًا عن مجتمع لندن.»

صاحَ الشاب بحماس: «هذه فكرة رائعة. نعم، أعتقد أنني أعرف معظم الناس هنا، على الأقل اسمًا. آه، ها قد أتى الجمع الملَكي؛ سنتمكَّن من مشاهدتهم عن قُرب.»

عزفَت الفرقة النشيد الوطني، وحصل اللورد دونال على كرسِيَّين وضعهما عند حافَة الشرفة، وأخفاهما جيدًا عن الجمع المارِّ بوضعهما خلف بعض النباتات المدارية.

صاحت جيني وقد تخلَّت تمامًا عن وقار الأميرة: «أوه، هذا أمر مبهج، لقد أخبرتَني عن سبب مجيئك إلى الحفل، فهل تعلم لماذا أتيتُ أنا هنا؟»

أجاب الشاب بجُرأة: «من أجل فرصة مُستحيلة للقائي؛ أنا الذي تظاهرتِ بأنكِ قد نسيتِه.»

ضحكت جيني قائلة: «بالطبع، ولكن بخلاف ذلك، جئتُ لرؤية الأزياء. كما تعلم، يُقال إننا نحن النساء يُقلد بعضنا أزياء بعض. وبعيدًا عن العالم، في تايرول، لديَّ فرصة ضئيلة لمطالعة الجديد في عالم الأزياء والموضة، ولذا قبلتُ دعوة الدوقة.»

«هل معكِ دعوة الدوقة؟»

«نعم، سأُدوِّن بعض الملاحظات على ظهرها. هل تريد أن تراها؟» سلمَته الدعوة ثم أراحت ظهرها للخلف على كرسيِّها، وهي ترمقه عن كَثب. وازدادت أمارات الحيرة على وجهه عندما نظر إلى الدعوة، ورأى أنها بالضبط كما زعمَت، فأعاد الدعوة إليها قائلًا:

«إذن أنتِ هنا لتُشاهدي الأزياء. إنه موضوعٌ لا أعرف عنه إلا القليل. ولكن، وَفْق ما أرى، يجب أن أقول إن الأميرة فون شتاينهايمر هي أكثرُ النساء أناقةً في هذا الحفل. ولا

جديدَ يمكن أن يُضيفه أيٌّ من الحضور هنا. وإذا كان بوسعي أن أتطرَّق إلى موضوع شخصي للغاية، فإن فستانكِ هو ما يمكن أن نُسميه إبداعًا، أليس كذلك أيَّتها الأميرة؟»

قالت الفتاة وهي تنظر إلى ثوبها ثم تنظر إليه بفرح يرقُص في عينَيها: «إنه ليس سيئًا.» كان الرجل الدبلوماسي يستند بكوعه على الدرابزين، ورأسه متكئ على يده، وهو غافل تمامًا عن كل شيء آخر، بينما يُحدق بها باهتمامٍ بالغٍ لدرجة أن وجنتَي الفتاة قد احمرَّتا خجلًا وهي تنظر بعينَيها للأسفل. كان الإعجاب الشديد بمظهرها باديًا في عينَيه. ثم قالت بصوتٍ خافت إلى حدٍّ ما: «ومع ذلك، يتلقَّى المرء العديد من الإطراءات من الآخرين، وإبداع اليوم سوف يصير مجردَ قديم غدًا. والإبداع فيما يخصُّ أزياء المرأة والموضة لا نهاية له. والشعار القديم القائل: «لا تكترث بأمر الغد، حينما تختار ما سترتديه.» ربما كان شعارًا جيدًا في زمن سليمان، ولكنه لا يصلح في زمن فيكتوريا.»

«إنْ كان القول لسليمان، فإنه كان يُزيح العبءَ عن كاهله؛ إذ كانت لديه العديدُ من الزوجات، كما تعلمين.»

«حسنًا، كما كنتُ على وشك أن أقول، يجب أن تُحوِّل انتباهك الآن إلى بقية الضيوف، وتُخبرني مَن هم. لقد اعترفتُ بالفعل بجهلي بهم، وقد وعدتَني بأن تُخبرني بهوياتهم.»

وجَّه الشاب، بتردُّدٍ واضح، تفكيره المُنصبَّ عليها بمفردها إلى بقية الحضور، وأخذ يذكر اسم هذا الشخص وذاك، بينما تُدوِّن جيني الأسماء، بقلم رصاص على بطاقتها، مع ملاحظاتٍ غامضة بطريقة الاختزال، كي تقتصد في الوقت والمساحة، وبعد أن حصلَت أخيرًا على كل المعلومات التي يُمكن أن تكون مرغوبة، أرجعت ظهرَها للخلف على كرسيِّها وهي تُطلق زفرةَ ارتياحٍ ورضًا عن كمِّ المعلومات الهائل الذي جمعته. ومهما كان ما يُمكن أن يحدُث الآن؛ لا يهم، فقد أنجزت مهمتها، ويمكنها أن تُغادر الحفل بهدوء. لقد جمعت تحت يدَيها التفاصيل الكاملة لأهم حدثٍ مجتمعي شهِده الموسم. ومن ثمَّ أغمضت عينَيها للحظةٍ لتتمتَّع بالرضا الذي يبعثه النجاح في النفس، وعندما فتحَتهما مرةً أخرى وجدت اللورد دونال في وضعه القديم، مُستغرقًا في تأمُّل جمالها الفتان.

قالت مع ابتسامةٍ خَجْلى من نظرته التي تفيض بالعاطفة: «أرى أنك مصرٌّ على أن تجعلني لا أجد صعوبة في تذكُّرك في المرة القادمة التي نلتقي فيها.»

أجابها وهو يُعدِّل من جِلسته قليلًا: «كنتُ أفكر فقط أن السنوات الخمس التي تعاملتِ معي خلالها بمنتهى القسوة، لم تترك أثرها عليكِ حتى أنكِ تبدين أصغرَ بخمس سنوات.»

قالت له وهي تضحك: «إنَّ التقدُّم في السن له امتيازاتٌ كثيرة يا لورد دونال، لكن أعتقد أنك لم تحظَ بأيٍّ منها بعد. ولكن لا يبدو من وقفتك ومظهرك مُطلقًا أنك رجل قد بلغ المشيب قبل الأوان، مهما كانت القسوة التي عاملَتْك بها الفتاة التي قابلتَها في واشنطن.»

«آه، أيَّتها الأميرة، من السهل جدًّا عليكِ أن تتعاملي مع الأمور الجدية باستخفاف؛ فلا يهزأ بالنُّدوب إلا مَنْ لم يتجرع ألم الجرح. والزمن، كونه غادرًا قبل كل شيء، غالبًا ما يترك الوجه دون أن يَمسَّه؛ لكنه يترك آثار جراحه ندباتٍ في القلب؛ فالإيذاء غير الظاهر هو الأخطر بالتأكيد.»

«أتصوَّر أنه غير ظاهر للغاية، لدرجة أنه ليس بالعمق الذي تخيَّلتَه أنت.»

«أيَّتها الأميرة، أعترف لكِ أن الجرح في واشنطن ليس شيئًا إذا ما قورن بالجرح الذي تلقيتُه في لندن.»

«نعم؛ لقد أخبرتَني أنك هنا منذ أسبوع.»

«لا علاقة للأسبوع الذي قضيته بهذا. لقد كنت هنا لمدة ليلة؛ لمدة ساعتَين، أو ثلاث؛ لقد فقدتُ الإحساس بالوقت منذ أن التقيتُ بكِ.»

لن يُعرَف أبدًا ما الرد الذي يمكن للفتاة أن تُقدمه على هذا الكلام، الذي ألقاه رجل على مسامعها بكلِّ حماسةٍ وبجدية تامة؛ لأنه في تلك اللحظة قاطع خلوتَهما مرسالٌ يقول:

«سعادة السفير النمساوي يلتمس السماح له بتقديم تحياته إلى الأميرة فون شتاينهايمر.»

لاحظ اللورد دونال ستيرلنج، الذي لم يرفع عينَيه عن وجه رفيقته، شحوبًا سريعًا ينتشر فيه. فانحنى إلى الأمام وهمسَ قائلًا:

«أنا أعرفُ السفير؛ إذا كنتِ لا ترغبين في مقابلته، فسوف أعترضه.»

نهضَت جيني ببطءٍ، ونظرت إلى الشاب بهدوءٍ يُناقض تمامًا التوتر الذي نشب بداخلها، وقالت ببرود:

«لماذا قد لا أرغب في مقابلة سفير البلد الذي أعيش فيه؟»

«لا أعرف أي سببٍ لذلك. بل على العكس تمامًا، فلا بدَّ أنه صديقٌ قديم لكِ؛ حيث كان ضيفَكِ في قلعة شتاينهايمر قبل عام.»

تراجعَ للخلف بعد أن قال هذا، ووجدَت جيني صعوبةً في قمع شهقة الفزع التي تلقَّت بها تعليقه المُزعج، لكنها ثبتَت على موقفها دون أن تجزع. لقد أصبحت وجهًا

لوجهٍ مع الأزمة التي توقعَتْها؛ مجيء شخصٍ يعرف الأميرة. وفي اللحظة التالية، كان الدبلوماسي العجوز ينحني على يدِها الممدودة، التي رفعها الرجل العجوز إلى شفتَيه بطريقةٍ رقيقة وهو يقول:

«يُسعدني أن أحظى بشرف الترحيب بكِ في هذه المدينة القديمة الكئيبة، أيَّتها الأميرة فون شتاينهايمر، التي أنَرتِها بحضوركِ. هل ستمكثين طويلًا في لندن؟»

«فترة الإنارة قصيرة يا صاحب السعادة؛ سأغادر إلى باريس غدًا.»

«هكذا سريعًا؟ دون زيارة السفارة؟ يُزعجني سماع خبر المغادرة السريعة، ومع ذلك، ولمعرفتي بمدى سحر قلعة شتاينهايمر، لا يُمكنني أن أتساءل عن سرِّ رغبتك في العودة سريعًا إلى هناك. أفترض أن الأمير ما زال مُولعًا بالصيد كما كان دائمًا. ويجب أن ألوم سموَّه، في المرة القادمة التي نلتقي فيها، لعدم قدومه معكِ إلى لندن؛ فأنا متأكد من أنكِ كنتِ ستمكثين معنا لفترةٍ أطول.»

قالت جيني مع نظرةٍ ماكرة نحو اللورد دونال، الذي زادت علامات الشكِّ على وجهه مع استمرار هذا الحوار: «إنَّ الأمير زوج مثالي يا صاحب السعادة، وكان في وسعه أن يأتي إلى لندن دون تذمُّر لو أن زوجته كانت أنانيةً بما يكفي لإبعاده عن بلدته الحبيبة ميران.»

قال الكونت العجوز، مع ضحكةٍ مكتومة: «زوجٌ مثالي! قليلون منَّا يتفوَّقون في هذا الصدد؛ ولكن هناك ما يُبرئ ساحتنا، وهو أن قلةً منَّا محظوظة في الزواج مثل الأمير فون شتاينهايمر. على أي حال، لم أكفَّ أبدًا عن الاشتياق إلى تَكرار الزيارة الساحرة التي شَرُفتُ بها إلى منزلكِ الرائع.»

«لو أنَّ سعادتك فقط تعرف كم أنت مُرحَّب بك لدَينا، لَما تأخَّرتَ عن زياتنا لفتراتٍ طويلة.»

«إنه لطفٌ منكِ أيَّتها الأميرة أن تُبهجي قلبَ رجلٍ عجوز بهذه الكلمات اللطيفة. ومن سوء حظنا أنَّ شئون الدولة تُبقينا مشغولين على الدوام، وفي الواقع، يبدو أن العمل الدبلوماسي يزداد صعوبة مع مرور السنين؛ لأنه يتعين علينا أن نتعامل مع عبقرية الشباب الصاعد مثل اللورد دونال ستيرلنج هنا، وهم أكثرُ مِن ندٍّ للجيل القديم الذي يجد أنه من المستحيل تعلُّمُ أساليب جديدة.»

قال اللورد، مُتحدثًا لأول مرة منذ أن بدأ السفير الحوار: «في الواقع يا صاحب السعادة، إنَّ الأمر عكس ذلك تمامًا. فنحن نجلس بتواضُع عند قدمَيك، ونطمح إلى مُحاكاتِك، ولكن دون أمل في إحراز أي تفوق.»

ضحك الرجل العجوز مرةً أخرى، والتفت إلى الفتاة، وبدأ في توديعها قائلًا: «إذن غرفتي السابقة تنتظرني في القلعة؟»

«نعم يا صاحب السعادة، مع إضافة كرسيَّين هزَّازَين بلونٍ أحمر مجلوبَين من أمريكا، حيث ستجد فيها أكثر الأماكن راحةً عندما تأخذ عطلةً من مشاغل الدولة.»

«آه! الكراسي الهزازة! أتذكَّر الآن أنكِ كنتِ تنتظرين وصولها عندما كنتُ أنا هناك. إذن فقد وصلتْ بأمان، كما آمُل. لكنني أعتقد أنكِ طلبتِ عددًا كبيرًا، لتتأكدي من وجود واحدٍ أو اثنين على الأقل يعملان بكفاءة.»

«لا؛ عشرة فقط، وقد وصلت جميعًا دون ضرر.»

غمغم السفير مُنحنيًا مرةً أخرى ليُقبِّل اليد الممدودة إليه: «آه منكم أيُّها الشباب! تفعلون أشياءَ لم نسمع بها من قبل.»

وهكذا انصرفَ الرجل، تاركًا الكثير من المجاملات وراءه. ومن الواضح أنه لم يُساوره أدنى شكٍّ في أنه قد التقى بأي شخصٍ سوى الأميرة الحقيقية؛ فلم يكن بصرُه في أفضل حال، وأيُّ سفير عادةً ما يلتقي بالعديد من النساء الجميلات والمُتميزات.

جلست الفتاة بوقارٍ وهدوء، بينما ارتمى اللورد دونال على كرسيِّه، وبدَت على وجهه الصريح الصادق أماراتُ الحيرة التامة. وأخذت جيني تُحرِّك مروحتها الورقية ببطء؛ لأنها شعرت بارتفاع قليل في درجة حرارتها على أثر هذا الموقف الصعب، ولم يقُل أيٌّ منهما شيئًا لبضع لحظات. ثم كان الشاب هو أول مَن كسر حاجز الصمت.

«هل لي أن أتصوَّر أن يُحالفني الحظ كي أحظى بدعوةٍ لزيارة قلعة شتاينهايمر، هل لي أن آمُل في تخصيص كرسيٍّ هزاز أحمر لي؟ لم أجلس على مثله منذ أن كنتُ في الولايات المتحدة.»

قالت جيني وهي تضحك: «نعم، واحد من أجلك؛ واثنان من أجل السفير.»

«أودُّ كذلك أن أُمنِّي نفسي بأن كرَمكِ تجاه السفير الذي يفوقني بمقدار الضِّعف إنَّما ينبع فقط من مهابة منصبه، وليس لشخصه بأي حالٍ من الأحوال.»

«أنا مغرمة جدًّا بالسفراء؛ إنهم رجال مُهذبون، ويبدو أن الشك لديهم أقلُّ مما يُظهره البعض من غير المرموقين.»

«الشك! أنتِ بالتأكيد لا تعنين أنني أشكُّ بكِ أيَّتها الأميرة؟»

أجابت جيني بلا مُبالاة: «أوه، كنتُ أتحدث بصفةٍ عامة، يبدو أنك تُريد تطبيق ما أقوله على شخصك.»

«أعترف أيَّتها أميرة أنني قد راودَتْني حالةٌ من الحيرة والارتباك عدة مرات هذا المساء.»

«والأسوأ من ذلك يا لورد دونال أنك لم تستطع إخفاءها، وهو الخطأ الوحيد الذي لا يُغتفَر في مجال العمل الدبلوماسي.»

«أنتِ مُحقَّة تمامًا. لو كنتِ أنتِ من علمتِني العمل الدبلوماسي، لأصبحتُ سفيرًا خلال السنوات الخمس المقبلة، أو على الأقل وزيرًا.»

نظرت إليه الفتاة من فوق مروحتها، وفي عينيها مرحٌ خفي.

«عندما تزور قلعة شتاينهايمر، يمكنك أن تسأل الأمير عما إذا كان يُمانع أن أُعطيك دروسًا.»

وهنا حدثت مقاطعة أخرى، حيث جاء مَن يُخبرها بأن سفير الولايات المتحدة يرغب في رؤية الأميرة فون شتاينهايمر وتجديد أواصر الصِّلة بها. أبدى اللورد دونال احتجاجًا مُتسرعًا على نحوٍ حازم أكثرَ مما كان ينوي أن ينطق به، ولكن عندما نظر إلى رفيقته بقلق، رأى في نظرتها لمحةً سريعة من الامتنان الواضح كما لو كانت قد تحدَّثت وشكَّرته. وكان واضحًا تمامًا أن الفتاة لا ترغب في مقابلة معاليه، وهو أمرٌ غير مُستغرَب، حيث سبق أن قابلَته ثلاث مراتٍ بصفتها صحفية. فهو لم يكن يعرف الأميرة فون شتاينهايمر فحسب، بل يعرف جيني باكستر أيضًا.

فأرجعت ظهرها إلى الخلف وقالت بضجر:

«يبدو أن لديَّ عددًا كبيرًا من ضيوف المجتمع الدبلوماسي هذا المساء. هل تعرف السفير الأمريكي أيضًا يا لورد دونال؟»

صاحَ الشابُّ وهو يقف على قدَمَيه بحماس: «نعم؛ لقد كان سياسيًّا بارزًا في واشنطن عندما كنتُ هناك. إنه رجل ممتاز، ولن أجد صعوبةً في تقديم الاعتذار له إذا كنتِ لا ترغبين في مقابلته.»

«شكرًا جزيلًا. لديكَ الآن فرصة لاستعادة سُمعتك الدبلوماسية، إذا كنتَ تستطيع تأجيل المقابلة دون أن يشعر بإهانة.»

تركها اللورد دونال بهِمَّة، وفي اللحظة التي ابتعد فيها اختفت علامات التراخي عن ملامح الآنسة جيني باكستر.

وهمست في نفسها: «حانت فرصتي الآن، يجب أن أكون في عربتي قبل أن يعود.»

ورغم حرصها على المغادرة، علِمَت أنها ينبغي أن تتحرك بتروٍّ. وقد توقَّعت أن تجد دَرجًا في الطرف الآخر من الشرفة، فبحثت عنه، لكن لم يكن هناك شيء. ولِخشيتها من احتمال أنها قد تجد اللورد دونال قادمًا، واجهت صعوبةً في ضبط خطواتها بما يتناسب مع السير بتروٍّ الذي كان أمرًا لا بدَّ منه. ووصلت إلى أسفل الدَّرج بأمانٍ ودون أن يعترضها أحد، ولكن بمجرد وصولها إلى الطابق الرئيسي ظهرت مشكلة جديدة؛ فلا شيء يجذب الانتباه أكثر من سيدة شابة وجميلة تمشي بمُفردها تمامًا ودون مُرافق لمسافةٍ طويلة بين نهاية الشرفة والدَّرج المؤدي إلى المدخل. وقد وقفت هناك مُترددة ومتسائلة عما إذا كان بإمكانها المغامرةُ بالبحث عن مخرجٍ جانبي هادئ، وهو ما كانت على يقينٍ من ضرورة وجوده في هذا المنزل الكبير، وعندئذٍ وجدت اللورد دونال بجانبها مرةً أخرى، ممَّا أثار فزَعَها، وبدا لاهثًا كما لو كان يعدو وهو يبحث عنها. كما قطَّب حاجبَيه مع تعبير ينمُّ عن القلق قد ارتسم على وجهه.

وهمسَ قائلًا: «يجب أن أتحدَّث إليكِ على انفراد، اسمحي لي أن أصحبكِ إلى هذا المُختلَى المظلَّل الموجود أسفل الشرفة.»

«لا؛ أنا مُتعبة، وسأغادر إلى المنزل.»

«أنا أتفهَّم ذلك تمامًا، لكن يجب أن تأتي معي للحظة.»

قالت بنبرة تحدٍّ: «يجب؟»

أجاب بجدية: «نعم، أتمنَّى أن أكون عونًا لكِ. أعتقد أنكِ ستحتاجين ذلك.»

واجهت نظرته الصارمة بثباتٍ للحظة، ثم استسلمت، وقالت بصوتٍ مُنخفض: «حسنًا.»

عندما وصلا إلى المُختَلى المُظلَّل، استفسرت وهي ترتجف إلى حدٍّ ما — لأنها استنتجت أن شيئًا ما قد حدث وحسَم كلَّ شكوك الشاب — «هل هو السفير الأمريكي؟»

«لا؛ لقد تفهَّم الأمر. وهو ينتظر أن يُقابلكِ في وقتٍ لاحق من المساء. لكن هناك برقية جاءت من ميران تحمل توقيع الأميرة فون شتاينهايمر، تُعرِب فيها عن أملها في نجاح الحفل، وتُكرِّر أسفَ سموِّها لعدم تمكُّنها من الحضور. ولحسن الحظ، لم تصل إلى يد الدوقة. وقد أخبرتُ الدوق، الذي قرأها عليَّ لكونه يعلم أنني كنتُ معكِ طوال المساء، أنها على الأرجح مزحة ساذجة من جانب الأمير؛ لكن الدوق، الذي هو شخص جادٌّ إلى حدٍّ ما، لم يتقبل هذه النظرية بكياسة، ولو كان يعرف الأمير لرفضها على أنها غير معقولة، وهي كذلك بالفعل. لقد طلبتُ منه عدم إظهار البرقية لأي شخص، ومن ثمَّ لدينا القليل من الوقت للتفكير في أفضلِ ما يمكن فعله.»

قالت الفتاة مع ضحكة عصبية صغيرة تقترب من الهستيرية: «ليس أمامي سوى أن أنصرف بأسرعِ ما يمكن وبهدوءٍ قدْر الإمكان. لقد كنتُ على وشك الخروج عبر أي مخرج خاص إذا كنتُ تمكنتُ من العثور على مخرج بالفعل.»

«سيكون ذلك مُستحيلًا، وقد تؤدي المحاولة إلى تعقيداتٍ غير مُتوقَّعة. أقترحُ أن تستندي على ذراعي، وأن تُبلغي الدوقة برغبتكِ في الانصراف، مُتذرِّعة بالإرهاق كسببٍ لرحيلكِ المبكر. ثم تنتظريني في عربتكِ، وعندما أعود سأسعى للحصول من الدوق على تلك البرقية التي جعلَت الحظ يُعاندكِ، بإخباره أنني أودُّ معرفة ما إذا كان في الأمر خدعةٌ أم لا. وأظنُّ أنه على الأرجح سيكون قد نَسِي كل شيءٍ في الصباح. ومن ثمَّ، كل ما عليكِ فِعله هو استجماع شجاعتكِ لبضع لحظاتٍ أطول حتى تصلي إلى عربتكِ بأمان.»

تمتمت بنظرةٍ حزينة: «أنت طيب القلب للغاية.»

«وأنتِ ماهرة للغاية يا أميرتي، لكن المصاعب في مواجهتكِ كانت هائلة. يجب أن تُخبريني في وقتٍ ما لماذا خُضتِ غمار هذه المخاطرة.»

لم تَرُد، لكنها استندَت على ذراعه، وتجوَّلا معًا في القاعات حتى عثرا على الدوقة، فأبلغَت جيني مُضيفتها برغبتها في المغادرة بوقارٍ ورزانة حتى لا تُثير الشكوك. وسارت الأمور على ما يُرام حتى وصلا إلى أعلى الدَّرَج، عندما سارع الدوق، وقد انعقد على جبينه عبوسٌ يُنذِر بالسوء، وراءهما وقال:

«أيُّها اللورد، اسمح لي.»

استدار اللورد دونال بتعبيرٍ ينمُّ عن نفاد الصبر، لكنه كان مُجبرًا، لأنه خشي أن مضيفه قد يفتقر إلى حُسن التصرُّف الذي يجعله يتفادى حدوث فضيحةٍ حتى في قاعة قصره؛ إذ لو كانت الدوقة، لكان كل شيء على ما يُرام؛ فهي سيدة على قدرٍ كبير من الكياسة، أما الدوق — كما سبق أن قال — فإنه رجلٌ غبي، يحتاج إلى متابعة زوجته المستمرة له لمنعه من التخبُّط. فهمسَ الشاب: «استمرِّي في السير حتى تَصِلي إلى عربتكِ. سأطلبُ من مساعدي هنا أن يستدعيها من أجلكِ، لكن من فضلكِ لا تُغادري حتى آتي إليكِ.»

ثم استدعى مساعده على الفور.

وقال: «استدعِ عربة الأميرة فون شتاينهايمر.» وعندما نزلت السيدة على الدَّرج، استدار اللورد دونال، وهو غير راغبٍ حقًّا في سماع ما سيقوله مُضيفه.

«لورد دونال، إنَّ السفير الأمريكي قد أكَّد لي أن هذه المرأة ليست الأميرة فون شتاينهايمر، لكنها امرأةٌ من العامة وقد التقى بها عدة مراتٍ في لندن. ولا يستطيع تذكُّر اسمها. الآن، أريد أن أعرف مَن هي، وكيف قابلتَها؟»

«سيدي الدوق، لم يخطر ببالي أبدًا أن أُشكك في هوية الضيوف الذين قابلتُهم تحت سقفك المضياف. لقد عرفتُ الأميرة قبل خمس سنوات في واشنطن، قبل أن تتزوَّج، ولم أرها منذ ذلك الحين، ولكن إلى أنْ أريتَني البرقية، لم يكن هناك أي شكٍّ في ذهني بخصوصها.»

«لكن السفير الأمريكي أكَّد لي الأمر.»

«إذن يبدو أنه واثقٌ في بصرِه أكثرَ مني. إذا كانت تلك المسألة، شأنها شأن الصعوبات الدولية، يجِب تسويتها عبر السفارات، فلنُحِلْها إلى السفير النمساوي، الذي أجرى محادثة طويلةً مع السيدة في حضوري.» وتابع مُوجِّهًا حديثه إلى السفير النمساوي، الذي كان يقف على مقربةٍ منهما في انتظار التحدُّث إلى مضيفه: «يا صاحب السعادة، إن دوق تشيزيلهورست يشكُّ في أن السيدة التي غادرت للتوِّ ليست الأميرة فون شتاينهايمر. ولقد تحدثتَ أنت إليها، وبالتالي يُمكنك أن تُقرِّر بثقة؛ لأن سموه يبدو غير راغب في قَبول شهادتي.»

«ليست الأميرة؟ إنه كلام غير معقول. فأنا أعرفها جيدًا في الواقع، وهي سيدة جذَّابة للغاية. أتمنى أن أكون ضيفَها مرةً أخرى عمَّا قريب.»

«وهكذا يا سيدي الدوق، يُمكنك أن ترى أن كلَّ شيءٍ كما ينبغي أن يكون. وإذا أعطيتَني تلك البرقية السخيفة، فسأُجري بعض الاستعلامات الهادئة عنها. وفي غضون ذلك، كلما تكتَّمنا الأمر كان أفضل. وسوف أُقابل السفير الأمريكي وأُقنعه بخطئه. والآن لا بدَّ لي من تقديم الأعذار إلى الأميرة لتأخُّري عليها.»

ثم وضع البرقية في جيبه، وهُرِع إلى أسفل الدَّرج وخرج إلى الشارع. حيث كان مساعده قد تأخَّر بعض الشيء في إحضار العربة، ورأى السيدة التي ينشدها، تستقلها في تلك اللحظة.

وسمعها تقول للسائق: «إلى المنزل بأقصى سرعة.» من الواضح أنها لم تكن تنوي انتظار اللورد كما طلب منها، فقفز إلى الأمام، ودفع ذراعَه عبر نافذة العربة، وأمسك بيدها.

وصاح قائلًا: «أيَّتها الأميرة، لن تتركيني هكذا. يجب أن أراكِ غدًا.»

ففزعت وهي تنكمِش في زاوية العربة: «لا، لا.»

«لا تكوني بهذه القسوة. أخبريني على الأقل بعنوانكِ كي أراسلكِ. لن أترك يدكِ حتى تعِديني.»

وبحركة سريعة، خلعت الفتاة قفازها الطويل؛ وفي اللحظة التالية انطلقتِ العربة مُسرعة عبر الشارع، بينما وقف الشاب حزينًا بمُفرده على الرصيف مُمسكًا بقفازٍ طويل أبيض في يده.

وقال بعد فترة صمت، وهو يطوي القفاز بعناية ويضعه في جيب معطفه: «حسنًا يا سندريلا! إنَّه القفاز هذه المرة، بدلًا من الحذاء!»

الفصل التاسع

جيني تُدرك أنَّ الأحداث الكبرى التي مرَّت بها سوف تكون لها تَبعاتها في المستقبل

وصلت جيني باكستر إلى فندقها بأسرعِ ما يُمكن أن يأخذها زوجٌ من الخيول المُسرِعة. لقد نجحت في مهمتها؛ ومع ذلك، انحدرت دمعاتٌ متمرِّدة قليلة من خيبة الأمل على خدَّيها الآن بينما هي وحيدة في العربة شبه المظلمة. وفكرت في الشاب المُتلهِّف الذي تركته واقفًا كَسِيرَ القلب على الرصيف، وقفازها يتدلَّى من يده، وملأتها الحسرة لأن الحظ السيئ جعلها لا تُقابله إلا وهي تنتحِل صفة شخصية زائفة. وكان عزاؤها الوحيد هو أنه لم يكن لديه أيُّ دليلٍ يقوده إلى هُويتها، وعقدت العزم على أنها لن تراه مرةً أخرى أبدًا؛ ومع ذلك، فهذا هو التناقض في الطبيعة البشرية، فما أن انتشَت بعزمها هذا حتى انهمرت دموعُها بغزارة أكثرَ من أي وقتٍ مضى.

كانت تعلم أنَّ لديها ما يُؤهلها للاستمتاع بمشاهد مثل ذلك الحفل الذي غادرته للتوِّ مثل أي شخصٍ كان هناك؛ فلديها ما يُؤهلها من حيث التعليم، أو المظهر الشخصي، أو العقل الراجح، مثل ضيوف الدوقة الجديرين بكل تَرْحاب؛ ومع ذلك فقد حُرِمت من حقها في الدخول مثلهم مثل بيري اليائسة التي تقِف عند باب جنة عدْن المُوصَدِ في وجهها. لماذا اختار القدر المُتقلِّب فتاتَين ربما تكون لهما نفس الجدارة، وجعل إحداهما أميرة، بينما توجَّب على الأخرى أن تعمل بكدٍّ ليلَ نهار لمجرد أن تحصل على حقها في العيش؟ ولا شيء عديم الجدوى مثل كلمة «لماذا»؛ فهي تستهلُّ السؤال، لكنها أبدًا لا تُقدِّم جوابًا شافيًا.

جفَّفت جيني دموعها بتنهيدةٍ عميقة عندما توقَّفت العربة أمام بوابة الفندق. وصرفت التنهيدةُ كل الأفكار الطائشة عن ذهنها، وكذلك كل التساؤلات العقيمة التي تبحث فيها عن أسبابٍ وتبريراتٍ بلا جدوى. وأصبحَت الفتاة الآن في مواجهةٍ مباشرة مع حقائق الحياة، وستتماهى الأحداث التي لعبت فيها دورًا مؤخَّرًا في صورة حلم.

وبعد انصراف العربة، سارت بنشاطٍ عبر الردهة، وقالت لحارس البوابة الليلي:

«أحضِر لي عربةً أخرى عند الباب خلال خمس عشرة دقيقة.»

قال الرجل في دهشة: «أتريدين عربةً أخرى يا سيدتي؟»

«نعم.» ووضعت جنيهًا ذهبيًّا في يده، ثم ركضت بخِفَّة صاعدةً الدَّرج. كان حارس البوابة معتادًا على مزاج السيدات الثريات المُتقلب، ولو أنَّ طلب استدعاء عربة في منتصف الليل هو أمرٌ لم يُطلَب منه من قبل. ولكن إذا كانت كل النساء يمنحنَ مثل هذا البقشيش السخي، فلهن الحق في طلب عربة إذا أردن، وطلبُهنَّ على الرَّحب والسعة؛ لذلك استدعى العربة عند الباب على وجه السرعة.

أيقظت جيني الخادمة التي غلبها النوم بينما كانت تجلس في انتظارها.

وقالت: «هيا، يجب أن تحزمي كلَّ شيء في الحقائب على الفور. وأحضري لي ثوبي العادي، وساعديني في خلع هذا.»

قالت الخادمة، وهي تُساعدها في خلع فستانها: «أين قفاز يدكِ الأخرى يا سيدتي؟»

«ضاعَ. لا تَشغلي نفسكِ بذلك. بعد أن تحزمي كل الحقائب، احصلي على قسطٍ من النوم، وأعلميهم في الاستقبال كي يوقظوكِ مبكرًا لتلحقي بقطار الثامنة صباحًا المُتجه إلى باريس. وهذه نقود لتُسددي فاتورة الفندق والباقي هو أجركِ. وربما ألحقُ بكِ في المحطة. ولكن إذا لم أفعل، فعليكِ التوجُّهُ إلى الفندق الذي ننزل به في باريس، وانتظريني هناك. لا تُخبري أحدًا عن وِجهتنا، ولا تُجيبي عن أي أسئلةٍ ذات صلة بي، إن سألكِ أحد. هل تَعين جيدًا ما أقول؟»

«نعم سيدتي.» وبعد لحظاتٍ معدودة، استقلَّت جيني العربة، وطلبت من السائق أن يسلك الشوارع شبه المهجورة. ثم صرفت العربة في تشارينج كروس، وسارت في شارع ستراند حتى استقلت عربةً أخرى، وتوجَّهَت مباشرة إلى مكتب «دايلي بيجل»، الذي شكَّلت نوافذُه العلوية صفًّا من الأضواء، وكلها تزداد سطوعًا بسبب الظلام الدامس بالأسفل.

وهناك وجدت الأشخاص الذين يكتبون بطريقة الاختزال في انتظارها. وقابلها رئيس التحرير عند باب الغرفة المُخصَّصة لها، وقال بقلقٍ واضح على وجهه: «حسنًا، هل نجحتِ في مهمتكِ؟»

أجابت باقتضاب: «نجاح تام.»

فردَّ بحزمٍ: «حسنًا! أقترحُ الآن قراءة الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة فور خروجها من الآلة، وتصحيحها من أي أخطاءٍ كتابية واضحة، وإرسالها على الفور إلى عُمَّال التجميع. وربما يُمكنكِ إلقاء نظرةٍ على البروفات النهائية، التي ستكون جاهزةً بمجرد أن تُنهي عملية الإملاء تقريبًا.»

«ممتاز. راجِع أنت تهجئة أسماء الأعلام وتحقَّق من الألقاب. فلن يكون لديَّ مُتسَعٌ من الوقت لمراجعة البروفات الأخيرة بعناية.»

«حسنًا. زوِّدينا أنتِ بالمادة الصحفية، وسأعمل أنا على توظيفها والاستفادة منها على النحو الأمثل.»

دخلَت جيني الغرفة، حيث ينتظرها كاتب الاختزال على المكتب؛ وهو جالسٌ تحت مصباح كهربائي مُعلق فوق رأسه، بينما تُلقي كُمَّةُ المصباح الدائرية الخضراء بالأشعة البيضاء مباشرةً على دفتر ملاحظاته المفتوح. واندمجت الفتاة مرةً أخرى في أجواء العمل، وكان هواؤها المُنعِش بمثابة مُنشِّط لأعصابها المُرهَقة. ونحَّت كل مشاعر الشوق والندم جانبًا مع الفستان الباريسي الذي خلعته وكانت الخادمة تحزمه بعناية في تلك اللحظة. وبدَت نواميس الطبيعة معكوسة؛ إذ تخلَّت الفراشة عن جناحَيها الرقيقَين الرائعين، وتحوَّلت إلى يرقةٍ وهي ترتدي زيَّ العمل الكئيب. وبينما هي عاقدةٌ يدَيها خلف ظهرها، أخذت تجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا، وتُمْلي الكلمات على مسامع الكاتب؛ مائتي كلمة في الدقيقة، وأحيانًا أكثر. وفي صمتٍ، دخل كاتب اختزال آخر إلى الغرفة، وهو يمشي على أطراف أصابعه، ليحلَّ محل الكاتب الحالي، الذي غادر في صمتٍ أيضًا. ومن الغرفة المجاورة، تناهَت إلى وعيها النقراتُ الخفيضة، والمُتململة، والسريعة للآلة الكاتبة، دون أن يُسبِّب لها ذلك إزعاجًا. وفي تمام الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا، أصبح الأزيز المُنخفض الصادر من دوَّارات ماكينات الطباعة في القبو محسوسًا أكثرَ منه مسموعًا؛ حيث تُطبَع الطبعة الأولى للبلاد. كان الوقت يطير، حيث يرقص بأقدامٍ رشيقة في ويست إند، وتَحيك هيئتَه بدأبٍ أصابعُ رشيقة في شارع فليت (شارع مشهور). اللهو والعمل، والعمل واللهو، كلٌّ منهما يُكمِل الآخر؛ فتصرُّفاتُ العابِثين يُسجِّلها الكادحون.

وبعد مرور أكثر من ثلاث ساعاتٍ من الإملاء، توقفَ صوتُ الفتاة، الذي أصبح الآن أجشَّ بعدما كان موسيقيًّا؛ فجلسَتْ على كرسيٍّ وأراحت رأسها المُتعَب على المكتب الخالي، وأغمضت عينَيها المُجهَدتَين. كانت تعلم أنها قد تحدَّثت ما بين ١٥ و٢٠ ألف كلمة، وهو رقم يكاد يتساوى في مقداره مع ما قد يحويه كتاب صنع شهرةَ مؤلفٍ وثروته. وهذا كلُّه من أجل خبرٍ زائل يُطالعه القراء ليومٍ واحد، أو لصدْر النهار، أو من الأرجح أن يطويَه النسيان عند صدور الصحف المسائية!

وبعد فترةٍ وجيزة من آخر نقرة على الآلة الكاتبة، جاء رئيس التحرير.

وقال لها: «لم أرغب في إزعاجكِ أثناء مباشرة عملكِ، ولذا ظللتُ في مهمَّتي الخاصة، التي لم تكن خفيفة بالمرة، ومن ثمَّ فإنني أُقدِّر الضغط الهائل الذي وُضِع على كاهلكِ. إنَّ مقالكِ رائع يا آنسة باكستر؛ فهذا بالضبط ما أردتُه، ولم أكن آمُل أبدًا في الحصول عليه.»

قالت الفتاة وهي تضحك ضحكةً باهتة بسبب صوتها الذي أصبح أجش: «أنا سعيدة لأن المقال قد أعجبك.»

«لا داعي أن أسألكِ عما إذا كنتِ هناك بالفعل؛ لأن مثل هذا الوصف الواضح لكلِّ التفاصيل ما كان ليُقدِّمه غير شخص حضر الحفل بنفسه ويُجيد الوصف. كيف تمكنتِ من الدخول؟»

تمتمَت جيني وقد غالبها النعاس: «دخول ماذا؟» ووجدَت صعوبة في التركيز فيما يقوله.

«دخول حفل دوقة تشيزيلهورست.»

«أوه، كان الدخول سهلًا؛ لكن المشكلة كانت في الخروج.»

قال رئيس التحرير: «مثل السجن، أليس كذلك؟ والآن، هل تودِّين تناوُل قليل من النبيذ، أو شيء أقوى؟»

«لا، لا. كلُّ ما أحتاجه هو أن أحظى بقسطٍ من الراحة.»

«إذن دعيني أطلبُ لكِ عربة؛ وسأوصلكِ إلى المنزل، إذا سمحتِ لي بذلك.»

«أنا مُتعبة جدًّا لدرجة أنني لا أقوى على العودة إلى المنزل؛ سأبقى هنا حتى الصباح.»

«غير معقول. عليكِ العودة إلى المنزل والنوم لمدة أسبوع إذا أردتِ. استيقظي؛ فأنا أعتقد أنكِ تتحدَّثين في نومكِ الآن.»

«أنا أستوعِب تمامًا ما تقوله وأعي ما أفعله. لديَّ عمل يجب أن أُتِمَّه في الثامنة. من فضلك، اترك أوامرَ بأن يُوقِظَني أحد السُّعاة في السابعة ويُحضر كوبًا من القهوة مع

البسكويت أو المخبوزات أو أي شيء يمكن تناوُله كإفطار. واترُكني الآن لأنام من فضلك. أنا مُمتنَّة جدًّا لك، لكنني سوف أتمكن من إخبارك بكل ما تريد معرفته على نحوٍ أفضل لاحقًا.»

كان على رئيس التحرير أن يرضى بهذا، وذهب بعد ذلك لينال قسطًا من الراحة التي حصل عليها بجدارة. أما بالنسبة إلى جيني، فقد بدا لها أنه لم تمرَّ غير لحظةٍ على رحيله، حيث وجدت الساعيَ يضع القهوة وبعض المخبوزات على المكتب بجانبها ويقول لها: «إنها السابعة الآن يا آنسة!»

أنعشَت القهوةُ الفتاةَ وجدَّدت نشاطها، وعندما مرَّت على غرف التحرير لاحظتْ مظاهر الإهمال وعدم التنظيم البادية عليها، وهو ما تكون عليه كلُّ الأماكن عند زيارتها في وقتٍ غير معتاد، فقد انقضَت ساعات العمل الدَّءوب وغابَ عنها الصخب. وامتلأت الغرف بالأوراق المُمزقة، والسِّلال التي فاضت بمُخلَّفاتها؛ وبدت هادئةً وغير مرتَّبة وخالية تمامًا في ضوء الصباح الرمادي الذي تسلَّل فيما يبدو مُقتحمًا المكان ذا الإضاءة الصناعية المعتادة، كاشفًا فراغًا كانت تُخفيه. أدركت جيني وجودَ علاقة بين إحساسها، أنها لم تنم طوال الليل، والأجواء المسيطرة على هذه الغرف المهجورة.

وفي محطة القطار وجدت خادمتها تنتظرها مُحاطةً بالأمتعة.

«هل حصلتِ على تذكرتكِ؟»

«أجل يا سيدتي.»

«لقد غيرتُ رأيي، ولن أذهب إلى باريس الآن. اطلبي من الحمَّال أن يضع تلك الحقائب في مكتب حفظ الأمتعة، وأن يُحضِر لي المفاتيح والإيصال.»

وبعد إتمام ذلك وتسوية الأمور المالية بينهما، أعطت جيني للخادمة خمسة جنيهات زيادةً فوق الأجر المُتفَق عليه، وشاهدَتها أثناء دخولها إلى عربة القطار، وهي مسرورة جدًّا بالمكافأة. ثم استقلَّت جيني عربةً تجرُّها الخيول وعادت إلى شقتها، وبذلك أسدلت الستار على مشهد حفل دوقة تشيزيلهورست بكل أحداثه التي استنزفت طاقتها.

لكن مثل أي حدث، يُشبه المرَض، فإنه يُخلِّف وراءه آثارًا وتبعاتٍ كثيرة، لا أحدَ يعلم إلى أي مدًى ستدوم في المستقبل؟ كان أول أعراض هذه التبِعات بضع مراسلات، ولأن لا شيء يبعث على الكدَر والضيق أكثرَ من قراءة سلسلةٍ من الرسائل، فسوف نكتفي بذكر فحواها فقط هنا؛ إذ عندما استعادت جيني صِفتها مرةً أخرى، كتبَت رسالةً طويلة إلى الأميرة فون شتاينهايمر، تُوضح فيها تفاصيل انتحال شخصيتها، وتطلُب منها العفوَ

عما فعلَته، وقد ساقت مُبرِّراتها لفعل ذلك؛ ولكنها لم تأتِ نهائيًّا على ذكر اللورد دونال ستيرلنج، ربما لأنه لم يخطر ببالها. وتلقَّت ردَّيْن على رسالتها: أحدهما رزمة بريدية مُسجَّلة تحتوي على عقد الماس الذي سبق أن قدَّمته لها الأميرة، والآخر رسالة بخطِّ الأميرة نفسِها. وأكَّد بريق الماس المُتألق لجيني أن الأميرة قد صفحت عنها بسرعة، كما أن مضمون الرسالة أكد ذلك. وفي الواقع، لقد عاتبَتْها الأميرة لعدم إفصاحها لها عن السرِّ قبل الآن. وكتبت سموُّها: «إنه لضربٌ من المرَح كنتُ سأستمتع به، ولو أني كنتُ عرَفتُ حينها، لَمَا أرسلتُ تلك البرقية المشئومة. لكنكِ تستحقِّين لأنكِ لم تمنحيني ثقتَك، وأنا سعيدة لأنكِ شعرتِ بالخوف؛ فقد وصلَت برقيتي في تلك اللحظة غير المواتية، تمامًا مثل البرقيَّات في المسرحيات التمثيلية! لكن، هل أنتِ متأكدة يا جيني من أنكِ قد أخبرتِني بكل شيء؟ فقد وصلت رسالة من لندن في اليوم السابق لوصول رسالتكِ، وقد حيَّرتني بشدة في البداية. وهي من دون ستيرلنج، الذي كنتُ أعرفه في واشنطن (كان شابًّا مغرورًا في ذلك الوقت. آمُل أنه قد تحسَّن منذ ذلك الحين)، حيث كتبَ فيها إنه قد التقى بفتاةٍ في حفل دوقة تشيزيلهورست ومعها دعوة الأميرة فون شتاينهايمر إلى الحفل. واعتقد في البداية أنها الأميرة (وهو أمر يحمِل إطراءً لكلٍّ منَّا)، لكنه اكتشف لاحقًا أنها ليست هي. ويريد الآن أن يعرف، وهو يعتقد — على نحوٍ منطقي تمامًا — أنني أعرفُ من كانت تلك الفتاة، ويتوسَّل إليَّ، بصداقتنا القديمة، وإلى آخر ذلك. إنه شاب لطيف، لكنه مغرور بعض الشيء (يعتقد هؤلاء الدبلوماسيون الشبابُ أنهم يُمسكون بزمام الكون في أيديهم)، وأودُّ أن أُسدِيَه معروفًا وأعطيَه معلوماتٍ عنك، لكنَّني رأيتُ أنني يجب أولًا أن أعرف رأيكِ في الأمر. ومن المُفترَض أن أُرسل إليه على عنوان السفارة في مدينة سانت بطرسبرج؛ حيث أعتقد أنه موجود هناك حاليًّا. وبالمناسبة، كيف حصل على قفازك، أم أن هذا مجرد تفاخُر من جانبه؟ يقول إن هذا هو الدليل الوحيد الذي لديه، وسوف يقتفي أثرَكِ من خلاله، على ما يبدو، إذا لم أُخبره مَن أنتِ وأُرسِل إليه عنوانَكِ. والآن، ماذا يتوجَّب عليَّ أن أقول عندما أُرسِل إليه في سانت بطرسبرج؟»

وردًّا على ذلك، أرسلَت جيني خطابًا غير مُترابط إلى حدٍّ ما، على النقيض تمامًا من أسلوبها المعتاد في الكتابة. وقالت إنها لم تذكر الشابَّ في رسالتها السابقة، لأنها كانت تُحاول نسيان هذا الحدَث العارض الذي كان هو الشخصيةَ المحورية فيه. ولا يُمكنها بأي حالٍ مُقابلتُه مرة أخرى، ومن ثمَّ ناشدَتِ الأميرة ألا تكشف عن هُويتها له حتى ولو تلميحًا، كما شرحت لها كيف حصل على القفَّاز تمامًا مثلما حدَث الأمر، وأنها اضطُرَّت

إلى التضحية بالقفاز لتحرير يدِها من قبضته. لقد أبدى الرجل قدرًا كبيرًا من السماحة واللُّطف في مساعدتها على الخلاص من وضعٍ غير سليم، لكن سيكون من المُخجِل جدًّا أن تراه أو تتحدَّث معه مُجددًا.

عندما وصلتْ هذه الرسالة إلى القصر في ميران، أرسلت الأميرة برقيةً إلى لندن تقول فيها: «أرسلي إليَّ قفاز اليدِ الأخرى.» فأرسلَته جيني إلى الأميرة. وبعد أيامٍ قليلة جاءت رسالة أخرى من الأميرة.

«لقد حيَّرتُ الشاب للغاية، على ما أعتقد، وبنفس القدْر من الدهاء الذي يُخيَّل إليه أنه يتحلَّى به. حيث كتبتُ له رسالةً شِبه غاضبة وأرسلتُها إلى سانت بطرسبرج، وقلتُ إنني اعتقدت طوال الوقت أنه حقًّا لم يستطع التعرُّف عليَّ في الحفل، على الرغم من تصريحاته القوية في البداية. ومن ثمَّ، رأيتُ كيف أنه انخدع بسهولةٍ حين اعتقدَ أنني امرأة أخرى، ومن هنا استحوذ عليَّ إغراء لا يُقاوَم للتمادي في خداعه. وسألتُه: ألستُ مُمثلةً جيدة؟ وتابعتُ القول، مع مسحةٍ من الغضب، إنَّ المغازلة الهادئة في الشرفة كانت جيدة جدًّا في طريقتها، ولكن عندما يصل الأمر بشابٍّ إلى أن يندفع في جنون وذهنٍ غائبٍ إلى الشارع خلف امرأة مُتزوِّجة مُحترمة والتي كانت قد ركبت للتوِّ في عربتها وعلى وشك الانصراف، فإنَّ هذا أمر قد تجاوز كلَّ الحدود، وهكذا أصبح القفاز في حوزته؛ ونظرًا لأنَّ قفاز اليد الأخرى غيرُ ذي قيمة لي، فقد كان من دواعي سروري أن أُرسله إليه، لكنني حذَّرتُه من أنه إذا تناهت قصة القفازات إلى سَمْع زوجي، فسأُنكر أنها لي أو أنني قد ارتديتُها من الأساس. كم أودُّ أن أرى نظرة الاندهاش على وجه دون عندما يسقط القفاز الآخر من رسالتي، حيث أرسلتُه في طردٍ كبير أُجرة بريده باهظة. أعتقدُ أن فكرة إرسال القفاز إليه هي إلهامٌ خالص من جانبي. أتخيَّل أن سيادته مخدوع تمامًا الآن، ولن تُساوركِ أيُّ مخاوفَ بعد الآن من أن يعثُر عليكِ.»

قرأَت جيني هذه الرسالة مرةً أو مرتين، وعلى الرغم من شعورها الودود تجاه الأميرة، كان هناك شيء في الرسالة يُزعِجها. ومع ذلك، فقد بعثت برسالةٍ إلى الأميرة تشكرها فيها على ما فعلتْه، ثم حاولت أن تنسى كلَّ ما له صِلة بالحفل. لكنها لم يُسمَح لها أن تمحوَ من ذهنها التفكيرَ في اللورد دونال، حتى لو كان في مقدورها إنجازُ هذه المهمة دون عوائق. وبعد ذلك بفترةٍ قصيرة، وصلت رسالة موجزة من الأميرة مُرفقة برسالة كَتَبَها الدبلوماسيُّ الشاب في سانت بطرسبرج.

«الأميرة العزيزة ... (مرت سريعًا على مقدمة الرسالة) مُمتن جدًّا لكِ من أجل قفاز اليد الأخرى، إذ يُمكنني الاحتفاظ بواحدٍ واستخدام الآخر كدليل. أرى أنكِ لا تعرفين الشابة الغامضة حقَّ المعرفة فحسب، ولكنكِ قد تقابلتِ معها بعد الحفل، أو على الأقل تراسلتِ معها عبر البريد. إذا لم يدُلَّني القفاز على يد صاحبته، فسوف أزوركِ على أمل أن تُكفِّري عن قسوتكِ الحاليَّة فتُخبريني أين أجدُ صاحبة القفاز واليد.»

أما فيما يخصُّ هذه الرسالة الموجَزة، فقد كتبتِ الأميرة فيها: «إنَّ دون ليس أحمقَ كما كنتُ أظن. يبدو أنه قد تحسَّن خلال السنوات القليلة الماضية. أرجو أن تُخبريني بالضبط ما قاله لكِ خلال ذلك المساء.»

لكنَّ جيني لم تَمتثِل لرغبة الأميرة. وكلُّ ما فعلته أنها حثَّتها مُجدَّدًا على عدم إفشاء السر.

مضَت عدة أيام لم تسمع جيني خلالها المزيدَ من أيٍّ من المُمثلين المشاركين في هذه الكوميديا الصغيرة، وبدأ الأمر يتَّخذ في أفكارها طابعًا من اللاواقعية التي يبدو أن الأحداث البعيدةَ تتجمَّع حولها. ثم مضت في عملها اليومي على نحوٍ يُرضي أصحاب عملها ويَزيد من حسابها المصرفي، وإنْ كانت لم تحدُث أي تَجرِبة في عملها الصحفي جديرة بالتسجيل لعدة أسابيع. لكن الهدوء في مقر أي صحيفة نادرًا ما يدوم طويلًا.

ففي عصر أحد الأيام، أتى السيد هاردويك إلى المكتب الذي كانت جيني تجلس فيه تُباشر عملها، وقال لها:

«لقد جاء كادبوري تايلور هنا بالأمس، وكان حريصًا جدًّا على رؤيتكِ. فهل عاد مرةً أخرى عصر هذا اليوم؟»

«هل تقصد المحقق؟ لا، لم أره منذ ذاك اليوم في قلعة شتاينهايمر. فيمَ كان يُريد مقابلتي؟»

«حسب ما فهمت، هو يُحقق في قضية مهمة جدًّا، نوعٌ من القصص الرومانسية في الأوساط الراقية؛ وأعتقدُ أنه يلتمِس مساعدتك لسَبْر أغوارها؛ يبدو أنها مُحيِّرة له.»

قالت الفتاة وهي تنظُر إلى صاحب عملها مع بريق فرحةٍ في عينَيها: «لا شيءَ يمكن وصفه بأنه صعبٌ لدرجة أن يُحيِّر السيد كادبوري تايلور.»

«حسنًا، يبدو أنه مُشوَّش الذهن الآن، وقد أوضح لي أنه مُعجبٌ جدًّا بالطريقة الماهرة التي حللتِ بها لغز الماس في ميران، ولذا يعتقد أنكِ ربما تكونين مصدرَ عونٍ كبير له في مُعضلته الحاليَّة، وعلى استعداد لكي يدفع لكِ مقابل ذلك نقدًا أو عينًا.»

قالت الفتاة: «أفهم معنى الدفع نقدًا، لكن ماذا يقصد بالدفع عينًا؟»

«أوه، هو يعتقد أن بإمكانكِ كتابةَ مقالٍ رائع عن هذه القضية. فهي، حسب قوله، تخصُّ أشخاصًا في الطبقة الراقية — أشخاصًا يحملون ألقابًا — وبالتالي قد تحصلين للصحيفة على عمودٍ مُثير للاهتمام أو عمودَين.»

قالت الفتاة باستخفاف: «فهمت، وهذا — بالطبع — شريطةَ أن نذكُر أن عبقرية السيد كادبوري تايلور الفائقة هي التي فكَّت خيوط القضية المتشابكة.»

قال رئيس التحرير: «لا أعتقد أنه يُريد ذكر اسمه. في الواقع، لقد قال إنه لن يكون من المفيد الإشارةُ إليه على الإطلاق؛ فلو أن الناسَ اكتشفت أنه نشر أيًّا من القضايا التي عُهِدَ بها إليه، فسيخسر عمله. وهو يعمل على هذه القضية منذ عدة أسابيع، وأعتقد أنه لم يُحرِز إلا تقدُّمًا محدودًا نحو حلِّها. وقد بدأ صبر مُوكله ينفد، ومن ثمَّ جال بخاطر المُحقق أنكِ قد تُوافقين على مساعدته. وقال بقدرٍ كبير من الزهو إنه لم يكن يعرف أنكِ على صِلةٍ بصحيفة بيجل، لكنه استخدم ذكاءه وتوصَّل إلى أنكِ تعملين في هذا المكتب.»

قالت جيني ضاحكة: «يا له من ذكي! أنا متأكدة من أنني لم أُخفِ حقيقة عملي في دايلي بيجل.»

«أعتقد أن السيد تايلور لن يتردَّد في الاتفاق معكِ على أنه ذكي؛ ومع ذلك، قد يكون من المفيد مُقابلتُه ومساعَدتُه إذا استطعتِ؛ لأنه لا شيء يستحوذ على شغَف العامة أكثر من غراميات الطبقة الراقية. هذا هو عُنوان مكتبه. هل تُمانعين في زيارته؟»

أجابته وهي تُدوِّن العنوان في دفتر ملاحظاتها: «لا، على الإطلاق.»

الفصل العاشر

جيني تُساعد في البحث عن نفسها

في اليوم التالي، توجَّهَت جيني باكستر إلى العنوان الذي أعطاها إيَّاه رئيس التحرير، ووجدت السيد كادبوري تايلور هناك، في مكتبٍ فخم إلى حدٍّ ما في الطابق الأول. حيث وجدت على بابه لافتةً نُحاسية مكتوبًا عليها:

كادبوري تايلور
مُحقِّق خاص

ومن الواضح أن المُحقق كان سعيدًا جدًّا برؤيتها.

حيث قال: «لقد كنتُ أنوي الحضور اليوم إلى مكتب صحيفة بيجل عَلِّي أُقابلكِ؛ لكنني سعيدٌ بلقائكِ هنا؛ إذ في وسعنا التحدُّثَ دون خشية المقاطعة. هل أخبركِ رئيس التحرير بأي شيءٍ عن هذه القضية؟»

«قليلًا جدًّا؛ إذ يبدو أنه لا يعرف الكثير عنها.»

«لم يكن من الممكن بالنسبة لي أن أخوض معه في كامل التفاصيل. لكنني فقط أعطيته تلميحًا أو اثنين لكي أُوصِّل إليه فكرةً ما عن الأهمية التي يُمكن أن يُشكِّلها هذا اللغز، عند حلِّه، من المنظور الصحفي. وبالطبع كنتُ أرغب في أن يساعدني أملًا في أنه ربما يُقنعكِ بمساعدتي في هذا الأمر.»

قالت جيني: «يبدو أنه يرغب تمامًا في أن أساعدك قدْر استطاعتي، ولكن يجب أن تُوضح لي كامل التفاصيل قبل أن أَعِدَك؛ إذ إنَّ لدي الكثيرَ من العمل في الصحيفة، وإذا لم تكن هذه القضية مُثيرة للاهتمام من المنظور الصحفي — كما قلتَ — فلا أعتقد أنني يجب أن أكترث بالخوض فيها.»

طمأنها المُحقق بحماس: «أوه، سوف تجدين أنها ذات أهميةٍ كبيرة، إنها تتعلَّق باختفاء امرأةٍ على نحوٍ مفاجئ وغير مُبرَّر حتى الآن. وهذا في حدِّ ذاته أمر مُستغرقٌ للاهتمام، وأؤكد لكِ — من واقع خبرتي الكبيرة — أنه لا شيءَ في هذا العالَم أصعب على أي امرئ، وبالأخص لو كان امرأة، من أن يختفيَ تمامًا ولا يترك أيَّ أثرٍ وراءه.»

قالت جيني: «كنتُ أظنه أمرًا سهلًا للغاية، لا سيَّما في مدينةٍ كبيرة مثل لندن.»

«لقد عبَّرْتِ عن الرأي الدارِج، لكنني أُؤكِّد لكِ أن الاختفاء الناجح تمامًا هو أحد أكثر الأحداث استثناءً التي قلَّما نُواجهها نحن المُحققين في مسار تحقيقنا.»

قالت الفتاة: «أرجوك أخبرني القصة، وبعدها يُمكننا التحدُّث عنها بمزيدٍ من التفاهم.»

تخيَّر المُحقق رزمة أوراق، من بين عدة رزم موضوعة عند طرف مكتبه. وأزاحَ عنها شريطًا من المطاط يجمع الأوراق معًا.

«بدأ أولُ فصلٍ من المسرحية — إذا جاز أن نُسمِّيَها بذلك — في حفل دوقة تشيزيلهورست.»

كرَّرت جيني ما قاله برجفة: «حفل دوقة تشيزيلهورست! يا إلهي!»

نظر إليها المُحقق متسائلًا:

«لماذا تقولين «يا إلهي»؟»

قالت الفتاة بضجر: «لأنني مللتُ من سماع أخبار حفل دوقة تشيزيلهورست؛ يبدو أنه لم يكن هناك شيء بخلاف ذلك تتداوله الصحف خلال الأسابيع الماضية.»

وافقَها المُحقق الرأي قائلًا: «لقد أثارَت الكثير من التعليقات، وبالمناسبة، كان تقرير صحيفة دايلي بيجل حول هذا الحفل هو أحد أفضل التقارير التي نُشِرت عنه في أي صحيفة.»

قالت جيني بلا مبالاة: «لقد سمعتُ بذلك، لكنني في الواقع لم أقرأ هذا المقال في صحيفة بيجل.»

«أنتِ تُدهشينني! أظن أن هذا هو أول جزءٍ من الصحيفة تقرؤه أي سيدة. ومع ذلك، فإن تقرير الحفل ليس له علاقة بالقضية التي نحن بصددها. والآن، هل تتذكَّرين الأميرة فون شتاينهايمر، التي كان من دواعي سروري أن ألتقيَ بكِ في قلعتها لأول مرة؟»

قالت جيني، مُتحدثةً دون التفكير فيما قالت: «لقد حظِيتَ بمقابلتي قبل ذلك.»

صاح المُحقِّق وألقى أوراقه على المنضدة: «حقًّا! وأين كان ذلك؟»

«أوه، حسنًا، كما قلتَ للتو، لا علاقة لذلك بهذه القضية. ربما كنتُ مخطئة عندما قلتُ إنكَ رأيتني؛ إذ كان من الأصح أن أقول إني رأيتُكَ. فلا يغيب عنكَ بالطبع أنك شخصية عامة يا سيد تايلور.»

قال المُحقق بزهو، مُلتفتًا إلى أوراقه: «أها، معكِ حق. والآن، لقد دُعِيَت الأميرة فون شتاينهايمر إلى حفل دوقة تشيزيلهورست، لكنها لم تحضره.»

قالت الفتاة: «هل أنت متأكد من ذلك؟ اعتقدتُ أن اسمها كان ضمن قائمة الحضور.»

«كان في القائمة، وهنا بالضبط يبدأ لُغزنا. لقد حضرَت امرأةٌ أخرى الحفل مُنتحلةً شخصية الأميرة فون شتاينهايمر. وهذه هي المرأة التي أرغبُ في العثور عليها.»

«أها، إذن لقد استعان بكَ دوق تشيزيلهورست لهذا الغرض؟»

«لا، لم يستعِن بي الدوق، فالغريبُ هو أن الدوق يعتقد أن الأميرة هي فعلًا مَنْ حضرت الحفل، لكنَّ رجلًا واحدًا فقط يعرف أن الأميرة لم تكن موجودة، رجل واحد وامرأتان؛ إحداهن هي الأميرة فون شتاينهايمر نفسُها، والأخرى هي السيدة التي انتحلت شخصيتها. أما الرجل فهو اللورد دونال ستيرلنج، من السلك الدبلوماسي، والذي لا شكَّ أن اسمه مألوفٌ لديكِ. لقد شرَّفني اللورد دونال بإسناد القضية إلي.»

سألَته جيني وهي تتحدَّث ببطءٍ وبصعوبة: «لماذا يرغبُ سيادته في العثور على هذه ... هذه ... المرأة المُحتالة؟»

قال المُحقق بنبرة رجل يفهم ما يتحدَّث عنه: «إنه يُحبُّها.»

«ما الذي يجعلك تظن ذلك؟»

«أنا لا أظن ذلك، بل أفقهه. استمعي إلى وصفِهِ لها.»

انتقى المُحقق ورقةً من بين مجموعة مستندات القضية، مطويةً ومميزة بعلامة، وموضوعًا عليها ملصق للرجوع إليها.

«إنَّ الفتاة متوسطة الطول، أو ربما أطول من ذلك قليلًا؛ مُعتدَّة بنفسها على نحوٍ رائع، مثل دوقةٍ حقيقية. عيناها سوداوان عميقتان مخمليَّتان ...»

صاحت الفتاة: «عجبًا! إنه يصفها كما لو كانت قطة!»

قال المُحقق: «انتظري لحظة.»

تابعت جيني بلهفة: «لا أرى ما يدل على الحُب في ذلك.»

كرَّر المحقق: «انتظري لحظة؛ إنهما تلمعان وتتألقان بهجةً، وتذوبان في حنانٍ أخَّاذٍ ورِقَّةٍ فاتنة.»

صاحت جيني وهي تنهض: «يا إلهي! خيالُ الرجل لا حدودَ له. هل يقصد أنه رأى حنانًا في عينَي امرأةٍ التقى بها لمدة ساعة أو ساعتَين؟»

قال المحقق ضاحكًا: «هذا كل ما في الأمر. الرجل غارقٌ في الحُب تمامًا حسبما ترين. من فضلك اجلسي مرةً أخرى يا آنسة باكستر واستمعي. أعلم أن هذا النمط العاطفي من الكتابة لا بدَّ أن يكون مُزعجًا لامرأةٍ عملية مثلكِ، لكن في عملنا لا يُمكننا إهمال شيءٍ على الإطلاق حتى لو أدق التفاصيل. لنرَ، أين توقفْتُ ... «حنان أخَّاذ ورقة فاتنة.» أوه، نعم. «أما شعرها فيُشبه سواد منتصف الليل، ويميل إلى التموُّج، مع القليل من التجعيدات التي تنسدِل على وجنتَيها. وبشرتها نقية مثل الفجر، تتورَّد بين الحين والآخر بحُمرةٍ رقيقة مثل بَتَلَة زهرة».»

صاحت جيني بصبرٍ نافد: «يا له من كلامٍ سخيف! لون بشرة امرأة في حفل! لقد وضَعَت بالطبع مساحيقَ تجميل على بشرتها في مثل هذه المناسبة.»

وافقها المُحقق قائلًا: «بالطبع، لكن هذا يُظهِر لكِ فقط عُمق حبه. اللورد دونال شابٌّ صغير السن. لقد جاء إلى هنا يستشيرني، وبالتأكيد لا يعرف الفرق بين بشرة فتاةٍ فقيرة نشأت في جادة ساري؛ وبشرة فتاة تشتري مساحيق التجميل من شارع نيو بوند.»

ردَّت جيني، دون أن يستهويَها على ما يبدو أنَّ السيد تايلور مُتفقٌ مع النظرية التي كانت هي مَن طرحتها بالأساس، وقالت: «وكأن تورُّد الوجه دليلٌ على أن البشرة كانت نضرة بلا مساحيق تجميل.»

«أوه، لا دراية لي بذلك. أعتقد أن العِلم الحديث قد يُمكِّن المرأة ذات البشرة اللامعة المصقولة من تورُّد وجنتيها كما تشاء؛ لستُ متأكدًا من ذلك؛ لأنه أمرٌ خارج عن مساري في التحقيق، لكنني فهمتُ أن هذا هو الحال.»

وافقتْهُ جيني قائلة: «على الأرجح. وما هذا الشيء الذي تضعه أسفل رزمة الأوراق؟»

قال المحقق وهو يسحب هذا الشيء ويُناوله الفتاة: «هذا هو قفازها.»

التقطت جيني القُفاز — الذي، مع الأسف، اشترته ولم ترتَدِه إلا مرة واحدة فقط — ومرَّرته بين أصابعها. كان عليه ملصق مكتوب عليه: «تصميم: جونت إي سي، شارع هونسمان؛ فقد اشترته من باريس امرأةٌ تدَّعي أنها الأميرة فون شتاينهايمر.»

قالت جيني بعد أن انتهت من قراءة الملصق: «لقد اكتشفتَ كلَّ شيء عن القفاز.»

«نعم، هذا من صميم عملنا؛ لكن القفاز لم يُساعدنا كثيرًا.»

سألت الفتاة ببراءة: «وماذا قال عن كيفية حصوله على القفاز؟ هل أعطته إياه؟»

«لا؛ لقد انتزعه من يدِها بينما كانت في عربتها تهمُّ بمغادرة المكان. بدا لي أنه فعلٌ لا يليق برجلٍ دبلوماسي مثله، ولكن بالطبع ليس من شأني أن أُخبر اللورد دونال بذلك.»

«إذن، لم يكن القفاز مصدرَ عونٍ كبيرٍ لك. أخبِرني، إذن، ماذا فعلت، وربما أكون أكثر قدرةً على تقديم المشورة لك.»

«لقد فعلْنا كلَّ ما أملاه علينا المنطق. حيث تتبَّعنا مسار الأميرة المزعومة من فندق بريستول في بانز إلى كلاريدج في لندن. كما أن إحدى معارفي في باريس، وهي امرأة ذكية جدًّا، قد ساعدتني، وتوصَّلت إلى مكان شراء القفاز ومكان صُنع الفستان. هل قرأتُ لكِ وصفَ اللورد دونال لفستان السيدة؟»

«لا، لا عليكَ؛ استمِر في سرد قصتك.»

«حسنًا، لقد وفَّر لها فندق كلاريدج عربة، مع سائق وحارس، لكي تُقِلَّها إلى الحفل، ثم أعادتها هذه العربة إلى الفندق في منتصف الليل تقريبًا. وهنا، حدث شيء غريب؛ فقد طلبت السيدة من الحارس الليلي لبوابة الفندق استدعاء عربة أجرة، وبعد فترةٍ وجيزة نزلت خادمتُها لتركب العربة.»

كرَّرت جيني: «خادمتها!»

«نعم. لقد نزلت الخادمة بزي الشارع العادي بعد فترةٍ وجيزة، وهي تُخفي وجهها، ثم ركبت العربة وابتعدت، وفي صباح اليوم التالي دفعت السيدةُ فاتورتها واستدعت عربةً مع سائق وحارس، وذهبَت لتستقلَّ قطارَ الثامنة المُتجهَ إلى باريس. لقد استرعى انتباهي بالطبع احتمالُ أن تكون السيدة نفسها هي مَن ركبت عربة الأجرة، لكن بعد التفكير للحظةٍ وجدتُ أنه من غير الوارد أن تُغادر الفندق في عربة أجرة في منتصف الليل، وتسمح لخادمتها أن تستقل العربة الكبيرة الخاصة في صباح اليوم التالي.»

تمتمَت جيني: «هذا لا يبدو منطقيًّا. ولكن ألم تبذل أي محاولة، بعد ذلك، لتقفِّي أثر الخادمة؟»

«أوه نعم، لقد فعلنا. وجدنا سائق عربة الأجرة الذي أخذَها من كلاريدج، وتركها في محطة تشارينج كروس، ولكن هناك تلاشى كلُّ أثرٍ لها. ربما غادرَت في أحد القطارات المتأخرة إلى مكان ما في البلاد؛ إذ لا يُوجد سِوى القليل من القطارات بعد منتصف الليل. أما السيدة فقد اشترت تذكرة درجة أولى إلى باريس، وغادرت بمفردها صباح اليوم التالي عند الساعة الثامنة صباحًا في القطار الأوروبي السريع. لقد استدلَّ عليها مُساعدي والتقط لها صورةً سريعة وهي تسير في الشارع؛ ها هي الصورة.»

ناولَ المُحققُ الآنسة باكستر صورةً فورية لأحد الشوارع الكبيرة التُقِطَت في ضوء الشمس الساطع. ولم تجد جيني صعوبةً في تمييز الشخصية الرئيسية في صدْر الصورة، وهي خادمتُها، مُرتديةً ذلك الفستان الأنيق الذي تهيم به النساء الباريسيات.

قالت جيني: «يبدو أنها تُماثل الوصف.»

أقرَّ المحقق: «ظننتُ ذلك، وأرسلتُ الصورة إلى اللورد دونال. انظري ماذا كتب على ظهر الصورة.»

قلبت جيني الصورة، فوجدتْ عبارةً تصِف محتوى الصورة: «صورة مزعومة للمرأة المفقودة.» ولكن كُتِبَ تحتها بخط غامق: «إنه زعمٌ في غير محله! اقرأ وصفي للفتاة؛ من الواضح أن هذه خادمة لسيدة باريسية.»

سألته جيني: «حسنًا، ماذا فعلتَ عندما استعدتَ هذه الصورة؟»

«تذكَّرتُكِ، وذهبتُ إلى مكتب صحيفة دايلي بيجل، وهذا يقودنا إلى اللحظة الحاليَّة. وهكذا أصبح لديكِ الآن القصة كاملة، ويُسعدني جدًّا الاستماعُ إلى أي اقتراحاتٍ تتكرَّمين بتقديمها.»

جلسَت الفتاة في مكانها لبضع لحظاتٍ وتأمَّلتِ الموقف. بينما وضع المُحقق مرفقه على المنضدة وأسند ذقنه على يده، وأخذ ينظر إليها بترقُّب شديد. وكلما فكرَت جيني في الأمر، اندهشت أكثر من الرجل الجالس أمامها، والذي بدا عاجزًا عن معرفة ناتج جمع اثنين زائد اثنين؛ لقد تحدَّث بالفعل عن التقرير الذي نُشِرَ في دايلي بيجل عن الحفل؛ وعن مدى دقتِه وتميُّزه. وهو يعلم أنها أحد أفراد فريق التحرير في الصحيفة، ومع ذلك لم يخطر بباله أبدًا أن يسأل عمَّن كتب هذا التقرير، كما يعلم أنها كانت ضيفةً في قلعة شتاينهايمر عندما وصلَت دعوة الحفل إلى الأميرة. لقد كانت هذه الحقائق باديةً جدًّا للعيان، حتى إن الفتاة كانت تخشى التحدُّث مخافةَ أن تصدر عنها كلمة عفوية، فتُشكِّل حلقة الوصل بين ذهن المُحقق وهذه الحقائق الواضحة على ما يبدو. وفي النهاية، رفعت عينَيها لتنظُر إليه، بينما تورَّدت وجنتاها، مثلما وصفها اللورد دونال بدقة.

ثم قالت: «لا أعتقد أن بوسعي أن أُفيدك بأي طريقةٍ في هذه القضية يا سيد تايلور. لقد فعلتَ كل ما يمكن أن تُوحي به عبقرية المرء وذكاؤه.»

«نعم، هذا صحيح؛ كل ما يمكن أن توحي به عبقريتي. لكن، أمَا من شيءٍ جال بخاطركِ؟ هل من نظرية تطرحينها؟»

«ما من شيءٍ يمكن أن يكون ذا جدوى فِعلية. هل اللورد دونال متأكد من أنه لم يلتقِ بالأميرة نفسِها؟ هل أنت مقتنع تمامًا أنه كان هناك بالفعل انتحال شخصية؟»

«ماذا تقصدين يا آنسة باكستر؟»

«حسنًا، لقد قابلتَ الأمير فون شتاينهايمر؛ ما رأيك فيه؟»

«إن أردتِ سماع رأيي، فإنه شخصٌ مُتنمِّر مُتعجرف. لا أستطيع أن أتصوَّر ما الذي تراه الفتيات الإنجليزيات أو الأمريكيات في هؤلاء الأجانب ليحمِلهنَّ على الرغبة في الزواج منهم. إنها رغبتهنَّ في الحصول على لقب أميرة، على ما أظن. لقد كان الأمير عنيفًا للغاية، وأصدر إليَّ شبه أمرٍ بالخروج من القلعة، وتحدَّث إلى والد زوجته بطريقة فظَّة لأقصى درجة، وكان من الواضح أن الأميرة مذعورة.»

«توصيفٌ دقيق للغاية لشخصية سموِّه يا سيد تايلور. والآن، بما أن الأميرة امرأة — وفي ريعان شبابها — من دون شكٍّ، فإن هذا من شأنه أن يجعلها توَّاقة جدًّا بطبيعة الحال لحضور حفل دوقة تشيزيلهورست، أليس كذلك؟»

«قد يعتقد المرء ذلك.»

«وكما قلتَ للتو، لديها زوج شرس الطباع، وأكبرُ منها بسنوات، ولا يهتم كثيرًا بحفلاتٍ مثل تلك التي دُعِيَت إليها الأميرة. أليس من الوارد تمامًا أن تكون الأميرة قد حضرَت الحفل فعلًا، ولكن لأسبابٍ خاصة بها، رغبت في التكتُّم على حقيقة وجودها هناك وإبقائها سرًّا؛ ولا بدَّ أن تتذكر أن اللورد دونال ستيرلنج لم يرَ الأميرة منذ خمس سنوات.»

قال المُحقق بجِدَّة: «منذ خمس سنوات؟ كيف علمتِ ذلك يا آنسة باكستر؟»

تمتمت الفتاة باضطراب: «حسنًا، كما تعلم، لقد التقى بها آخِرَ مرة في واشنطن، ولم تذهب الأميرة إلى أمريكا منذ خمس سنوات؛ وهكذا كما ترى …»

«أوه، لم أكن أعلم أنه التقى بها في أمريكا على الإطلاق؛ ففي الواقع، لم يقُل اللورد دونال الكثير عن الأميرة، إذ كان في كل حديثه يُشير إلى هذه السيدة التي انتحلت شخصيتها.»

أسندت جيني ظهرها على كُرسيِّها، وأغمضت عينَيها للحظة، والتقطت أنفاسها بسرعة.

وقالت في النهاية: «أخشى أنني لا أتذكَّر التفاصيل التي قدَّمتها لي بدقةٍ كافية، حتى أتمكن من تقديم المشورة. كلُّ ما يسعني فقط هو استنتاج أن اللورد دونال قد قابل الأميرة ذاتها في حفل دوقة تشيزيلهورست، ومن الطبيعي أن ترغب الأميرة في تضليله بشأن هُويتها؛ وبناءً عليه، إذا لم يكن قد التقى بها منذ وقتٍ طويل — لنَقُل عامَين،

أو ثلاثة أعوام، أو خمسة، أو أيًّا كانت الفترة — فمن الوارد تمامًا أن الأميرة قد تغيَّرت كثيرًا خلال تلك الفترة، وربما لم تكن مُستاءةً من مغازلة الشاب — وكيلك — وتَودُّدِه إليها. وبالطبع، لم تكن لتسمح أن يتعدَّى الأمر نطاق باب قصر دوق تشيزيلهورست؛ فهي امرأة مُتزوجة حسبما تذكر بالتأكيد، وزوجها رجل عنيف، كما قلت، ولا بدَّ أن اللورد دونال قد أثار استياء الأميرة تمامًا بتصرُّفه، الذي وصفتَه أنت بالوقِح، عندما انتزع قفازها. والآن، فلن تعترِف الأميرة أبدًا بأنها كانت في الحفل، ولذا يبدو لي أنك تُضيع وقتك في مطاردة لا طائل منها. كما أنه إذا كانت هناك امرأة مُختفية بالفعل، فلا يجوز أبدًا أن تظن أنكَ لم تستطع — مع كل خبراتك وإمكانياتك — العثور عليها منذ فترةٍ طويلة. لقد قلتَ في مُستهل حديثك إنَّه لا شيءَ أصعب من الاختفاء. حسنًا، لماذا وقعتَ إذن في حيرةٍ من أمرك؟ ببساطةٍ لأن الأميرة ذاتها هي مَن حضرَت الحفل، وما من سيدة مُختفية على الإطلاق.»

ضرب المُحقق بقبضته على المكتب بجِدَّة وصاح:

«يا إلهي! أعتقد أنكِ على حق. لقد كنتُ أعمى تمامًا، لا سيَّما أن مفتاح حل اللغز موجودٌ هنا بالضبط أمام ناظرَي.»

تخبَّط للحظةٍ وأخرج رسالةً من كومة الأوراق التي أمامه.

«هذه رسالةٌ جاءتني من سانت بطرسبرج كتبها اللورد دونال بنفسه، تُفيد بأن الأميرة قد أرسلتْ له قفاز اليد الأخرى الذي تُمسكين به الآن في يدكِ. ويقول إنه متأكد من أن الأميرة تعرِف مَن هي المرأة التي انتحلت شخصيتها، لكنها لن تُخبره بذلك؛ وعلى الرغم من أنني قرأتُ هذه الرسالة، لم يخطر ببالي أن تكون الأميرة نفسها هي تلك المرأة. يا آنسة باكستر، لقد حلَلتِ اللغز!»

ردَّت الفتاة وهي تنهض: «يسرُّني أن ترى ذلك، وأنا سعيدة جدًّا أنْ أقنعتُك بالتخلِّي عن مطاردةٍ غير ذات جدوى.»

أجاب المُحقق: «لقد كان الأمر واضحًا كضوء النهار. كما أن وصف اللورد دونال ينطبق على الأميرة تمامًا، ومع ذلك لم أُفكر أبدًا فيها من قبل.»

غادرَت جيني مكتب المُحقق مُسرعة، وسعيدة لأنها لم تكشف عن هُويتها الحقيقية دون قصدٍ، رغم أنها لم تغضَّ الطرْف عن حقيقة أن خلاصها من هذا المأزق يُعزى بالأساس إلى الحظ المُوفَّق، وليس إلى أي حضورٍ ذهني من جانبها، والذي غاب عنها في نقطةٍ أو نقطتين أثناء الحوار. وعندما رآها السيد هاردويك، سألها عن المساحة التي

ينبغي أن يُخصِّصها في إصدار الغد لموضوع غراميات الطبقة الراقية. لكنها أخبرَتْه أن لا شيءَ في القضية — بقدْر ما يُمكنها أن ترى — من شأنه أن يُثير اهتمام أي قارئٍ عاقل.

وهكذا استقرَّ الأمر لمدة أسبوعين. وبعدها تلقَّت الفتاة رسالةً عاجلة من كادبوري تايلور يطلُب منها الحضور في مكتبه في اليوم التالي مباشرةً في تمام الرابعة. وقال إنَّ الأمر مهم للغاية، وإنه يأمُل ألا تُخيِّب ظنه بأي حال. كان أول ما طرأ على ذهن جيني ألا تذهب، لكنها كانت مُتشوِّقة جدًّا إلى معرفة التقدُّم الذي أحرزه المُحقق في القضية، خشية أن يهتدي إلى الطريق الصحيح، وهو ما جعلها تشعر أنَّ من غير الحكمة المخاطرةَ بعدم مقابلته. وإذا كانت الشكوك قد بدأت تُراوده حقًّا، فقد يُصبح عدمُ حضورها بمثابة تأكيدٍ لها. وفي تمام الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي دخلت مكتبه ووجدته بمفرده، مما بعث الطمأنينة في نفسها. فنهضَ من مكتبه عندما رآها، وقال هامسًا: «أنا سعيد جدًّا لحضوركِ؛ فأنا في حيرة من أمري إلى حدٍّ ما. لقد حضر اللورد دونال ستيرلنج إلى لندن في زيارةٍ سريعة، وجاء هنا بالأمس.»

حاولت الفتاة التقاطَ أنفاسها، لكنها لم تنطق ببِنت شَفة.

«لقد شرحتُ له الأسباب التي تجعلني أعتقد أن المرأة التي التقى بها في حفل دوقة تشيزيلهورست كانت في الواقع هي الأميرة فون شتاينهايمر. فضحك مُستخِفًّا بما أقول؛ إذ لم يكن هناك ما يُقنعه، وقال إنَّ هذه النظرية تفوق في عبثيتها إرسالَ صورة خادمةٍ والزعمَ بأنها هي مَن التقى بها في الحفل. لقد استخدمتُ معه كلَّ الحجج التي ذكَرْتِها أنتِ، لكنه طرحَها جانبًا مُعتبرًا إيَّاها غير ذات أهمية. وبطريقةٍ أو بأخرى لم تبدُ القضية بنفس القدْر من الوضوح الذي بدَت عليه عندما طرحتِ نظريتَك.»

سألته الفتاة: «حسنًا، وماذا بعد؟»

«حسنًا، بعد ذلك طلبتُ منه الحضور إلى هنا في تمام الرابعة وسماعَ ما ستقوله إحدى مُساعِداتِي بشأن القضية.»

صاحت الفتاة في ذعر: «تمام الرابعة! إذن قد يحضُر إلى هنا في أي لحظة.»

«إنه هنا الآن؛ فهو في الغرفة المجاورة. تعالي، وسأُعرِّفكِ به، وبعد ذلك أُريدكِ أن تُخبريه بكل الحيثيات التي دفعتكِ إلى الاعتقاد بأن الأميرة ذاتها هي مَن التقى بها. أنا متأكدٌ أنَّ في مقدوركِ إطلاعَه على كل النقاط بإيجازٍ بليغ بحيث تنجحين في إقناعه برأيكِ. ستُحاولين يا آنسة باكستر، أليس كذلك؟ وسيكون معروفًا كبيرًا جدًّا تُسدينه لي.»

صاحت الفتاة: «أوه، لا، لا، لا! لن أُصارح أحدًا أنني كنتُ أقوم بدور مساعد مُحقق. لم يكن يحقُّ لك إحضاري هنا. يجب أن أنصرف فورًا. لو كنتُ أعرف هذا لما أتيت.»

توسَّل إليها كادبوري تايلور قائلًا: «لن يستغرق الأمر خمس دقائق، إنه في انتظاركِ الآن؛ لقد أخبرتُه أنكِ ستحضرين إلى هنا في الرابعة.»

«لا يُمكنني ذلك؛ لم يكن يحقُّ لكَ تحديدُ موعدٍ لي دون علمي وموافقتي.»

كان تايلور على وشك أن يتحدَّث عندما تحرَّك مقبض باب الغرفة الداخلية.

وقال اللورد دونال بصوتٍ مُنزعج: «أرى أيُّها المُحقق أن عليك أن تستعين بمساعدين أكثر التزامًا بالمواعيد. فأنا رجل مُثقَل بالمهام للغاية، ويجب أن أغادر إلى سانت بطرسبرج الليلة، ولذا لا يُمكنني قضاء كل وقتي في مكتبك، كما تعلم.»

قال المُحقق بخنوع كبير: «أستميحك عذرًا يا سيدي، هذه الفتاة لديها بعضُ الاعتراضات على إبداء آرائها، لكنني متأكد أنك ستتمكَّن من إقناعها ...»

واستدار إليها، لكن المكان إلى جانبه كان شاغرًا، وباب الحجرة مفتوحًا، حيث كانت الفتاة قد لاذت بالفرار عندما رأت مقبض الباب الداخلي يُدار؛ ومن ثمَّ نظر تايلور إلى موكله فاغرًا فاه. فضحك اللورد دونال.

«يبدو أن مساعدتَك قد اختفت تمامًا مثلما اختفت سيدة الحفل. لماذا لا تبعث بمُحقِّقيك لتقفِّي أثرها؟ ربما سيتبيَّن أنها الشخص الذي أبحث عنه.»

تلعثم المُحقق: «أنا آسِف جدًّا يا سيدي.»

«أوه، لا عليك. أنا واثقٌ أنك فعلتَ كل ما يُمكن فعله في ضوء الأدلة غير المُجدية للغاية التي هي كل ما في حوزتنا مع الأسف، لكن يُجانبك الصواب تمامًا في اعتقاد أنَّ الأميرة ذاتها هي التي حضرت الحفل، ولا ألوم مُساعدتك على رفضها دعم قضية مستحيلة. سنعتبر البحث مُنتهيًا. وإذا سمحتَ أحضِر لي كشف أتعابك الليلة في النادي الدبلوماسي قبل السادسة مساءً، وسأُرسل لك شيكًا بالمبلغ. نهارك سعيد يا سيد تايلور.»

الفصل الحادي عشر

جيني تتهرَّب من عرض زواج

بينما كانت جيني تُغادر مكتب السيد كادبوري تايلور مسرعةً، انتابها شيءٌ من القلق حول ما قد يُفكر فيه المُحقق بشأن مُغادرتها المفاجئة. وهي مقتنعة أنه حتى اللحظة التي تركَتْه فيها فجأة، لم يكن لديه أدنى شك في أنَّ هذه، التي كان يتحدث إليها آنذاك، هي نفس المرأة التي جابَ مختلِفَ أنحاء أوروبا بحثًا عنها. وماذا سيظنُّ في شخصٍ اختفى فجأة، وهو يتحدث معه، دون كلمة يستأذن بها في الانصراف، كما لو أن الأرض قد انشقَّت وابتلعَته، وهذا كله لأن مقبض باب الغرفة الداخلية قد تحرَّك؟ وعندئذٍ، لا بدَّ أن العُذر الذي قدَّمَتْه لعدم رغبتها في مقابلة اللورد دونال قد استرعى انتباهه لكونه في غير محله تمامًا. عندما وصلت إلى مكتبها وفكرَت بهدوءٍ أكثرَ في الموقف، لم تجد سببًا لأنْ تلوم نفسها بسبب مغادرتها السريعة؛ ومع أنها قد تصرَّفت باندفاع وبلا روية، رأت أنه لم يكن من شيءٍ آخر لتفعله؛ فما كانت لتمرَّ لحظة أخرى إلا وستلتقي وجهًا لوجهٍ مع اللورد دونال نفسِه.

وفي اليوم التالي وصلتها رسالة من المُحقق طمأنتها للغاية؛ فقد اعتذر عن كونه قد حدَّد لها موعدًا لمقابلة اللورد دون إذنها، وأوضحَ أن وصول اللورد دونال المفاجئ إلى لندن، وتشبُّثَه برأيه في عدم تصديق أن الأميرة نفسها هي مَن التقى بها في الحفل، على ما يبدو لم يترك للمحقق أيَّ بديلٍ سوى استدعاء الشخص الذي اقترح تلك النظرية بمثابرةٍ وإصرار، كي يشرحها أمام مَنْ يَعنيه الأمر في المقام الأول. ولم يخطر بباله وقتَها أن الآنسة باكستر قد تعترض على مقابلة اللورد دونال، الذي لم يكن لديها سابقُ معرفة تمامًا به؛ لكنه أدرك الآن أنه كان مخطئًا، وما إلى ذلك. أقنعَت هذه الرسالة جيني تمامًا بأن المحقق، مع كل ذلك، لم يرَ القرائنَ التي بدَت مكشوفةً بوضوح تامٍّ أمام عينَيه.

ومع ذلك، لم يقُل كادبوري تايلور شيئًا عن انتهاء البحث، وبعد بضعة أيام تلقَّت جيني رسالة مُقلقة من الأميرة فون شتاينهايمر اختلج لها صدرُها.

كتبت سموها: «عزيزتي جيني، أنا متأكدة أن هناك مُحقِّقين يسعون لاقتفاء أثركِ والكشف عن هويتكِ، ولذا رأيتُ أنَّ من الأفضل أن أُرسل إليكِ كي أُحذِّرك. وبالطبع هذا مجرد تخمين من جانبي، ولكن، على مدى عدة أيام، هناك امرأة تحوم حول القلعة، وتُحاول استقصاء معلوماتٍ من الخدم. وقد أتت خادمتي إليَّ مباشرةً وأخبرتني بما تعرفه. لقد تحدثَت إليها المُحققة. وهي مُحققة فضولية، جاءت من باريس، وكانت ترغب تحديدًا في معرفة ما إذا كنتِ قد تواجدتِ في القلعة أم لا؛ خلال الأسبوع الذي أُقيمَ فيه حفل دوقة تشيزيلهورست، وهذا يقودني إلى افتراض أن هناك مَن يسعى وراءكِ. وهو إما اللورد دونال ستيرلنج أو دوق تشيزيلهورست، لكنني أعتقد أنه الأول. لقد كتبتُ خطابًا غاضبًا إلى اللورد دونال، متهمةً إيَّاه بإرسال مُحققين للتقصِّي حول القلعة. ولم أتلقَّ ردًّا بعد، لكن اللورد دونال شخص صادق، وآمُل أن أعرف خلال يومٍ أو يومين ما إذا كانت له يدٌ في هذا الأمر أم لا. وفي هذه الأثناء، عليكِ توخِّي الحذَر يا جيني، وسوف أكتبُ لكِ مرة أخرى بمجرد أن يُصبح لديَّ شيء آخر لأقوله.»

زادت قراءة هذه الرسالة من مخاوف جيني إلى حدٍّ كبير؛ فقد شعرت أنها مقتنعة تمامًا بأنه، على الرغم من غباء هؤلاء الرجال المؤكَّد، فقد أوشَكوا أن يكتشفوا الأمر، وكانوا على يقينٍ تقريبًا من أنهم سيُصادفون الحقيقة عرَضًا إذا استمر التحقيق. فكتبت رسالة على وجه السرعة إلى الأميرة، تُناشدها توخِّي الحذر، وألا تُقدِّم من دون قصدٍ أيَّ دليلٍ من شأنه أن يُؤدي إلى اكتشاف أمرها. ومن الواضح أن رسالتها تزامنَت مع رسالةٍ مُرسَلة من الأميرة نفسِها. وجاء في الرسالة أن اللورد دونال قد أقرَّ بأنه الفاعِل، ووعد بعدَم القيام بذلك مرةً أخرى. وتقول الأميرة في رسالتها: «يقول إنه قد أوقفَ المُحققين قبل تلقِّي رسالتي؛ إذ لم يفعلوا شيئًا ذا قيمة، ويبدو أنهم يُزعجون الأبرياء فقط. ويقول إن البحث قد انتهى، من ناحية المحقق، ولا داعي أن أخشى المزيد من تدخُّلات المُحققين، رجالًا أو نساءً. واعتذر بلباقة، لكنه يقول إنه لم يتخلَّ عن آماله في العثور على السيدة التي اختفت. والآن يا جيني، أنا على ثقةٍ من أنكِ ستعترفين بمهارتي. فمثلما ترَين، لم يتَناهَ إلى سمعي غير كلمة أو كلمتَين من خادمتي كدليل، لكنني كشفتُ المُخطط بأكمله واكتشفتُ على الفور المُحرِّضَ عليه، ولذا أعتقد أنني أنا نفسي ما كنت لأُصبح مُحققة سيئة على الإطلاق. فأنا مهتمة جدًّا بأحداثٍ مثل هذه. أعتقد أنني لو لم أكن أعلم شيئًا

عن انتحال الشخصية، وأُسنِدَت إليَّ القضية، لكنتُ اكتشفتُ أمركِ منذ فترة طويلة. أليس بوسعكِ التفكيرُ في طريقةٍ يمكن من خلالها الاستفادة بموهبتي البحثية المؤكَّدة؟ أنتِ لا تعرفين كم أحسدكِ على عملكِ كصحفية، لديها دائمًا لُغز غامض كي تبحث عن حله. يبدو الأمر كما لو أنكِ مُحرِّرة قسم الأحجيات. أرجو أن تسمحي لي بمساعدتكِ في المرة القادمة التي تُؤدين فيها شيئًا مهمًّا آخر. فهل تعِدينني؟

وعندما تُراسلينني مرةً أخرى، يُرجى إرسال رسالتكِ إلى فيينا؛ لأننا سنُقيم هناك، حيث استُدعِي زوجي فجأةً إلى العاصمة. فهو يشغل منصبًا مهمًّا في الحكومة، ربما تتذكرين ذلك.»

ابتهجَت جيني لمعرفة أن جميع التحقيقات قد توقفت، وكتبت رسالةَ امتنانٍ مطوَّلة إلى الأميرة. واختتمت رسالتها بقولها: «من غير المعقول تمامًا أن تحسدي مَن عليه أن يكدَح مثلي؛ فأنتِ الشخص الذي يستحق أن يُحسَد؛ إذ إن عمل الصحفي ليس سهلًا أو مُسليًا دائمًا كما تعتقدين، وهذا شيءٌ جيد، فأنا لا أحبُّ السهل أو المُسلِّي وأقبل التحديات دائمًا. لكنني أَعِدُكِ بأنه في المرة القادمة التي أُباشر فيها قضية مثيرة للاهتمام، سأُراسلكِ وأعطيكِ كامل التفاصيل، وأنا متأكدة من أننا سنُشكِّل معًا فريقًا لا يُقهَر.»

لكن ما من مشكلةٍ تنتهي في هذه الحياة إلا وتُفسِح مجالًا لمشكلةٍ أخرى. لقد انزعجت جيني عندما لاحظت أن السيد هاردويك يُحاول التقرُّب منها أكثر فأكثر؛ فهو يتحيَّن الفرصة كي يجلس بجوار مكتبها كلما كان هناك عُذر معقول لذلك، ويستشيرها في صغائر الأمور وعليائها. كما حصلت على علاوة على راتبها، وعرَفَت أن ذلك حدث من خلال نفوذه في مجلس الإدارة. وعلى الرغم من أن السيد هاردويك كان صارمًا وحاسمًا في أمور العمل، فقد تبيَّن أنه رجل خجول فيما يتعلق بمشاعره، وكثيرًا ما كان يأتي ويجلس بجوار مكتب الفتاة، ويبدو عليه بوضوحٍ أنه يرغب في قول شيءٍ ما، ولكنه يجد أنه ليس لديه ما يقوله؛ ومن ثمَّ يُصبح الوضع مُحرجًا. أما جيني فهي فتاة عملية ولم تكن ترغب في تعقيد الموقف من خلال السماح لصاحب عملها بالوقوع في حُبها، ومع ذلك كان من المستحيل أن تذهب إليه وتطلب منه أن تقتصر اهتماماته على شئون العمل وحسْب. ولكن هاردويك نفسه هو مَنْ تسبَّب في حدوث الأزمة؛ فذات يوم، عندما كانا على انفرادٍ معًا، قال فجأة:

«ألم يُسفِر التحقيق الذي شاركتِ فيه مع السيد كادبوري تايلور بخصوص غراميات الطبقة الراقية عن أي نتائج؟»

«كلَّا يا سيد هاردويك.»

«إذن ألا تعتقدين أن بإمكاننا أن نُمثِّل غراميات الطبقة الراقية في هذه الغرفة هنا؛ إنها مرتفعة بما يكفي عن الشارع لكي تستحقَّ أن يُطلَق عليها غراميات في الطبقة الراقية.» وابتسم رئيس التحرير ابتسامةً مضطربة، مثل رجلٍ غير مُستعد يأمُل في التخفيف من حِدَّة مأزق ما بمزحةٍ سخيفة.

ومع ذلك، لم تضحك جيني ولم تنظر إليه، لكنها استمرت في كتابة ملاحظاتٍ مختصرة على الورقة أمامها.

وهي تقول مع تنهيدة: «آه يا سيد هاردويك! أرى أنك قد اكتشفت سرِّي، رغم أنني كنتُ أتمنى أن أُخفيه حتى عن عينَيك اليقظة. فأنا، في الواقع، في مثل موقف رالف راكسترو في أوبرا «بينافور» حين قال: «أنا أحب، وأحب، للأسف، مَن يفُوقني في المستوى الاجتماعي.» والآن وقد عرَفت نصف الأمر، ربما يُمكنك أن تعرف الأمر كله. لقد بدأ في حفل دوقة تشيزيلهورست؛ ذلك الحفل الذي أخشى أنَّ ذِكراه ستظل تُطاردني طوال حياتي.» قالت جيني ذلك وهي ما زالت لا تنظر إليه، فلم يرد السيد هاردويك وكتم عواطفه؛ وهو سعيد لأن عينَي الفتاة لم ترَ انفعالاته. ساد الصمت بينهما لبضع لحظات، ثم سلك الطريقَ الذي تُرِك مفتوحًا أمامه، مُعزِّيًا نفسه بأنه بينما عرَف عن غير قصدٍ علاقتها الرومانسية مع شخصٍ آخر، فقد احتفظ بسرِّ حُبه لها في أمان، ولم يَبُح به.

وفي النهاية قال بصعوبة: «أنا ... أنا ليس لي الحقُّ في التطفُّل على أسرارِكِ يا آنسة باكستر، وآمُل أن تعذُريني على ... على ...»

قاطعَتْه الفتاة وهي ترفع نظرها عن أوراقها، لكنها لم تنظُر إليه: «أوه! لقد كنتُ على يقينٍ من أنك تعرف ذلك منذ عدة أيام، فقد أصبحتُ مُقصِّرة في عملي بعض الشيء، مع الأسف، ومن ثمَّ كان لك كل الحق في أن تتكلم.»

«كلَّا، إن عملكِ على ما يُرام؛ لم يكن الأمر كذلك بالضبط. لكن لا عليكِ، لن نتحدث في هذا الأمر بعدَ الآن؛ إذ أرى أنه يُسبِّب لكِ الحرج.»

قالت جيني، وهي تنظر نحوَ أوراقها مرةً أخرى: «شكرًا لك يا سيد هاردويك.»

رأى الرجل وجنتَيها تتورَّدان، وساوره شعور بأن عينَيه لم تقع قطُّ على مَنْ هي في مثل حُسنها. فنهضَ بسرعة، دون أن يُقدِّم مزيدًا من الشرح، وغادر الغرفة. وتساقطت قطرة أو قطرتان من الدموع على الورقة التي كانت الفتاة تَخطُّ عليها؛ فهي لم تكن تُحب أن تتسبَّب في إيلام أي شخص، لكنها لم تستطع تحميل نفسها مسئولية ما حدث.

وعقدت العزم على ترك العمل في صحيفة «دايلي بيجل» والبحثِ عن فرصةٍ في مكانٍ آخر، ولكن في اليوم التالي لم يُظهِر السيد هاردويك أيَّ أثرٍ لخيبة الأمل، وتحدث معها بنفس أسلوبه المُقتَضَب المُتعجرِف كالعهد به دومًا.

وقال: «آنسة باكستر، هل كنتِ تُولِين قراءة الصحف أي درجةٍ من الاهتمام مؤخرًا؟»

«نعم يا سيد هاردويك.»

«هل كنتِ تُراقبين توجُّهات السياسة الخارجية؟»

«هل تُشير إلى خطاب رئيس وزراء النمسا قبل أسبوع أو أسبوعين؟»

«نعم، هذا ما يدور في ذهني. كما تعلمين، فقد كان الأمر بمثابة إعلان حرب ضدَّ إنجلترا — تقريبًا — ولكن ليس بكل معنى الكلمة. لقد كانت حالة من الإفراط الشديد في الكلام أو عدم الإفصاح الكافي، ومع ذلك، لم يصدُر بعدَه أي خطابٍ أو تصريح آخر، والتزم رئيس الوزراء الصمتَ منذ ذلك الحين، كما لو كان صورة جدارية محفورة. إنَّ إنجلترا لديها العديد من الأعداء في أجزاء مختلفة من العالم، لكن يجب أن أُقرَّ بأن خطاب رئيس الوزراء النمساوي هذا كان مفاجأة. يبدو أن هناك أمورًا غيرَ مُعلَنة وغير مرئية من الخارج.؛ فرئيس الوزراء رجلٌ شديد الذكاء وكَيِّس للغاية بحيث يعي بالضبط ما تعنيه كلماته، وهو يُدرك تمامًا الطريقةَ التي ستتعامل بها إنجلترا مع تلك الكلمات. ومِن ثمَّ، فهي حالة من التخبُّط الشديد وعدم الوضوح، كمَنْ أنهى حديثه في عُجالة، وما إن أنهاه حتى بدأ يتساءل عن السبب الذي جعله يُلقي هذا الحديث من الأساس، وهذا ما يُحيِّر أوروبا كلها الآن.»

«أليس من المُفترَض — بصفةٍ عامة يا سيد هاردويك — أن هدفه كان توحيدَ النمسا والمجَر؟ لقد فهمتُ أن السياسة المحلية كانت في مُؤخِّرة اهتمامات خطابه الحماسي.»

«هذا صحيح، لكن إثارة الحماس نحو الحرب في النمسا والمجر هي أمرٌ عديم الجدوى ما لم يُستغَلَّ هذا الحماس على أرض الواقع. إن الأمر يتطلَّب حربًا فعلية، وليس تهديدًا بالحرب، لتوحيد النمسا والمجر. لو كان الخطاب قد أعقبه عملٌ عدائي، أو تصعيدٌ آخر يجعل الحرب حتمية، لَكنتُ فهمته. فنبرة الخطاب تُشير إلى أن رئيس الوزراء كان يعني وقوع الأمر في ذات الوقت الذي أفصح فيه عنه. لكن حدث شيءٌ ما في غضون ذلك غيَّر الموقف، وذلك الشيء هو ما تُحاول كل الصحف في أوروبا اكتشافه. ومنذ ذلك الحين، يُحاول مُمثلنا الدائم في فيينا التوصُّل إلى حقيقة الأمر، وعلى مدار الأسبوعَين الماضيَين، يُساعده واحدٌ من أذكى رجالي أرسلتُه إليه من لندن؛ ولكن حتى الآن، باءت كلُّ مَساعيهما

بالفشل. والآن أقترح أن تذهبي بهدوءٍ إلى فيينا، ولن أُخبر أيًّا من الرجُلَين أنكِ تُحقِّقين في القضية التي عَمِلا على حلِّها دون نجاح يُذكَر؛ فهما رجلان مجتهدان ولا أريد أن أُحبِط أيًّا منهما؛ ولكن، الأهم من ذلك كله، أودُّ أن أعرف حلَّ هذا اللغز. ومن ثمَّ، خطر لي الليلة الماضية أنكِ قد تنجحين فيما فشل الآخرون فيه. فما رأيكِ في ذلك؟»

قالت الآنسة باكستر: «أنا على أتمِّ استعدادٍ للمحاولة.» إذْ طرأَت على ذهنها فكرة أن هذه قضية يُمكن للأميرة فون شتاينهايمر أن تكون مصدرَ عونٍ كبير للغاية فيها.

تابع رئيس التحرير قائلًا: «لقد ساد الاعتقادُ بأن إمبراطور النمسا يُعارض بشدة مواجهة مشاكل مع إنجلترا أو أي دولةٍ أخرى. لكن، لو أن الأمر كذلك، لكان من المفترض إقالة رئيس الوزراء بعد هذا الخطاب المُتجاوِز وتعيين حكومةٍ جديدة؛ لكن هذا الرجل لا يزال يحتفظ بمنصبه، ولم يصدُر أي تفسير أو اعتذار من قصر الحكم أو مجلس الوزراء. وأنا واثقٌ من أن هناك شيئًا ما وراء كل هذا، ثمة مراكز نفوذ مختلفة وأسباب مُتباينة تُؤدي جميعها إلى تعقيد الموقف؛ لأنه في اليوم التالي للخطاب، خرجَت شائعة من فيينا تُفيد بوقوع محاولةٍ لاغتيال الإمبراطور أو رئيس الوزراء، وكانت غامضة للغاية، لكن زُعِمَ أن انفجارًا بالديناميت قد وقع في بلاط الحكم. وسرعان ما نُفِي الخبر على الفور، لكننا نعلم جميعًا ما يمكن أن يُفهَم من النفي الرسمي. هناك مشكلة داخلية من نوعٍ ما في بلاط الحُكم بفيينا، وإذا تمكَّنا من نشر التفاصيل الكاملة، فإنَّ مثل هذا التحقيق سيُروِّج لنا داخل أوروبا. متى ستكونين مُستعدة لبدء رحلتكِ، يا آنسة باكستر؟»

«أنا مستعدة الآن.»

«حسنًا، في قضية كهذه من الأفضل ألا نُضيع أي وقت؛ يمكنكِ الذهاب صباح الغد إذن؟»

«أوه، بالتأكيد، لكن يجب أن أغادر المكتب فورًا، ويجب أن تستعينَ بشخصٍ ما لإنهاء العمل الذي بين يدَي الآن.»

قال رئيس التحرير: «سأهتمُّ بذلك.»

وهكذا شعرَت جيني بالارتياح، ثم ذهبت إلى مكتب تلغراف؛ فهي تعلَم أنها إذا كتبَت رسالة إلى الأميرة، التي تُقيم الآن في فيينا، فمن المُحتمَل أنها ستصل هي نفسها إلى تلك المدينة قبل رسالتها، لذلك أرسلت برقيةً بأنَّ لديها مهمة عمل في فيينا وأنها ستصِل في اليوم التالي على متن قطار أورينت السريع، وألمحت إلى أنها مهمة قد تحتاج فيها إلى مساعدة الأميرة. ثم أسرعت إلى منزلها لتحزم أمتعتها. وفي المساء، وصلتها برقيةُ ردٍّ من

فيينا؛ حيث طلبت منها الأميرة إحضار فستانها الخاص بحضور الحفلات وكل ملابسها الأنيقة. وأضافت السيدة أنها ستنتظرها بنفسها في محطة القطار، وطلبت من جيني أن تُرسِل إليها برقية، في الطريق، بوقت وصولها. كان من الواضح أن سموَّها مُستعدة تمامًا للانخراط في هذه المهمة أيًّا كان المخطط الموضوع لها، وقد شجَّعَت هذه الحقيقة جيني على الأمل في أن النجاح ربما ينتظرها.

الفصل الثاني عشر

جيني على وشك اكتشاف سِرٍّ حكومي

وفاءً بوعدها؛ انتظرت الأميرة فون شتاينهايمر في محطة القطار الضخمة بفيينا، واستقبلَت صديقتها بمشاعرَ فيَّاضة. وقد غادرت جيني القطار أنيقةً كما كانت عندما دخلت إليه؛ إذ إن العديد من النساء لديهن القدرة على القيام برحلاتٍ طويلة دون أن يبدوَ عليهن التأثيرُ الأشعث غير المُرتَّب الذي يبدو أن السفر لمسافاتٍ طويلة عبر السكك الحديدية يتركه على الرجال، بوصفهم النصف الأكثر إهمالًا على الأرجح من المجتمع البشري.

صاحت الأميرة: «أوه، أيَّتها الفتاة العزيزة! لا يُمكنكِ أن تتصوَّري مدى سعادتي برؤيتكِ. فأنا أتوق إلى شخصٍ أتحدَّث معه الإنجليزية. لقد سئمتُ من الفرنسية والألمانية، على الرغم من أنهم يقولون لي على سبيل الإطراء إنني أتحدث هاتَين اللغتَين بطلاقة؛ ومع ذلك، فإن الإنجليزية هي لغتي الأم، ومن المُمتع جدًّا أن يتحدَّث المرء مع شخصٍ يمكنه فهمُ كل كلمة مباركة يقولها، على عكس أولئك الذين يتظاهرون بالتحدُّث باللغة الإنجليزية في فيينا. كم من موضوعاتٍ لدَينا لنتحدث عنها معًا! والآن تعالي من هذا الطريق حيث تنتظرنا العربة، وسيتولى الخادم هنا العناية بأمتعتكِ. ستأتين معي إلى القصر وتظلِّين في ضيافتي طيلة فترة وجودكِ في فيينا. لا ترفضي، ولا تُقدِّمي أيَّ عذر، ولا تتحدَّثي عن الذَّهاب إلى فندق؛ لأني خصَّصتُ لكِ جناحًا كاملًا، وستسبقنا أمتعتُكِ إلى هناك. والآن، دعينا ندخل إلى العربة؛ فأنا أشتاق إلى سماع تفاصيل المهمة التي أتيتِ من أجلها. آمُل أن تكون فضيحة مُسلِّية.»

أجابت جيني: «لا، إنها تخصُّ شئونًا حكومية.»

صاحت الأميرة: «يا لخيبة الأمل! كم هي مهمة مُملة! إنَّ السياسة مُضجرة للغاية.»

قالت جيني: «لا أعتقدُ أن هذه القضية مُملة؛ لأنها جعلَت النمسا وإنجلترا على شفا الحرب.»

«يا لها من فكرة مُروعة! لم أسمع أيَّ شيءٍ عنها. متى حدث هذا؟»

«قبل أقلَّ من شهر.» ثم تحدَّثت جيني عن كل الملابسات، وأعطَت مُلخصًا لخطاب رئيس الوزراء.

احتجت الأميرة على ذلك قائلة: «لكنني لا أرى في ذلك الخطاب أي شيءٍ يُؤدي إلى نشوب الحرب؛ إنه معتدل اللهجة وصافٍ مثل الحليب الطازج.»

تابعَت جيني قائلة: «أنا لا أتظاهر بفهم الدبلوماسية وفنِّ التفاوض.» وكانت خَجلى إلى حدٍّ ما وهي تتذكَّر اللورد دونال على ذكر الدبلوماسية، وبدا أن نفس الفكرة طرأت على ذهن الأميرة في اللحظة نفسِها؛ إذ نظرت مازحةً إلى جيني وانفجرت ضاحكة.

صاحت الفتاة: «اضحكي كما تشائين، لكني أُؤكِّد لكِ أن هذا شأن جاد. يقولون ما هو إلا خطاب ثانٍ «معتدل اللهجة وصافٍ» من رئيس الوزراء وسوف تردُّ إنجلترا بأكثر العبارات تهذيبًا وبكلماتٍ معسولة للغاية، وفي اللحظة التالية سوف تشتعل جذوة العَدَاء بينهما.»

قالت الأميرة وهي لا تزال تضحك: «لِمَ لا نكتب إلى اللورد دونال في سانت بطرسبرج ونطلُب منه أن يأتي إلى فيينا ويُساعدنا؟ إنه يفهم كل شيءٍ عن العمل الدبلوماسي. بالمناسبة يا جيني، هل اكتشف اللورد دونال هُوية مَن التقى بها في الحفل تلك الليلة؟»

أجابت الآنسة باكستر باقتضاب: «لا، لم يكتشف.»

«ألا تنوين إخباره يومًا؟ هل ستتركين هذه القصة الرومانسية غيرَ مكتملة هكذا، مثل إحدى روايات هنري جيمس؟»

«إنها ليست قصةً رومانسية. إنها مجرد حادثة عارِضة مُزعجة للغاية أُحاول أن أنساها منذ ذلك الحين. ولتضحكي كما تشائين، ولكن إذا ذكَرْتِ الموضوع مرةً أخرى سأتركِكِ وأذهب إلى فندق.»

قالت الأميرة بصوتٍ مغرِّد مرح: «أوه، لا، لن تفعلي، ولا تجرُئين. فأنتِ تعلمين أنني أملك في يدي كل الأوراق الرابحة؛ ويُمكنني في أي وقتٍ إرسالُ رسالة إلى اللورد دونال وإراحة عقل الشاب المسكين. ولذا كما ترَين يا آنسة جيني، سيتعيَّن عليكِ التحدُّث معي بلطفٍ وأدبٍ شديدين وعدمُ توجيه أي تهديدات؛ لأنني مثل هؤلاء الأشرار في المسرحيات المُثيرة الذين يعلمون أسرارًا آثِمة عن الآخرين ويبتزُّونهم بها. ولكنكِ فتاة لطيفة، ولن أقول أي شيءٍ لا تُريدين سماعه. والآن، ما الذي ترغبين في معرفته عن هذه الأزمة السياسية؟»

«أريد أن أكتشف السبب الذي جعل رئيس الوزراء لا يُتْبِع خطَابه بخطابٍ آخر. لا بدَّ أنه كان يعلم حتمًا عندما ألقى خطابه كيف ستُفهَم كلماته في إنجلترا، ولذا فمن المُعتقَد أنه كانت لديه بعض الخطط التي اعترضَت مسارَها ظروفٌ طارئة غير مُتوقَّعة فألغتها. وأريدُ أن أعرف ماهية هذه الظروف وتلك الخطط. فقد أرسلت صحيفة دايلي بيجل زميلَين إلى هنا في فيينا خلال الأسبوعين الماضيين لمحاولة سَبْر أغوار الأسرار الخَفية في دهاليز الدبلوماسية. وقد أخفقا في ذلك حتى الآن، لكنهما قد ينجحان في أي لحظة؛ ولقد أُرسِلْتُ إلى هنا بسبب إخفاقهما. والآن، هل لديكِ أي شيءٍ تقترحينه يا سيدتي الأميرة؟»

«أقترحُ يا جيني أن نُفكر معًا لمعرفة كل ما يرغب هؤلاء الدبلوماسيون في إخفائه. هل لديكِ أنتِ أي خطط؟»

«ليس لديَّ خطة مُحدَّدة، لكنْ لديَّ مخطَّط عام. هذان الزميلان اللذان تحدثتُ عنهما يُحاولان اكتشاف ما يسعى الرجال الآخرون جاهدين من أجل إخفائه. وكل المسئولين في حالة تَحفُّز واستنفار. وهم يَشغلون مناصبَ مرموقة، وليس من الوارد أن يقبلوا الرشوة. كما أنهم رجال أذكياء وحَذِرون ومُحنَّكون، ولذا فإن خداعهم هو أمر غير وارد على الإطلاق، لذلك أعتقد أن زميلَيَّ الصحفيَّين أمامهما مهمة صعبة.»

«لكنها نفس المهمة التي أنتِ بصددها؛ فما الذي لا يجعلها بنفس القدْر من الصعوبة عليكِ يا جيني؟»

«لأنني أقترحُ العمل مع أشخاصٍ ليسوا مُستنفَرين ولا مُتحفِّزين، وهذا هو ما يمكنكِ أن تُساعديني فيه، إذا لم يصدمكِ اقتراحي. فكل مسئول لديه زوجة، أو على الأقل معظمهم لديه. وبعض هذه الزوجات، على الأرجح، يمتلكْنَ المعلومات التي نرغب في الحصول عليها. والنساء يتحدَّثن مع النساء بحرية أكبر مما يتحدَّث بها الرجالُ مع الرجال. ومن ثمَّ، أقترحُ ترك المسئولين تمامًا وشأنهم، وإجراءَ مقابلاتٍ مع زوجاتهم.»

صاحت الأميرة وهي تُصفق بيدَيها:

«ممتاز! إنَّ النساء في فيينا يُحببن الثرثرة والنميمة للغاية. وأنا لم أكن أبدًا مهتمة بالسياسة، وإلا لأصبحَتْ في حوزتي بعضُ أسرار الحكومة المهمة. والآن يا جيني، سأُخبركِ بما أقترحُ فعله؛ سأُقيم حفل شاي رسميًّا بعد ظهر الخميس المقبل. وسأدعو إليه عشرًا، أو عشرين، أو ثلاثين من زوجات المسئولين ذَوي النفوذ في قصر الحكم. سيُسَرُّ زوجي لذلك؛ لأنه يشكو دائمًا من أنني لا أُولي اهتمامًا كافيًا لسيدات الأوساط السياسية في فيينا. وهو يهتم كثيرًا بالسياسة. وإذا لم نكتشِف شيئًا في حفل الشاي الأول، فسنُقيم آخَرَ

ثم آخَرَ ثم آخر حتى نكتشف. وأنا على يقينٍ أننا سندعو المرأة المناسبة في إحدى تلك الحفلات، وعندما نجدها سأضمن لكِ حصولنا على السر. آه، ها قد وصلنا المنزل، وسوف نُؤجل مناقشة مؤامرتنا المُبهجة حتى تتناولي الطعام وتنالي قسطًا من الراحة.»

توقفت العربة أمام القصر المهيب، المشهور في فيينا، الذي يمتلكه الأمير فون شتاينهايمر؛ وبعد ذلك بوقتٍ قصير، وجدَت جيني باكستر نفسها داخل أفضل جناحٍ شاهدَتْه في حياتها. فضحكت جيني مُبتهجة وهي تتفقَّد الجناح الذي ستُقيم فيه وما فيه من تجهيزاتٍ فخمة.

وقالت للأميرة التي وقفت بجانبها مسرورةً بسرور صديقتها: «هذا لا يُحاكي حتى ما يمكن أن نُسمِّيه «غرفًا مستأجرة» في لندن، أليس كذلك؟ وكثيرًا ما نقرأ عن الصحفيين الفقراء الذين يسكنون في غُرَف السطح، لكنني لا أعتقد أن أيَّ صحفيٍّ كانت لديه غرفة سطح بفخامة هذا الجناح تحت تصرفه.»

صاحت الأميرة بمرح: «كنت أعلم أن هذا الجناح سوف يُعجبكِ، فهو يُعجبني أنا نفسي، وآمُل أن يُساعد في تشجيعكِ على البقاء في فيينا لأطول فترةٍ ممكنة. لقد وضعتُ خادمتي الخاصة جريتليش في خدمتكِ، وأؤكِّد لكِ أنني لا أفعل هذا مع كل صديقة؛ فهي خادمة نموذجية.»

قالت جيني: «أوه، لكن لم يكن عليكِ أن تفعلي ذلك؛ لا يمكنني أن أحرمكِ من خادمتكِ وأن أكون أنانيةً بالقدر الذي يجعلني أحتكرُ هذا الجناح.»

«أنتِ لا تحرمينني منها، في الواقع، ربما مكرٌ مني بعض الشيء أن أُهديَكِ جريتليش؛ فهي تبدو مكتئبة منذ أسبوع أو أسبوعين، ولا أعرفُ أبدًا ما ألمَّ بها. أظن أنها علاقة حب؛ لكنها لم تَبُح بشيء، رغم أنني سألتُها مرارًا وتكرارًا ما الخطب. والآن، بما أنكِ شابة مبتهجة وتُجيدين مواساة الآخر، فقد فكرتُ أن جريتليش إذا وُضِعت في خدمتكِ لفترةٍ من الوقت، فربما تصفو روحها وتعود إلى سابق عهدها مرةً أخرى. وهكذا، أنتِ لم تحرميني منها، لكنني في الواقع أستفيد من طبيعتكِ الطيبة.»

«أخشى أنكِ تقولين ذلك فقط لتسهيل الأمر عليَّ. ومع ذلك، أنتِ كريمة جدًّا أيَّتها الأميرة، لدرجة أنني لن أعترض على أي شيء تفعلينه، وسأستمتع بكل هذه الرفاهية خلال فترة إقامتي في فيينا.»

«حسنًا. ها هي جريتليش. الآن يا جريتليش، أريدكِ أن تجعلي إقامة الآنسة باكستر هنا مُمتعة للغاية، بما يجعلها لا ترغب في تركنا أبدًا.»

قالت الفتاة بإجلال هادئ: «سأبذل قصارى جهدي، سموَّك.»

تركَت الأميرة الاثنتَين بمفردهما، ورأت جيني أن جريتليش لم تكن أقلَّ أناقةً من الجناح الفخم الذي ستُقيم فيه. كانت جريتليش مثالًا ممتازًا لذلك النوع من النساء الجميلات اللواتي تشتهر بهن فيينا؛ لكنها كانت — كما قالت الأميرة — مُكتئبةً للغاية، وجيني، التي تُكِنُّ تعاطفًا عميقًا تجاه كل مَنْ يُمارس عملًا لكسْب عيشه، تحدثت بلُطفٍ إلى الفتاة وسَعَت إلى إبهاجها. كان هناك شيء من الحنان غير المألوف في النبرات العطوفة لصوت جيني؛ وهو أمر لامسَ الفتاةَ وأثَّر فيها، حتى إنها بعد محاولةٍ وجيزة وغير مُجدية لكبح جماح نفسها، انهارت وانخرطت في البكاء. ثم حكَت قصتها لجيني التي أنصتت إليها بشفقةٍ وتعاطف. كانت جريتليش مخطوبةً لجندي تتمركز فرقته في بورج. وفي آخر مرة رأت الفتاةُ حبيبها كان من المفترض أن يتولَّى ليلتها حراسة مبنى الخِزانة. وقبل طلوع الصباح وقعت كارثة من نوع ما، ولم تعلم الفتاة ما حدث. لكن قال البعض إنه قد وقع انفجار مروع وفقد حبيبها حياته. ولم يُسمَح لأقارب الجندي ولا خطيبته برؤيته بعد الكارثة؛ حيث دُفن في الخفاء، ويبدو أن السلطات كانت تعتزم تجنُّب أي ترويج للحادث. وقد حذَّرت أقارب الجندي القتيل وخطيبته بأن عليهم التزام الصمت وعدم السعي وراء المزيد من المعلومات. وقبل عدة أيامٍ من معرفة جريتليش بوفاة خطيبها، كانت تشعر بالقلق لأنه لم يُحافظ على موعده معها، ولم تصِلها منه أي أخبار؛ ولأنها خشيت أن يكون مريضًا، بدأت في الاستفسار عنه، وعندئذٍ تلقَّت الخبر والتحذير معًا.

في حضرة الموت، تُصبح كلُّ أشكال المواساة بلا جدوى، وهذا ما أدركتْه جيني وهي تحاول قدر استطاعتها تهدئة الفتاة. وقد تعاطف قلبها معها للغاية لدرجةٍ أثرت على نشاط عقلها؛ لكن ها هي تقف على عتبة السِّر الذي أتَت إلى فيينا لتكتشفه، ولم يكن لديها أدنى شك في أن مأساة الفتاة تتَّصِل اتصالًا وثيقًا بمهمتها الخاصة. تعجَّبَت جيني من غباء كادبوري تايلور، الذي فشل في رؤية ما بدا واضحًا أمامه، بينما ها هي نفسها قد قطعت آلاف الأميال، بطريقةٍ أو بأخرى، للحصول على معلوماتٍ مُعينة، لتجد فتاةً ناحبة تروي الخبر ذاته الذي جاءت من بلدٍ بعيد لكي تكتشفه. وهذا ما يُوضِّح أن لا أحدَ منا ذكيٌّ وماهر كما نتخيل أنفسنا.

وبعد الظهيرة، دخلت الأميرة غرفة جلوس جيني وهي تحمل في يدها مجموعةً من الرسائل.

وقالت: «انظري! بينما كنتِ تستريحين؛ كنتُ أعمل، ولن نسمح بإضاعة أي وقت. لقد كتبتُ بيدي دعواتٍ لحوالي عشرين مدعوةً إلى حفل الشاي الذي سنُقيمه يوم الخميس، ومن بينهن، زوجة رئيس الوزراء، الكونتيسة شترون. أتوقَّع منكِ أن تتجاذبي أطراف الحديث مع تلك السيدة وتُخبريني بنتيجة المحادثة بعد انتهائها. هل واسيتِ جريتليش؟ لقد جئتُ إلى هنا منذ نصف ساعة، وبدا لي أنني سمعتُ صوت بكاء في هذه الغرفة.»

قالت جيني: «أوه، نعم، لقد كانت تُخبرني بمشكلتها. يبدو أن خطيبها جنديٌّ في الجيش، وقد قُتِلَ في حادث ما وقع في مبنى الخِزانة.»

«وما هو نوع ذلك الحادث؟»

«قالت جريتليش إنَّ انفجارًا قد وقع هناك.»

«يا إلهي! لم أسمع بهذا الأمر. إنه لأمرٌ غريب أن يأتي أحد من لندن ليُخبرنا بأخبارنا. انفجارٌ في مبنى الخزانة! وخطير للغاية لدرجة قتل جندي! هذا يُثير فضولي، ولذا سأكتبُ دعوة أخرى إلى زوجة أمين الخزانة.»

«أتمنَّى أن تفعلي ذلك؛ لأنني أودُّ أن أعرف المزيد عن هذا بنفسي. يبدو أن جريتليش لم تكن لديها إلا معلومات ضئيلة عن الحادث، وأودُّ أن أعرف المزيد عنه؛ حتى أتمكن من إخبارها.»

«سنعلَم كلَّ شيءٍ عنها من الزوجات المحترمات، ويجب أن أكتُب تلك الرسالة الموجزة على الفور خشيةَ نسيانها.»

الفصل الثالث عشر

جيني تستمتع باحتساءِ الشاي والثرثرة

في عصر يوم الخميس، شهد صالون الأميرة فون شتاينهايمر الفسيحُ جَمْعًا مشهودًا. شكَّلَت الملابس الفاخرة التي ترتديها السيدات سلسلةً من الصور الكينتوجرافية المُبهرة؛ ولِمَ لا والنساء في فيينا بارعاتٌ في فنِّ الأزياء مثل أخواتهن الباريسيات؟ ولم يُقَدَّم الشاي في فناجينَ بأطباقٍ مثلما اعتادت جيني رؤيته، وإنما جاء في كئوسٍ من زجاج البندقية الرقيق الشفَّاف، داخل حاملٍ مُرصَّع بالذهب المُزركَش. وقُدِّم كل ما تشتهيه الأنفس من أصناف الكعك اللذيذ التي تشتهر بها المدينة. أما الشاي فهو من النوع المُستورَد برًّا عبر روسيا قادمًا من الصين؛ ولذا لم تتردَّ جودته مثلما يحدُث عند الاستيراد بحرًا عبر المحيط. وقُدِّم الشاي المَغلي مُصفًّى، مع السكر لِمَنْ يرغب في ذلك، مع شريحة من الليمون، ووجدَت جيني أنه أطيبُ مشروب تذوَّقَته على الإطلاق.

همَسَت الأميرة لجيني عندما سنَحَت الفرصة: «أعتذر إليكِ كثيرًا؛ لكن الكونتيسة شترون أرسلت مرسالًا لتقول إنها لا تستطيع الحضور اليوم؛ إذ يبدو أن زوجها، رئيس الوزراء، مريض، وهي، كزوجةٍ وفيَّة، ستبقى في المنزل لرعايته. وهذا يُحبِط خُطَطَنا بعض الشيء، أليس كذلك؟»

أجابت جيني: «يا للحظ العَسِر! لا أعرف؛ من المُرجَّح أن تكون زوجة رئيس الوزراء حريصةً للغاية على عدم مناقشة أي مسألةٍ سياسية في هذا الجَمْع. ولذلك، عوَّلتُ على زوجة مسئولٍ أقلَّ مكانةً أكثرَ من تعويلي على الكونتيسة شترون.»

قالت الأميرة: «أنتِ مُحقَّة، والآن تعالي معي؛ أودُّ أن أُقدِّمكِ إلى زوجة أمين الخِزانة، وربما يُمكنكِ أن تعرفي منها شيئًا عن الحادث الذي أصاب حبيب جريتليش المسكين.»

ومن ثمَّ تبيَّن أن زوجة أمين الخزانة سيدة عجوز ثرثارة تفتخر بمعرفة كل ما يحدُث حولها. وهكذا بدَت هي وجيني تتهامسان وهما تحتَسِيان كأسَي الشاي، ذلك المشروب

الذي بالغت السيدة العجوز في التلذُّذ به. وبينما تتجاذبان أطراف الحديث، رأت جيني أنها شخصٌ يَسعد بإخبار كل ما يعرفه، والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه الآن هو ما إذا كانت تعرف أيَّ شيءٍ ترغب جيني في معرفته. ولكن قبل أن تتحدَّث معها عن السياسة العُليا، قرَّرت الفتاة معرفة المزيد عن الكارثة التي أدَّت إلى مثل هذه النهاية المفجِعة لفتى أحلام جريتليش.

فقالت: «يَشغلني كثيرًا أمرُ إحدى الخادمات هنا التي فقدت حبيبها قبل بضعة أسابيع في حادثٍ وقع في مبنى الخِزانة. ويبدو أن الخادمة لا تعرف الكثير عما حدث باستثناء ما قيل لها فقط عن أن حبيبها، وهو أحد جنود مناوبة الحراسة هناك تلك الليلة، قد لقِيَ حتفَه.»

همست السيدة العجوز بصوتٍ مُنخفض: «نعم، هذا صحيح يا عزيزتي! يا له من حادث مروِّع، لقد قُتِلَ أربعة رجال، بينما ثمانية أو تسعة الآن في المستشفى. إنَّ زوجي المسكين قلَّما يغمض له جَفنٌ منذ وقوع الحادث، ورئيس الوزراء مريض يُلازِم فراشه بسبب ما استبدَّ به من الجزَع.»

سألت جيني ببراءة: «بسبب الخسارة في الأرواح؟»

«أوه، كلَّا البتة! إنَّ خسارة الأرواح لا تُهِم. لكن خَسارة الأموال هي الأهم، فكيف سيُعوضونها أو يُفسِّرون اختفاءها، أنا على يقينٍ بأنني لا أدري. فالعجزُ يَزيد عن مائتَي مليون فلورين. أليس هذا بأمر مروِّع؟»

«هل تحطَّم المبنى إلى هذا الحد؟» استفسرت جيني، التي لم تكفَّ عن التفكير في أنَّ مثل هذا المبلغ يُمكنه إعادةُ بناء أي صرحٍ في فيينا، حتى لو مُحيَ تمامًا عن وجه الأرض.

«لقد تضرَّر مبنى الخِزانة بالطبع، لكن تكلفة الإصلاحات لن تكون باهظة. كلَّا يا بُنيتي، إنه حادث جلَل للغاية، يفوق في خَطْبه تدميرَ أي مِرْفَق تابع للدولة في أرجاء الإمبراطورية. إنَّ ما أصاب رئيس الوزراء بالمرض، وما يقضُّ مضجع زوجي المسكين حتى إنه يُوشك على هلاكٍ محتوم، هو فقدان صندوق الحرب.»

ردَّدت جيني: «صندوق الحرب! وما هو صندوق الحرب؟»

«يا عزيزتي، إنَّ كل أمَّةٍ عظيمة لديها صندوق حرب. إنجلترا لديها واحد، وكذلك فرنسا وألمانيا وروسيا، بغضِّ النظر عن مدى فقر الدولة، أو مدى صعوبة تحصيل الضرائب، يجب أن يكون لتلك الدولة صندوقُ حرب. وإذا اندلعَت الحرب فجأة، حتى مع أكثرِ الدول ازدهارًا، فستَسودُ فورًا حالةٌ من الذُّعر المالي، وسيكون من الصعب تدبيرُ

السيولة اللازمة، كما أنه من المستحيل تقريبًا الحصولُ على قرض، وما تحتاجه الحرب فورَ إعلانها هو المال — ليس وعودًا بالمال، ولا نقودًا ورقية، ولا حتى نقودًا فِضية، بل ذهب — ولذلك، فكل أمةٍ مُهدَّدة بخطر الحرب يكون لديها مخزونٌ من العملات الذهبية. ولا يتكوَّن هذا المخزون بالأساس، أو حتى في الغالب، من عملات الدولة التي تمتلكه؛ بل يتكوَّن من عملاتٍ ذهبية مثل عملات ملوك إنجلترا، وعملة لويس الفرنسية، وفيليم دور الهولندية، والعملات النمساوية فئة ثمانية فلورين، وعملة التاج المزدوَج الألمانية، والعملات الروسية فئة ٥ روبلات، والعملات الدنماركية التي تحمل صورة مزدوجة للملك فريدريك، وغيرها من عملات الدول الأخرى. كلُّها من الذهب ثم الذهب ثم الذهب! وأعتقد أنه قد أُودِعت عملات ذهبية لدولٍ مختلفة في صندوق الحرب في النمسا، بما يقرُب من مائتَي مليون فلورين. لم يُخبرني زوجي قط كم كان هناك بالضبط، لكن في بعض الأحيان عندما يبدو الوضع هادئًا ومُستقرًّا، يُصبح المال في صندوق الحرب أقلَّ مما هو عليه عند وجود خطرٍ وشيكٍ باندلاع حرب في أوروبا، وهو ما نخشاه جميعًا. وقد كان صندوق الحرب النمساوي داخل غرفة مُحصَّنة بالحجارة، في واحدٍ من أقوى الأبراج المُحصَّنة في مبنى الخزانة. وقد يُسمَح للجمهور بدخول العديد من غرف مبنى الخزانة، ولكن لا يُسمَح أبدًا لأي شخصٍ غريب بالدخول إلى ذلك الجزء من المبنى الذي يُحتفَظ فيه بصندوق الحرب. تظلُّ هذه الغرفة تحت الحراسة ليلَ نهار. ويرى زوجي أنه لا يُمكن لومُه إطلاقًا جرَّاء ما حدث، ولا أعتقد أن رؤساءه يميلون إلى اتهامه بالتقصير في واجبه. فالجيد في الأمر أنه في اليوم السابق لوقوع الكارثة، قد ضاعفَ من تِلقاء نفسه الحراسةَ على الغرفة والطرقات المُؤدِّيَة إليها. وكان صندوق الحرب مُمتلئًا تمامًا. ولم يحدُث أبدًا — حسبما أخبرَني — أن احتوى على هذا المبلغ الهائل من المال مثلما كان في ذلك الوقت بالذات. ولكن حدث شيءٌ يستدعي مزيدًا من الحيطة في رأيه، فضاعفَ جنود الحراسة. ولكن في منتصف الليل اندلع انفجارٌ هائل. وانتزع البابَ القويَّ المُتصل بالممر من مفصلاته، وقذفه إلى الخارج حيث تُوجَد الرَّدْهة. ويُقال إنَّ الفاعِل قد استخدم الديناميت، وبكمياتٍ هائلة للغاية. ولم يتبقَّ من الصندوق غير بضع قِطَعٍ من الحديد المُتشظِّي. وتحوَّل الجنود الأربعة في الغرفة إلى أشلاء، وأُصيبَ مَنْ كانوا في الممرِّ بالصدمة. ويبدو أن حقيقة فقدِهم الوعيَ لبعض دقائق قد أعطت الجانيَ، أيًّا كانت هُويته، فرصةً للهروب؛ ذلك أنه على الرغم من إطلاق إنذار فوري، وعدم السماح لأي شخصٍ بدخول

المبنى أو الخروج منه باستثناء أولئك الذين لديهم الحقُّ في أن يكونوا داخل المبنى، ومع ذلك لم يُلقَ القبض على أحد، وحتى يومِنا هذا لم يُلقَ القبض على الفاعِل.»

صاحت جيني بحماس: «لكن الذهب، ماذا عن الذهب؟»

«لم تتبقَّ منه قطعة واحدة. تلاشت جميعها. إنها بالفعل أذكى وأكبرُ عملية سطوٍ لسرقة الأموال حدَثَت في نطاق معرفتنا.»

قالت جيني: «لكن مثل هذه الكمية من الذهب لا بدَّ أنها ذات وزنٍ هائل. مائتا مليون فلورين! يا للغرابة، إنها تُعادل عشرين مليون جنيه إسترليني، أليس كذلك؟ وهي تستلزم عُصبةً من اللصوص لحملها والهرب بها. كيف حدث ذلك؟ وأين خبَّئوا الذهب؟»

«آه يا بُنيتي، لو أن بإمكانكِ العثورَ على إجاباتٍ لهذه الأسئلة، لدفعَت لكِ الحكومة النمساوية أيَّ مبلغٍ تطلبينه تقريبًا. فالشرطة مُتحيرة تمامًا. وبالطبع، لم تُنشَر أيُّ أخبارٍ عن هذه السرقة الضخمة. لكن كل مخارج فيينا تخضع للمُراقبة الصارمة، وليس هذا فحسب، ولكن كل الحدود أيضًا مُؤمَّنة. فما تريده الحكومة بالطبع هو استعادة ذهبها، الذي هو حصيلة سنواتٍ من الضرائب، لا يُمكن بسهولةٍ إعادةُ جبايتها.»

سألت جيني: «ومتى وقعت هذه السرقة؟»

«في ليلة السابع عشر.»

«ليلة السابع عشر!» أخذت الفتاة تُكرِّر العبارة أكثر من السيدة العجوز الثرثارة، ثم قالت معقِّبة: «وقد ألقى رئيس الوزراء خطاب الحرب يوم السادس عشر.»

قالت السيدة العجوز بعد أن تناهت إلى سمعها الملاحظة التي لم تقصد الفتاة أن تُسمِعَها إيَّاها: «بالضبط؛ ألا تعتقدين أنَّ هناك شيئًا لافتًا للنظر في هذه المصادفة؟»

«أنا لا أفهم تمامًا. أيُّ مصادفة؟»

«حسنًا، أنتِ تعلمين أن خطاب رئيس الوزراء كان ضدَّ إنجلترا. ولم يكن خطابًا وليدَ اللحظة، لكنه بلا شك نتيجةُ مشاوراتٍ عديدة، ربما مع روسيا، وربما مع ألمانيا، أو مع فرنسا، مَنْ يدري؟ لقد نشأَت صداقة كبيرة مؤخرًا بين روسيا وبيننا؛ وبما أن إنجلترا لديها جواسيس في كل أنحاء العالم، فلا شكَّ أن حكومتها كانت تعلم بأمر الخطاب قبل إلقائه، ومن ثمَّ تعتقد شرطة فيينا أن الحكومة البريطانية قد سخَّرت كلَّ مواردها من أجل حصار النمسا وشَلِّ حركتِها في لحظة حرجة.»

«بالتأكيد يا سيدتي أنتِ لا تقصدين أنَّ حكومة إنجلترا قد تتدنَّى إلى مستوى السطو والسرقة، بل والقتل أيضًا؛ إذ إن الجنود المساكين الذين كانوا يحرسون الخزانة قد قُتلوا

فعليًّا كما لو كانوا قد اغتِيلوا في الشارع؟ ولا أظنُّكِ تتصوَّرين أن الحكومة البريطانية قد تدنَّت إلى مثل هذه الأعمال؛ أليس كذلك؟»

هزَّت السيدة العجوز رأسها بحِكمة.

«بحلول الوقت الذي تبلُغين فيه مثلَ عمري يا عزيزتي، وتُشاهدين الكثير من ألاعيب السياسة كما رأيتُها، ستعرفين أنَّ الحكومات لا تتورَّع عن فعل أي شيءٍ لتحقيق غاياتها. ولا يمكن لأي عصابة خاصة من اللصوص أن تضع مثل هذه الخطط التي تُمكِّنها من السطو على مائتَي مليون فلورين من الذهب، إلا إذا كانت لديهم المواردُ الكافية، فضلًا عن عقلٍ مُدبِّر لتوجيههم. إنَّ الدول لا تتردَّد في فعل أي شيءٍ لتحقيق مصالحها. وليس من مصلحة أي إمبراطورية أخرى سوى إنجلترا أن تستنزف النمسا في الوقت الراهن، وأن تختبر مدى إنجاز مكائدها. لا تُوجَد دولة تثق بأخرى، ولو كان لدى النمسا دليلٌ على أن إنجلترا هي مَنْ وراء هذه السرقة، فما كانت لتجرؤ على أن تنبس ببِنت شفة؛ لأن صندوق الحرب خاصتها فارغ، كما لا يُمكنها السماح لألمانيا أو روسيا بمعرفة حجم السرقة التي تعرَّضَت لها؛ لأنه ما من أحدٍ يُمكنه التنبُّؤ بما قد تفعله أيٌّ من هاتين الدولتَيْن في ظلِّ هذه الظروف. وتخشى الحكومة من السماح لشعبها بمعرفة ما حدث. إنها ضربة انتقامية حاسمة. وستظلُّ النمسا تتجرَّع ويلاتها لسنواتٍ قادمة، ما لم تجد الذهب المسروق في أراضيها.»

كانت السيدة العجوز قد اندمجت في حديثها المُشوِّق، لدرجة أنها لم تَلحَظ أن معظم رفيقاتها المدعوَّات قد غادرن، وعندما اقتربت الأميرة منهما، نهضت في شيءٍ من الفزع.

وقالت: «يا أميرتي العزيزة، لقد كان مذاق الشاي رائعًا جدًّا، وكذلك رِفقة مُواطِنتكِ الشابة كانت مُمتِعة للغاية، لدرجة أنني لم أفعل شيئًا سوى الثرثرة ثم الثرثرة ثم الثرثرة، حول أمور ينبغي عدمُ التحدُّث عنها إلا بصوتٍ خفيض، والآن عليَّ أن أهمَّ بالرحيل. هل لي أن أجرؤ على الأمل في أن تشرفيني بحضورِكِ في إحدى حفلات الاستقبال التي أعقدها عندما أرسِلُ إليكِ بطاقة دعوة؟»

ردَّت الأميرة بتواضُع وكياسة: «يُسعِدني ذلك.»

وهكذا كانت السيدة العجوز الثرثارة آخِرَ مَنْ غادرت، وعندما أصبحت الأميرة مع ضيفتها على انفراد، صاحت:

«جيني، لم أتوصَّل إلى شيءٍ على الإطلاق، فهل اكتشفتِ شيئًا؟»

ردَّت الفتاة: «كل شيء!» وراحت تجوب القاعة ذهابًا وإيابًا في حماس؛ لاكتشافها مثلَ هذا الكمِّ الهائل من الأخبار.

«حقًّا! إذن اجلسي وأخبريني بكل التفاصيل على الفور.»

وبعد أن انتهت جيني من سرد القصة المثيرة، قالت:

«كما ترين، فإن هذه السرقة تُفسِّر السبب الذي جعل رئيس الوزراء لا يُتبِع خطابه الداعيَ إلى الحرب بخطابٍ آخر. ويبدو أن الشرطة تعتقد أن إنجلترا لها يَدٌ في هذه السرقة، لكن هذا أمر غير معقول بالطبع.»

ردَّت الأميرة مُتخذةً وجهة نظر شيكاجو، ومتناسيةً في هذه اللحظة مكانتَها وسط الطبقة الأرستقراطية في أوروبا: «لستُ متأكدة من ذلك؛ إن إنجلترا تستولي على مُعظم الأشياء التي يُمكنها الاستيلاء عليها، وهي لا تتورَّع عن نهْب منجم ذهب هنا وهناك، فلماذا إذن تتردَّد عندما تجد أمامها ذهبًا مسكوكًا بالفعل في هيئة عملاتٍ متداوَلة؟»

تابعت جيني بهدوء: «إنه أمر غير معقول بالمرة كي نتجادَلَ حوله، ومن ثمَّ لن نتحدَّث عن هذه الجزئية من الموضوع. يجب أن أذهب إلى إنجلترا على الفور. هيا لِنَعرف موعد مُغادرة أول قطار.»

احتجَّت الأميرة قائلة: «غير معقول! لماذا ستعودين إلى إنجلترا؟ أنتِ لم ترَي شيئًا من فيينا بعد.»

«أوه، يُمكنني رؤية فيينا في زيارةٍ أخرى؛ فلا بدَّ أن أصل إلى إنجلترا بهذا التقرير عن السرقة.»

«ألن تدفعَ لكِ جريدتُكِ ثمن إرسال برقيةٍ بمثل هذا الخبر المهم؟»

«بلى ستدفع بالتأكيد؛ لن تكون هناك صعوبة في ذلك، لكنني لا أجرؤ على الوثوق في مكتب البريد أو التلغراف في حالةٍ كهذه. فالشرطة تُراقبهما بكل تأكيد.»

«لكن ألا يُمكنكِ إرسالها بنظام التشفير؟ لقد اعتاد والدي دائمًا إرسالَ برقياته عبر التلغراف عن طريق التشفير؛ وهذا يُوفر الكثير من المال كما أنه يَحُول دون معرفة الآخرين أيَّ معلوماتٍ عن فحوى أعماله.»

«لديَّ نظام تشفير، لكني مُتردِّدة في الوثوق حتى بذلك.»

قالت الأميرة: «سأُخبركِ بما سنفعله، أُريدكِ أن تبقَي في فيينا.»

قالت جيني: «أوه، سأعود، لقد شعرتُ للتوِّ بروعة هذه المدينة المُبهِجة. وسأعود على الفور.»

«لا أستطيع أن أثق في أنكِ ستفعلين. فعندما تصلين إلى لندن ستمكُثين هناك. والآن، فقد أخبرتكِ باقتراحي، وستكون لهذا ميزة إضافية؛ توفيرُ يومٍ آخَر على جريدتكِ. سنُسافر

معًا إلى إيطاليا؛ إلى البندقية، ومن هناك يمكنكِ إرسال البرقية المُشفَّرة بأمانٍ تام. وبعد ذلك تعودين معي إلى فيينا. وهناك شيءٌ آخر، تأكَّدي أن رئيس تحرير الصحيفة سيُريدكِ أن تمكثي هنا في قلب الأحداث لإعلامه بتطوُّرات هذا الموقف الخطير.»

تمتَمَت جيني: «هذه ليست بفكرةٍ سيئة؛ كم سنستغرق من الوقت للوصول إلى البندقية؟»

«لا أعرف، لكنني متأكدة من أنه سيُوفر ساعاتٍ من وقتكِ عمَّا لو سافرتِ إلى لندن. سأُحدِّد لكِ الوقت المُستغرَق بدقة في غضون لحظة.»

وافقت جيني على اقتراح الأميرة، وذهبتَا معًا إلى مدينة البندقية الساحرة. بحلول الوقت الذي وصَلَتا فيه إلى هناك، كانت جيني قد أتمَّت مقالها وكتبته بنظام التشفير، ثم أرسلت البرقية الطويلة عبر مكتب التلغراف بمجرد وصولهما إلى البندقية. كما أرسلت جيني إلى رئيس التحرير برقيةً خاصة تُوضِّح من خلالها عنوانَها في البندقية، وتُخبِره أيضًا عن سبب إرسال البرقية من إيطاليا بدلًا من النمسا أو ألمانيا. وفي المساء تلقَّت ردًّا من السيد هاردويك. وقال في البرقية: «هذا رائع؛ أشكُّ في إنجاز شيءٍ مثل هذا من قبل. سوف نُذهِل العالَم صباح الغَد. أرجو أن تعودي إلى فيينا؛ إذ إنني متأكد تمامًا — بما أنكِ قد اكتشفتِ كلَّ هذا الكَم من المعلومات — من أنكِ ستتمكنين من القبض على اللصوص. وهذا بالطبع ما يسعى إليه كل رجال الشرطة وجميعُ الصحف في أوروبا، لكنني مُتأكِّد من أنكِ ستتفوَّقين عليهم جميعًا.»

صاحت جيني وهي تُسلِّم البرقية إلى صديقتها: «يا للهول! يا له من عالَم مُزعج؛ لا يُوجَد شيء له نهاية. فكلُّ مهمة عملٍ تُؤدي ببساطة إلى أخرى. لقد اعتقدتُ أنني قد حصلتُ هنا على راحة جيدة لمدة شهرٍ على الأقل، ولكن بدلًا من ذلك، ها هم يُكلِّفونني بمهمةٍ إضافية. لقد أصبحتُ مثل الجِنِّي في الحكايات الخرافية: لم أَكَدْ أنتهي من مهمة مستحيلة حتى تُطلَب مني أخرى.»

«ولكن، كم سيكون رائعًا إذا تمكَّنتِ من اكتشاف اللص أو اللصوص.»

«نعم، كم سيكون رائعًا حقًّا! ولكنه أمرٌ لن يحدُث مطلقًا بدعوة الكثير من النساء المُسِنَّات لاحتساء الشاي، أليس كذلك؟»

«صحيح، لذلك علينا أن نُوجِّه ذكاءَنا معًا في اتجاهٍ آخر. اسمعي يا جيني، لديَّ من النفوذ ما يجعلني أُعيِّنكِ في الشرطة الخاصة. ما رأيُكِ في أن أُقدِّمكِ بوصفك مُحقِّقةً أمريكية مُتخصِّصة في حل الألغاز الغامضة؟ سيَسمح لكِ التعيينُ في الشرطة الخاصة

بالدخول غير المُقيَّد إلى الجزء السرِّي من مبنى الخزانة. وستتمكَّنين من مُعاينة الغرَف التي تضرَّرت جرَّاء الانفجار، والاطلاع على ما توصَّلَت إليه الشرطة. ومع هذه المعلومات كبداية، قد نفعل شيئًا ما لحلِّ المشكلة.»

صاحت جيني بحماس: «سيدتي الأميرة؛ أنتِ مصدرُ إلهامٍ حقًّا! هذا بالضبط هو ما نحتاج إليه. لِنَعُد إذن إلى فيينا.» وبِناءً عليه، غادرت المُتآمرتان إيطاليا على متن القطار المسائي المُتجِه إلى النمسا.

الفصل الرابع عشر

جيني تُصبح ضابطًا في الشرطة الخاصة

عندما عادت جيني إلى فيينا، واستقرَّت مرة أخرى في جناحها الفاخر بقصر شتاينهايمر، تلقَّت نسخةً من صحيفة «دايلي بيجل»، أُرسِلَت إليها في الخفاء كرسالةٍ مُسجَّلة، وجاءت في حينها. ولاحظت الفتاة أن رئيس التحرير قد نجح في تحقيق الاستفادة القصوى من الأخبار التي أرسلَتْها إليه. فعندما طالعَت الصحيفة، رأت العناوينَ السوداء الكبيرة التي امتدَّت عبر عمودين، وذُكِرَ أن الأخبار لم تَرِدْ من البندقية، وإنما من فيينا، وكُتِبَ متن الخبر بحجمٍ أكبرَ بكثيرٍ من المُستخدَم عادةً في الصحيفة، وبضعف السماكة. وكانت العناوين مُذهلةً للغاية:

«ذهبٌ يختفي كالسراب»
«أضخم عملية سرقة في العصر الحديث»
«تفجير صندوق الحرب النمساوي»
«نهبُ عشرين مليون جنيه من العملات الذهبية»
«كارثة مُروِّعة في خِزانة فيينا»
«مصرع أربعة رجال، وإصابة ما يقرُب من ستة عشر آخرين بجروح خطيرة»

صاحت الأميرة وهي تنظُر من فوق كتف جيني إلى هذه العناوين المذهلة: «عجبًا! هذه العناوين تُشبه عناوين الصحف في موطني. إنَّ أسلوب صحيفة بيجل يختلف عن أساليب الصحف المُتبَعة في لندن؛ فهي تُذكِّرني بأسلوب تغطية إحدى صحف شيكاجو لمباراة بيسبول، عندما فازت شيكاجو، بالطبع، وعندما ضرب أنسون الكرة من القاعدة وطارت إلى خارج الحاجز، فأخرج ثلاثة رجال مُسجِّلًا بذلك نقطةً في لحظةٍ حرجة من المباراة.»

صاحت جيني: «عجبًا! أيَّ لغة تتحدثين؟ هل هي لهجة عامية أم لغة أجنبية؟»

«إنها لهجة أهل شيكاجو الخالصة يا جيني، التي أتحدثُ بها أحيانًا حتى هنا في فيينا المُتزمِّتة. كم أودُّ أن أشاهد مباراة بيسبول مُمتعة، تنتهي بفوز فريق شيكاجو. دعينا نرحل عن هذه الأجواء المَلَكية الواهنة يا جيني، ونذهب في زيارة إلى أمريكا.»

«يُسعدني الذَّهاب بالطبع إذا أخبرتِني أولًا مَنْ سرق صندوق الحرب. إذا تمكَّنتِ من وضع سَبَّابتكِ الرقيقة على المكان الذي يُخفي بين طياته مائتَي مليون فلورين من الذهب، فسوف أذهبُ معكِ إلى أي مكان.»

«أوه، نعم، ذكَّرتِني بشيء. لقد تحدثتُ إلى زوجي صباح اليوم، وسألتُه عما إذا كان يُمكنه تعيينُكِ كمُحقِّق خاص، وقال إنه سيكون من الصعب نوعًا ما تعيينُ امرأة في هذا المنصب. هل لديكِ أي اعتراضٍ على التنكُّر في هيئة شابٍّ لطيف يا جيني؟»

«أنا لا أُفضِّل ذلك كثيرًا؛ آمُل أنكِ لم تقترحي ذلك على الأمير.»

ضحكَت الأميرة بمرحٍ وهزَّت رأسَها.

«لا، لقد أخبرتُه أنني متأكدة من قدرتكِ على حلِّ اللغز أكثرَ من أي شخصٍ آخر، وذكَّرتُه بما فعلتِه في قضية الماس؛ فأكَّد لي زوجي أن لديه ثقةً كبيرة في قدراتكِ كمُحققة؛ لكنه يخشى أن ترفض السلطات هنا السماحَ لامرأةٍ بالاضطِلاع بأي دورٍ في عملية البحث. إذ إن لديهم أفكارًا مُتحفِّظة جدًّا بشأن النساء في النمسا، ويعتقدون أن مكان المرأة المناسب هو الإشراف على حفل شاي.»

قالت جيني بدهاء: «آهٍ لو يعلمون، فكم من أشياءَ مُذهلة يُمكن اكتشافُها أثناء حفل شاي.»

أجابت الأميرة: «معكِ كلُّ الحق، لكننا لا نستطيع الاستشهاد بهذا الحادث كتوصيةٍ إلى السلطات النمساوية. وبالمناسبة، هل لاحظتِ أنه ما من صحيفةٍ في فيينا ذكرَت كلمةً واحدة عن سرقة صندوق الحرب؟»

«لا بدَّ أن مُراسليهم قد أبلغوهم بالخبر من لندن عبر البرقيات، ومع ذلك فإنهم حتى لم يَنفوا الخبر، وهي الطريقة المعتادة لمواجهة الحقيقة.»

وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، جاءت رسالة من سموِّه يستأذنهما في مقاطعة حديثهما. وبعد لحظاتٍ قليلة، دخل الأمير نفسُه إلى الجناح وانحنى باحترامٍ شديد للسيدتَين.

وقال: «لقد نجحتُ، بما يتجاوز توقُّعاتي؛ إذ يبدو أن إحدى الصحف في لندن قد نشرت تقريرًا عن القضية، ورجال الشرطة، الذين كانوا في حيرةٍ من أمرهم ولا يدرون ماذا يفعلون، ازدادت حيرتهم وارتباكُهم الآن بعد أن نُشِرَ خبر السرقة على الملأ. بالمناسبة، كيف علمتِ بأمر هذه السرقة؟ في الواقع، لم يسترعِ الأمر انتباهي عندما تحدثتِ عن تعيين الآنسة باكستر هذا الصباح، لكني ظللتُ أتساءل منذ ذلك الحين.»

قالت الأميرة بعُجالة: «تلقَّت جيني برقية من لندن، قالت إن صندوق الحرب النمساوي قد سُرق وبه ما يقرُب من مائتَي مليون فلورين، لكن لا يُوجَد شيء عن الخبر في صُحف فيينا.»

أجاب الأمير: «بالفعل لا يُوجَد، ولا يُحتمَل أن يُنشَر شيء عن الأمر. إن السرقة معروفة الآن للعالَم بأسره باستثناء النمسا، وأتصوَّر أنه لن يُقال أيُّ شيء عنها هنا.»

سألت الأميرة ببراءة: «هل التقرير حقيقي إذن؟»

«حقيقي! إنه الحقيقة كاملة. وهذه هي المشكلة. ولا فائدة من إنكارِنا للأمر؛ لأنَّ من الواضح أن تلك الصحيفة اللندنية لديها معلومات مؤكَّدة. ولتكذيبِ الخبر علينا نشْر شيءٍ عن السرقة نفسِها، وهو ما لا نميل إلى القيام به. ومع ذلك، من المعروف مَنْ هما مراسِلا هذه الصحيفة اللندنية، وأعتقد أن الشرطة سوف تتعامَل مع هذين السيدَين الجليليْن على نحوٍ مُمتع للغاية، حتى إنهم سوف يُسعِدهم مغادرة فيينا، لبعض الوقت على الأقل. وبالطبع، لا يُمكن فعل أي شيءٍ علنًا؛ لأن الإنجليز يُثيرون حالةً من الضجة عندما يُعتدَى على حُرياتهم. وقد استُدرِج أحد المُراسِلَيْن الشابَّيْن عبر الحدود بواسطة برقية مُضلِّلة، وأعتقد أن السلطات ستعمل على ألا يعود سريعًا؛ والآخر نتوقَّع التخلُّص منه في وقتٍ قريب. وبالطبع، يُمكننا طردُه، ولكن إذا فعلْنا ذلك، سيَسُود الاعتقاد بأننا طردناه لأنه اكتشفَ حقيقة الانفجار.»

سألَت الأميرة: «وكيف علمتَ بالانفجار؟»

«أوه، لقد كنتُ أعلم كل شيءٍ عن هذه القضية منذ حدوثها.»

رمَقَت الأميرة جيني بنظرةٍ سريعة، وكأنها تقول لها: «ها هي الأخبار التي كنَّا نُريد معرفتها قابعة في عُقر دارنا، ولم نشكَّ في ذلك أبدًا.» صاحت الأميرة بسخط: «لماذا لم تُخبرني؟»

«حسنًا، يا عزيزتي، أنتِ لم تهتمِّي بالسياسة أبدًا، وظننتُ أن الأخبار لن تستهويَكِ على أية حال.» وأضاف بابتسامة: «وفوق ذلك، فقد تلقَّينا جميعًا تعليماتٍ بإبقاء الأمر طيَّ الكتمان قدْر الإمكان.»

صاحت الأميرة: «وقد تمكَّنتم من الحفاظ على السر ببراعة! هذا يُثبت عواقبَ ائتمان العديد من الرجال على سر؛ ها هو مُذاع في العالَم بأسره.»

«ليس كل العالَم يا عزيزتي. كما قلتُ، النمسا لن تعرف أيَّ شيءٍ بخصوص ذلك.»

قالت جيني: «لقد أخبرَتني الأميرة أنكَ تكرَّمت بمحاولةٍ لإعطائي تصريحًا لإجراء بعض التحقيقات حول هذا اللغز. فهل نجحت؟»

«أجل يا آنسة باكستر، كما قلتُ، لقد نجحتُ بما يتجاوز توقعاتي؛ إذ إن الاستعانة بمُحققة هي أمرٌ غير معهود في فيينا. ومع ذلك، فإن الحقيقة هي أن الشرطة مُشوَّشة الذهن تمامًا، وهم على استعدادٍ للترحيب بالمساعدة من أي جهة. وها هو تصريحٌ مكتوب من أعلى سلطة، ويجب ألا تستخدميه إلا في حالة الطوارئ. وهذا أيضًا تصريحٌ من رئيس الشرطة، سيفتح لكِ كلَّ الأبواب المُوصَدة في فيينا؛ وأخيرًا، هذه شارة يُمكنكِ تثبيتُها على جزءٍ غير واضح جدًّا من ملابسك. وهذه الشارة، كما فهمتُ، نادرًا ما تُمنَح لأحد؛ فهي تحمل شِقًّا مَدنيًّا وآخرَ عسكريًّا. يُمكنكِ إظهارُها لأي حارس، وبموجبها، سيمنحُكِ حقَّ المرور، وفي حال عدم قيامه بذلك، صعِّدي الأمر إلى رئيسه وأطلِعيه على تصريح الشرطة الذي في حوزتك. وإذا فشل ذلك، أظهري ورقتَكِ الرابحة، وهي هذه الوثيقة البالغة الأهمية. وقد أبدى رئيس الشرطة، وهو رجل بارعٌ للغاية، حرصَه الشديد على التعرُّف إليكِ قبل أن تَشرعي في التحقيق. وطلب مُقابلتكِ أولًا، لكنه اندهش عندما أخبرتُه أنكِ صديقةُ زوجتي، وتنزلين ضيفةً في منزلنا، فاقترح أنكِ على الأرجح سترغبين في رؤية مكان الانفجار أولًا، وطلب أن يأتيَ هنا مع عربته ويُرافِقَكِ إلى مبنى الخِزانة. ويُريد معرفة ما إذا كانت الساعة الرابعة بعد الظهر ستُناسبكِ!»

أجابت جيني: «نعم بالتأكيد! أنا مُتحمِّسة للبدء فورًا، وبالطبع سأكون مُمتنَّةً له كثيرًا إذا تكرَّم بمُرافقتي وإرشادي عبر مبنى الخزانة، وإطلاعي على المعلومات التي توصَّلوا إليها بالفعل.»

«يجب ألا تتوقَّعي الحصول على الكثير من المعلومات من الشرطة؛ ففي الواقع، أشكُّ في أنهم قد اكتشفوا أيَّ شيء. ومع ذلك، إذا كانت لديهم معلومات، فمن المُرجَّح أن يحتفظوا بها لأنفسهم، وأتصوَّر أنهم سيُراقبونكِ عن كثب، وسيكونون أكثرَ حرصًا على

معرفة ما اكتشفتِه، ومن ثمَّ يَنسِبون الفضلَ فيه لأنفسهم إذا استطاعوا، بدلًا من تزويدكِ بأي معلوماتٍ في حوزتهم عن القضية.»

«هذا أمرٌ طبيعي تمامًا، ومُتوقعٌ أيضًا. ومن جانبي، لا تُراوِدُني أية رغبة في سلْب السُّمعة والصِّيت الذي يُمكن للشرطة أن تحوزه جراء هذا التحقيق، وأنا على أتمِّ استعدادٍ لإعطائهم أيَّ أدلةٍ قد أُصادفها خلال البحث.»

«حسنًا، إذا تمكَّنتِ من إقناع رئيس الشرطة بذلك، فستحصُلين على كل المساعدة التي يُمكنه تقديمُها لكِ. ولن يكون من السيئ أن تُخبريه بأنكِ تُمارسين الأمر كهواية، وأنكِ لا ترغبين في سلب الشرطة مَجدَها فيما يتعلق بحلِّ القضية.» وفي تمام الساعة الرابعة وصل رئيسُ الشرطة إلى قصر شتاينهايمر. وهو رجل نبيل مُجامل ومتأنِّق للغاية، يرتدي الزيَّ الرسمي لشرطة فيينا، ولم يستطع إخفاء دهشته عندما عَلِمَ أن المُحقِّقة هي امرأة شابة وجميلة للغاية. وكان مُبتهجًا لأنه وجد نفسه في صحبة امرأةٍ جذابة للغاية، ومع ذلك كان من الواضح لجيني أنه لا يُعوِّل كثيرًا على المساعدة التي ربما يكون بوُسعها أن تُقدمها لحل لُغز الخِزانة. ورأت أنَّ هذا التوجُّه الذهني له مزاياه؛ إذ إن رئيس الشرطة سيكون أقلَّ تحفُّظًا عند تقديم التفاصيل الكاملة لما أنجزته الشرطة بالفعل.

ومن ثمَّ رافقَت جيني رئيسَ الشرطة إلى الركام الهائل من المباني التي تُشكِّل الخزانةُ جزءًا منها. وتوقفت العربة عند المَدْخل، ونزلَت برفقة رئيس الشرطة، ودخلا إلى المبنى الضخم مُتقدِّمًا إيَّاها، ثم نزلا سُلَّمًا، ودخلا ممرًّا مُقبَّبًا، وقفَ عند بابه جنديَّان للحراسة، وقد ألقَيَا التحية عند مرور رئيس الشرطة عليهما.

سألت جيني: «هل يقودنا هذا إلى الغرفة التي وقع فيها الانفجار؟»

«أجل.»

«وهل هذا هو المَدْخل الوحيد؟»

«أجل هو المَدْخل الوحيد يا سيدتي.»

«هل أُصيبَ رجال الحراسة في هذا المَدْخل جرَّاء الانفجار؟»

«أجل. إصاباتهم ليست بالخطيرة، لكنهم لن يتمكَّنوا من أداء واجباتهم لفترةٍ من الوقت.»

«إذن من المُحتمَل أنَّ شخصًا قد لاذ بالفرار دون أن يرَوه؟»

«من المُحتمَل أن فرقةً بأكملها من الأشخاص قد لاذت بالفرار. ستفهمين الموقف بالضبط إذا قارنتِ هذا الممر بمدفعٍ طويل، والغرفة في نهاية الممر هي غرفة التلقيم.

كان هناك حارسان داخل الغرفة، ووقف اثنان آخران خارج الباب المُتصِل بهذا الممر. وقد لقيَ هؤلاء الرجالُ الأربعة حتفَهم على الفور. ولم يُعثَر على أي أثرٍ للحرَّاس داخلَ الغرفة. أما الباب، وهو أحد أقوى الأبواب التي يُمكن صُنعها، والذي يُشبه إلى حدٍّ ما بابَ خزانة، فقد قُذِفَ إلى الخارج، ومن ثمَّ سحقَ الحارسَين اللذين كانا يقفان خارجَه في الممر، فجعلهما وأرضية الحجرة سواءً. وفي الحيز ما بين الحُجرة التي يُوجَد فيها الصندوق والمَدْخل الخارجي كان هناك ستةَ عشر رجلًا في مُناوَبة الحراسة. قُذِفَ كل واحدٍ من هؤلاء أرضًا، جرَّاء الانفجار، إذا جاز لي أن أُسمِّيَه كذلك، فانطلق عبر هذا الممر المُستقيم مثل شحنة ذخيرة تنطلق عبر فوهة المدفع إلى الخارج. وبطبيعة الحال، أُصيبَ الحرَّاس الأقرب إلى غرفة الصندوق بإصاباتٍ خطيرة، ولم يُفلِت مَنْ كانوا في الخارج من الصدمة. وعلى الرغم من أن الباب الذي دخلْنا منه إلى هذا الممر لم ينفجر مُنفصلًا عن مفصلاته، فقد فُتِحَ بعُنف. وتكسَّرت البراغي مثل أعواد الثقاب. ولذا، عندما ترين المسافة الكبيرة التي تتوسَّط ما بين الغرفة وهذا الباب، سيكون في استطاعتكِ تصوُّر قوة الانفجار.»

«إذن لا يوجد مَخْرج من غرفة الخزانة إلا عبر هذا الممر؟»

«نعم، يا سيدتي. فالجدران الموجودة خارج الغرفة ذات قوةٍ هائلة؛ إذ كان من المُتوقَّع بالطبع أنه إذا حدثت محاولة سرقة، فستكون من الخارج، ومن النادر أن يتمكن حتى أكثرُ اللصوص خبرة من اجتياز حارسَيْن عند الباب، وستة عشر ضابطًا وجنديًّا على طول الممر، واثنين خارج باب الخزانة، واثنين في غرفة الخِزانة نفسِها. لقد وُضِعَ هذا العدد الكبير من الجنود هنا حتى تُصبح أي محاولةٍ للرشوة مُستحيلة. ومن المؤكَّد أنه يُوجَد بين هذا العدد واحد أو اثنان لا يرضخ للفساد، كما أن الحرَّاس يتغيرون باستمرار. ونادرًا ما يُوضَع ضابط أو جندي مرتَيْن في الخدمة هنا خلال الشهر الواحد. مع وجود مثل هذا المبلغ الضخم على المحك، فقد اتُّخِذَت كل الاحتياطات الواجبة.»

«هل تُوجَد أي غرف على يمين هذا الممر أو يساره، يمكن أن يكون اللصوص قد اختبَئوا فيها أثناء تفجير اللَّغَم؟»

«لا، الممر يُؤدي إلى غرفة الخزانة وحدَها.»

قالت جيني: «إذن، لا أستطيع أن أفهم كيف تمكَّن عدد من الرجال من تدمير غرفة الخزانة، وسرقةِ محتوياتها، واللَّوذ بالفرار، في ظل الظروف الموجودة هنا.»

«ومع ذلك، سيدتي الشابة، فقد سُرِقت الخزانة. ونعتقد أن اللغم قد زُرِعَ بالتواطؤ مع ضابط أو أكثر ممَّن في مناوبة الحراسة هنا. فالمبلغ المسروق هنا ضخمٌ للغاية، لدرجة أن حصةً منه من شأنها أن تكون مصدر إغراءٍ لأيٍّ تسعة أشخاص من بين كل عشرة. في رأينا أنَّ اللغم قد زُرِعَ، وربما استُخدِمت أسلاك كهربائية، وهو أمر لن يُلاحظه أحد، على طول حافة الممر، وأنَّ الضابط المُرتشي قد فجَّر الديناميت عن طريق توصيل طَرفَي الأسلاك. ونعتقد أن الانفجار كان أشدَّ بكثيرٍ مما هو مُتوقَّع. وعلى الأرجح، كان من المتوقع أن تُؤدي الصدمة إلى إحداث فتحةٍ في غرفة الخزانة ومنها إلى الشارع، ولكن الجدران قوية للغاية، لدرجة أنه لم يترك أيَّ أثر عليها، وكان هناك سائقُ عربةٍ قد مرَّ بالمصادفة في ذلك الوقت، ولكنه لم يسمع شيئًا من صوت الانفجار، على الرغم من أنه شعر باهتزاز الأرض، واعتقد للحظةٍ أنها كانت هزَّة أرضية.»

«هل تعتقد، إذن، أن اللصوص كانوا في الخارج؟»

«يبدو أن هذا هو الرأي الوحيد الذي يمكن الاعتداد به.»

«لقد كانت الأبواب الخارجية مُوصَدة بإحكام، أليس كذلك؟»

«نعم، بالتأكيد، ولكن إذا افترضنا أنَّ لديهم شريكًا أو اثنين في الرَّدهة الكبيرة بالطابق العلوي، فقد تأكَّد هؤلاء الخونة من أنهم لن يجدوا مشكلة في الدخول. وبمجرد دخول الرَّدهة الكبيرة، مع الحرَّاس المذهولين من وَقْع الصدمة، فإن الطريق إلى غرفة الخزانة يُصبح مُمهَّدًا تمامًا.»

«كان هناك حرَّاس خارج المبنى، أليس كذلك؟»

«أجل.»

«هل رأَوا أي مَركبةٍ تسير بالقُرب من الخزانة؟»

«لا، باستثناء العربة التي أخبرتُكِ عنها، وقد قدَّم السائق تبريرًا مُرضيًا لسبب مروره في ذلك التوقيت في تلك الليلة. إنَّ عدم وجود وسيلة نقل في هذه الجريمة هو أغربُ ما فيها. وعلاوة على ذلك، فإن الحرَّاس، على الرغم من أنهم كانوا يَجُوبون الأرجاء خارج جدران هذا المبنى، لم يسمعوا شيئًا من الانفجار بخلاف دَمدَمَةٍ منخفضة، وأولئك الذين جال بخاطرهم احتمالُ كونه انفجارًا تخيَّلوا أنه انفجار وقعَ في جانبٍ بعيد من المدينة.»

«إذن لم تنفتح الأبواب الخارجية في الرَّدهة الكبيرة بالأعلى على أثر الانفجار؟»

«لا؛ أفادَ الضابط المسئول أنها كانت مُوصَدة بإحكام عندما فحَصَها، وذلك بعد بضع دقائق بالطبع بعد وقوع الكارثة؛ إذ كان قد طُرِحَ أرضًا وهو مشدوه، على ما يبدو، جرَّاء ارتجاج الهواء الذي حدث.»

وبينما كانت جيني تسير في الممر، رأتِ المزيدَ والمزيد من شواهد الاختلاج. كان البابُ السميك المُصفَّح بالحديد مُلقًى في موقع سقوطه، ولم يُنقَل منذ أن رُفِعَ لسَحْب الجنديَّين الراقدَين تحته. وقد انثنَت مفصلاته الضخمة كما لو كانت مصنوعةً من الصمغ، وكُسِرَت براغيها الضخمة مثل شظايا الزجاج. وعلى طول أرضية الممر كانت هناك طبقةٌ سميكة من الغبار والركام، المسحوق تمامًا، والتي يزداد سُمكها فتُصبح أعمقَ وأعمق كلما تقدَّمَا إلى الأمام حتى وصلا إلى مَدْخَل الغرفة. ولم تكن هناك أيُّ نافذةٍ في الممر أو الغرفة، ولم يكن يُضيءُ الطريقَ سِوى وَهَج الشموع التي حَمَلها الجنود المُرافقون لهم. وانسحقت مُخلَّفات الانفجار تحت أقدامهم أثناء السير مُحدِثةً صوتًا كالقرقشة، وفي داخل الغرفة نفسِها تراكمت أكوامٌ كبيرة من الغبار والرمل والجَصِّ، وكلُّها مسحوقة إلى جزيئاتٍ دقيقة، مُلقاة في أركان الغرفة، ومكدَّسة على جانب واحد وتفُوق في ارتفاعها رأسَ رجُل. بدا أن هناك أطنانًا من هذا الركام، وبينما نظرت جيني إلى السقف المُقوَّس، الذي يُشبه سقف زنزانةٍ مُقبَّبة، رأتْ أنَّ الحجارة نفسها قد طُحِنَت وتحوَّلت إلى غبارٍ ناعم بفِعل قوة الانفجار الهائلة.

ومن ثمَّ سألت: «أين بقايا صندوق الخزانة؟»

هزَّ رئيسُ الشرطة رأسَه وهو يقول: «لا تُوجَد بقايا. لم يُعثَر على أي أثرٍ لها.»

«ما هي المادة التي صُنِعَ منها؟»

«كان لدينا هنا صندوق خِزانة قديمٌ مصنوع من خشب البلُّوط ومُصفَّد بالحديد. ولكن منذ بضع سنواتٍ، دعت الحاجة إلى جلب صندوقٍ جديد، فصنعْنا واحدًا مخصوصًا من الفولاذ المُقوَّى، طبقًا للمواصفات الحديثة لتلك الخزائن المُقاوِمة للسرقة والحريق.»

«هل تقصد أن تقول إنه لم يبقَ شيءٌ من هذا؟»

«لم نتمكَّن من اكتشاف شيءٍ على الإطلاق.»

«حسنًا، لقد رأيتُ أماكن حدثت فيها انفجارات بالديناميت، لكنني لم أُصادف شيئًا يُمكن مقارنته بهذا. أنا متأكدة أننا إذا افترضْنا استخدام الديناميت، أو أيٍّ من المتفجرات الأخرى المتاحة الآن على نطاقٍ واسع، لكُنَّا عثرنا — على أقل تقدير — على شيءٍ من بقايا الخزينة. ألم تُزحزَح هذه الكومة من الركام منذ الانفجار؟»

«أجل، لقد فُحِصَت من جنبٍ إلى آخر؛ حيث بحثْنا عن الجندِيَّين، لكننا لم نعثُر على أيِّ أثر لهما.»

«ألم تجدوا أيَّ شظايا من الحديد أو الفولاذ؟»

«إنَّ الكومة بكاملها، كما ترَينها على السطح، عبارة عن غبار ناعم للغاية، يكاد لا يُدرَك باللمس. كان علينا أن نتوخَّى أقصى درجات الحرص أثناء التفتيش فيها؛ إذ إنها في اللحظة التي حُرِّكَت فيها بواسطة مِجْرَفة ملأَت الهواءَ بغيومٍ خانقة. وكان ينبغي بالطبع أن نُزيلها في الحال، ولكنني رأيتُ أنَّ من الأفضل ترْكها هنا حتى نُحرِز تقدُّمًا أكثرَ نوعًا ما في حل هذا اللغز عمَّا أنجزناه حتى الآن.»

انحنت جيني والتقطت حفْنةً من الكومة، وتسبَّب ذلك في ارتفاع رذاذٍ دقيق في الهواء جعلهما يختنقان ويسعلان، ومع ذلك فقد استرعى انتباهها على الفور حقيقةُ أن حفنتَها بدت ثقيلةً على نحوٍ غير عادي مقارنةً بحجمها.

وسألت: «هل يُمكنني أخذُ بعضٍ من هذا معي؟»

أجاب رئيس الشرطة: «بالطبع، سوف أحصل لكِ على عبوة منها.»

قالت جيني: «أودُّ أن آخُذها معي الآن؛ إذ إنَّ لديَّ فضولًا لمعرفة محتوياتها بالضبط. مَن هو المُحلِّل الحكومي؟ أو هل لديكَ موظفٌ يحمل هذا المُسمَّى من الأساس؟»

«إنه السيد فيلتز، في جراوبن شتراسا، وهو كيميائي تحليلي مشهور، ومن ثمَّ فإنه أفضلُ مَنْ يُمكنكِ الاستعانةُ بهم.»

«هل تعتقد أنه يعرف أيَّ شيء عن المتفجرات؟»

«أظنُّ ذلك، ولكن إذا لم يكن يعرف، فسيكون في مقدوره بالتأكيد أن يَدُلَّكِ على أفضل رجالٍ في هذا المجال.»

أمر رئيس الشرطة أحد الجنود المُرافقين له بإحضار كيسٍ ورقي صغير ومَلئِه ببعض الغبار من حجرة الخزانة. وعندما فرَغ من ذلك، سلَّم العبوة إلى جيني، التي قالت: «سأذهب فورًا لمقابلة السيد فيلتز.»

«عرَبتي تحت تصرُّفكِ يا سيدتي.»

«أوه، لا، شكرًا لك، لا أُريد أن أُزعجك أكثرَ من ذلك. أنا مُمتَنَّة جدًّا لك أن سمحتَ لي بكل هذا القدْر من وقتك. سآخُذ عربة أجرة صغيرة.»

قال رئيس الشرطة بإصرار: «عربتي عند الباب، وسأُصدِر تعليماتٍ إلى السائق ليأخذَكِ مباشرةً إلى متجر السيد فيلتز؛ وهكذا لن يُهدَر الوقت، وأعتقدُ أنني إذا ذهبتُ معكِ، فسوف تتأكَّدين أكثر من أنكِ ستحظَين باهتمام الكيميائي، الذي هو رجلٌ مشغولٌ للغاية.»

أدركَت جيني أن رئيس الشرطة لا يريد أن يتركها تغيب عن عينَيه، وعلى الرغم من ابتسامتها في مواجهة شكوكه، ردَّت بأدب:

«إنَّه كَرَم منك أن تتحمَّل الكثير من المتاعب وتُخصِّص الكثير من وقتك لي. تُسعدني رفقتك إذا كنتَ متأكدًا تمامًا من أنني لن أُعطِّلكَ عن شيءٍ أكثر أهمية.»

ردَّ رئيس الشرطة بجِديَّة: «لا شيءَ أكثر أهمية من التحقيق الذي نحن بصدده.»

الفصل الخامس عشر

جيني تُهْدي معلوماتٍ إلى رئيس الشرطة

بعد دقائقَ قليلة من مغادرة مبنى الخِزانة، توقفَت عربة رئيس الشرطة أمام متجر السيد فيلتز في شارع جراوبن شتراسا الواسع. وانتظرَهما الكيميائيُّ المُخضرم بنفسه، وقادهما إلى غرفةٍ داخلية خاصة.

قالت جيني وهي تُعطي الكيميائي الكيسَ الورقيَّ المملوء بالغبار: «سأكون مُمتنَّةً لك إذا أخبرتني بمكونات الخليط الموجود في هذه العبوة.»

سألها الكيميائي: «متى ترغبين في معرفة النتيجة؟»

أجابت جيني: «في أقرب وقتٍ ممكن.»

«هل يُمكن أن تُمهليني حتى الغد في مثل هذا التوقيت؟»

ردَّت جيني، وهي تنظر إلى رئيس الشرطة، الذي أومأ برأسه: «إنه توقيت مناسب للغاية.»

ومِن ثمَّ غادر الاثنان، ومرةً أخرى اصطحب رئيس الشرطة الفتاة في عربته، وتوجَّها إلى قصر شتاينهايمر. وهنا شكرته مرةً أخرى بحرارة على الاهتمام بأمرها طوال اليوم، فأجاب رئيس الشرطة بلطفٍ، لا يختلف عما كان منها من الشكر والامتنان، بأنه كان من دواعي سروره أن يكون مُرشِدَها في هذه القضية، وطلب منها السماح له بالمجيء في الساعة نفسِها من عصر اليوم التالي واصطحابها إلى الكيميائي، فوافقَت جيني على هذا، وودَّعَته مبتهجةً، وتمنَّت له قضاء أمسيةٍ سعيدة. وكانت الأميرة تنتظرها بفضولٍ طاغٍ لمعرفة ما حدث.

وصاحت الأميرة: «أخبريني يا جيني! مَن الذي فجَّر اللَّغَم، ومَن سرق الحكومة؟»

ضحكت جيني بمرح وهي تقول:

«أيَّتها الأميرة العزيزة، يا لها من مُجاملة! هل تظنين أنه خلال ظهيرة يومٍ واحد يُمكنني حلُّ لغزٍ تحدَّى قرائح أفضل المُحققين في النمسا مجتمعةً؟ أتمنَّى أن يثق بي رئيس الشرطة مثل ثقتكِ بي.»

«أوَلا يثقُ بكِ يا جيني؟»

«في الواقع، لا. ظلَّ يُراقبني في كل لحظةٍ كان فيها معي، كما لو كان يخشى أن أذهب أدراجَ الرياح، وأختفيَ مثلما اختفى الصندوق.»

«يا له من رجلٍ فظيع. سأجعل زوجي يتحدَّث إليه ويُخلِّصكِ من هذا الإزعاج.»

«بالعكس، لا تفعلي هذا أيَّتها الأميرة. لا أمانع في وجوده معي إطلاقًا. في الواقع، إنه يُسَلِّيني. ومَن يدري؟ لعلَّ الرجل يُساوره الشكُّ في أني مَن سرق المال.»

«كلمة واحدة من الأمير ستضع حدًّا لكل ذلك، كما تعلمين.»

«نعم أعلم. لكنني أريد حقًّا أن أُساعد رئيس الشرطة؛ فهو غبي للغاية.»

«والآن يا جيني، اخلعي قُبعتكِ واجلسي هنا، وأخبريني بكل ما فعلتِه اليوم. ألا ترين الفضول يكاد يقتلني؟ أعلمُ أنكِ قد اكتشفتِ شيئًا. فما هو؟»

«لن أخلع قبعتي؛ لأنني سأخرج حالًا مرةً أخرى؛ ولكن، إذا كنتِ تُحبينني، فلتأمُري لي بكوبٍ من الشاي اللذيذ.»

«سأطلبه لكِ في الحال، لكن العشاء سيُقدَّم بعد قليل، ولن تخرجي وحدكِ الليلة بالتأكيد، أليس كذلك؟»

«لا بدَّ حتمًا أن أخرج الليلة. ولا تنسَي أنني قد اعتدتُ الاعتناءَ بنفسي في مدينةٍ أكبر من مدينة فيينا، وسأكون آمنةً تمامًا. وأرجو أن تقبلي اعتذاري عن عدم جلوسي إلى مائدة العشاء الليلة.»

«هذا كلام غير مقبول يا جيني! لا يُمكنني السماحُ لكِ بالتجوُّل في فيينا بهذه الطريقة البوهيمية.»

«إذن أيَّتها الأميرة، لا مفرَّ من الانتقال للإقامة في فندق، إذ لا يُمكنني الاستغناء عن هذه الجولة التفقُّدية، ولا أريد أن أُسيء إلى سُمعة قصر شتاينهايمر.»

«جيني، سأُخبركِ ماذا سنفعل؛ كلانا سنُسيء إلى سُمعة القصر، فالأمير سيتناول العشاء الليلة في النادي مع بعض الأصدقاء، ولذا سأطلب العربة، وسنتجوَّل أنا وأنتِ معًا. ستدَعيني آتي معكِ؛ أليس كذلك؟ إلى أين ستذهبين؟»

«أنا ذاهبة إلى شارع جراوبن شتراسا لمقابلة السيد فيلتز.»

«يا للمصادفة، أنا أعرفُ السيد فيلتز ذلك الرجل العجوز الطيب؛ سوف يفعل أيَّ شيءٍ من أجلي. إذا كنتِ تُريدين من السيد فيلتز أن يُسديَ إليكِ صنيعًا، فمن الأفضل أن تأخُذيني معكِ.»

«يُسعدني هذا. آه، ها قد جاء الشاي! ولكن ما الحاجة إلى طلب العربة؟ يُمكننا السير إلى هناك في غضون بضع دقائق.»

«أعتقد أنَّه من الأفضل أن نستقلَّ العربة. سيغضب الأمير كثيرًا إذا علم أننا تجوَّلنا في شوارع فيينا ليلًا؛ ولذا يا جيني، علينا أنْ نُولِيَ بعض الاحترام للتقاليد ونستقلَّ العربة. والآن، أخبريني أين كنتِ، وماذا رأيتِ، وكل ما جرى.» وبينما هما يحتسِيان الشايَ الذي استغرق تحضيرُه بعض الوقت، روَت جيني لها كلَّ ما حدث.

«وما الذي تتوقَّعين أن تعرفيه من تحليل الكيميائي يا جيني؟»

«أتوقَّع أن أعرف شيئًا سيُذهل رئيس الشرطة.»

«وما هو ذلك الشيء يا جيني؟ لا تُقلقيني بهذه الطريقة الاستفزازية. كيف يُمكنكِ التصرُّف هكذا؟ سأكتبُ إلى اللورد دونال وأُخبره أنكِ هنا في فيينا، إذا لم تُمانعي.»

«حسنًا، في ظل هذا التهديد الرهيب، لا مفرَّ من البوح بكل ما يجُول في خاطري من شكوك؛ لكنني في الحقيقة لا أعرفُ أيَّ شيءٍ حتى الآن، فما يُساورني هو مجرد شكوك. لقد بدا من وزن ذلك الغبار عندما أخذتُ حفنةً منه أنَّ الذهب لا يزال موجودًا في كومة الركام.»

«أتدرين ما تقولينه؟! إذن لم يكن هناك أيُّ سطوٍ على الإطلاق؟»

«ربما كانت هناك عملية سطو مُخطَّط لها، لكنني أعتقد أنه ما من لصٍّ قد استحوذ على أي جزءٍ من الذهب. الاحتمالات المطروحة هنا أنهم استهانوا تمامًا بقوة المُتفجِّرات التي استخدموها؛ لأنهم — ما لم أكن مُخطئة للغاية — استخدموا مادةً أقوى مائةَ مرة من الديناميت.»

«وهل سيُظهر التحليل الكيميائي نوعَ المتفجرات المُستخدَمة؟»

«لا؛ سيُظهِر فقط مُكوِّنات الركام. وسوف يحسم مسألةَ ما إذا كان الذهب قد تحوَّل إلى ذرَّات دقيقة داخل كومة الغبار أم لا. وإذا كان الأمر كذلك، فأعتقد أن الحكومة ستدين لي بالشكر؛ لأن رئيس الشرطة تحدَّث عن نقل الركام وإلقائه بعيدًا عن الأنظار في

مكانٍ ما. وإذا استعادت الحكومةُ ذهبها، فإنني أتصوَّر أن مسألة تحديد هُوية مَن فجَّر اللغم ستفقد أهميتها، وستغدو مجرد شكلياتٍ.»

دخلَت إحدى الخادمات وقالت للأميرة: «العربة في انتظاركِ يا صاحبة السمو.» فقفزت في الحال، وقالت:

«سأُصبح جاهزةً في غضون خمس دقائق. إنني مُتشوِّقة مثلكِ تمامًا لسماع ما سيقوله الكيميائي؛ لكني أظنُّ أنكِ أخبرتِني أنه لن يفرغ من التحليل قبل الساعة الرابعة من عصر الغد. فما فائدة الذَّهاب إلى هناك ليلًا؟»

«لأني على يقينٍ بأن رئيس الشرطة سيذهب إلى هناك في وقتٍ مُبكِّر من صباح الغد؛ ولهذا أريد أن أحصل على النسخة الأولى من التحليل بنفسي.»

ذهبَت الأميرة إلى غُرفتها مُسرِعة ثم عادت وهي في كامل هيئتها استعدادًا للخروج. وتوجَّهتا إلى متجر السيد فيلتز في شارع جراوبن شتراسا، ولكن هناك جاء مَن أبلغَهما أن الكيميائي لا يُمكن مُقابلته بأي حالٍ من الأحوال؛ إذ إنه ترك أوامر بعدم إزعاجه.

فقالت الأميرة: «تجاهَل هذه الأوامرَ وأعطِه هذا الكارت.»

نظر الرجل إلى الكارت فتبدَّدَت شكوكه، وأسرع لإبلاغ سيده.

فهمسَت الأميرة لرفيقتها: «لا بدَّ أنه مشغول بالعمل على التحليل الآن، أؤكِّد لكِ هذا.» وبعد وقتٍ قصير ظهر السيد فيلتز بنفسه. واستقبل الأميرةَ بحفاوةٍ بالغة، لكنه بدا مُندهشًا من رؤية الفتاة التي قابلَتْه قبل ساعاتٍ قليلة مع رئيس الشرطة في رفقتها.

قالت جيني: «أردتُ أن أطلب منكَ إنهاء العمل على التحليل قبل الساعة الرابعة عصر الغد. وأظنُّ أن ذلك ممكن؟»

ابتسم رجل العِلم ونظر إليها برهةً لكنه لم يرُد. فقالت الأميرة: «ستُسْدي خدمةً إلى صديقتِك إن أنتَ فعلتَ ذلك، وآمُل أن تفعل.»

أجاب الكيميائي ببطءٍ: «يُسعدني أن أُسديَ خدمةً لأي صديق من طرف صاحبة السمو، لكن يُؤسفني أن هذه المرة لديَّ أوامرُ من جهةٍ سيادية لا يُمكن مُخالفتها.»

سألتْه الأميرة: «ما هذه الأوامر؟»

«لقد وعدتُ بإنهاء التحليل في الساعة الرابعة من عصر الغد، وفي ذلك الموعد سيُصبح جاهزًا، وتستطيع السيدة الشابة الاطلاعَ عليه. وقد أُمِرت بعدَم إظهار التحليل لأي شخصٍ قبل ذلك الوقت.»

«على ما أظنُّ أن هذه الأوامر من رئيس الشرطة، أليس كذلك؟» فانحنى الكيميائي دون أن يتفوَّه بكلمة.

«لقد فهمتُ ما حدث يا جيني؛ لقد جاء إلى هنا بعد توصيلكِ إلى المنزل مباشرةً. أظنُّ أنه أتى إليكَ مرةً أخرى في غضون ساعة من مغادرته مع هذه السيدة الشابة، أليس كذلك يا سيد فيلتز؟»

«سموك تُوقِعينني في حرجٍ بطرح أسئلةٍ تعهَّدتُ ألا أجيبَ عنها.»

«هل انتهيتَ من التحليل؟»

«هذا سؤالٌ آخرُ أتمنَّى من كل قلبي ألا تطرحيه يا صاحبة السمو.»

«حسنًا يا سيد فيلتز، سأطرح عليك سؤالًا أو سؤالَين لن تشعُر تجاههما بأيِّ حرج. لقد أخبرتُ صديقتي هنا أنكَ ستفعل أيَّ شيءٍ من أجلي، لكنني كنتُ مخطئة.»

أشاحَ الكيميائي بيدَيه مُستنكرًا ثم مَدَّهُمَا في إشارةٍ إلى أنه مغلوبٌ على أمره. كان من الواضح أن سوء تصرُّفه كان سببًا في شعوره بندمٍ شديد. وكان على وشك أن يتحدَّث، لكن الأميرة قالت باندفاع:

«هل رئيس الشرطة صديق لك يا سيد فيلتز؟ أنا لا أقصد مجرد صديقٍ رسمي ولكن صديق شخصي.»

«لقد أسدى لي العديد من الخدمات يا صاحبة السمو، فضلًا عن أنَّني مثلي مثل أي مواطن آخرَ في فيينا ليس أمامي خيارٌ آخر سوى الرضوخ لأوامره.»

تابعت الأميرة وقد بدا واضحًا أنها استشاطت غضبًا من هذه المعارضة غير المتوقَّعة: «ما أريد أن أعرفه هو إذا كنتَ تتمنَّى للرجل الخير أم لا؟»

«أتمنَّى له الخير بالتأكيد يا صاحبة السمو.»

«في هذه الحالة، اعلم أنه إذا غادرَت صديقتي هذا المكان دون الاطلاع على نتائج تحليل المواد التي أحضرَتْها إليك، فسيُفصَل رئيس الشرطة من الخدمة غدًا. وإذا كان لديك شكٌّ أن في استطاعتي التأثيرَ على زوجي لتنفيذ هذا الأمر، فجرِّب أن تُخرِجنا من هنا دون أن تُلبِّيَ طلبنا.»

طأطأ الرجل العجوز رأسه الذي يعلوه الشَّيب.

وقال: «يا صاحبة السمو، سأتحمَّل مسئولية عدم الانصياع لأوامر رئيس الشرطة. اسمحي لي بلحظة.»

ثم دخل إلى مَعمله، وعاد يحمل ورقةً في يده.

وقال مُخاطبًا جيني: «ينبغي أن يكون مفهومًا أن التحليل قد انتهى على نحوٍ تقريبي. كنتُ أنوي التفرُّغ هذه الليلةَ لمراجعته بدقة.»

قالت جيني: «كل ما أريده في الوقت الحالي هو تحليل تقريبي.»

قال الكيميائي وهو يُناولها الورقة: «ها هو ذا.» فقرأت جيني محتواها:

كالسيوم	٢٩
حديد	٤
كوارتز	
فلسبار	٢٧
ميكا	
ذهب	$\frac{1}{2}$٣٦
آثار لمواد أخرى	$\frac{1}{2}$٣
المجموع	١٠٠

لمعَت عينا جيني وهي تنظر إلى الأرقام التي أمامها. ثم ناولت الورقة للأميرة قائلة: «انظُري، لقد كنتُ مُحقةً في تخميني. إنَّ أكثر من ثلث تلك الكومة من الذهب الخالص.»

قال الكيميائي: «يجب أن أشرح، لقد جمعتُ الكوارتز والفلسبار والميكا معًا، دون كتابة النِّسَب الخاصة بكلٍّ منها على حِدَة؛ لأنَّ من المعروف بالطبع أن الثلاثة معًا تُمثل الجرانيت.»

قالت جيني: «أتفهَّم ذلك؛ لأن الجدران والسقف من الجرانيت.»

وتابع الكيميائي: «أودُّ أن أُضيف كذلك أنني لم أُصادف من قبلُ عينةً من الذهب المسحوق بهذه النعومة.»

«هل فصلتَ الذهب عن المكوِّنات الأخرى؟»

«نعم يا سيدتي.»

«سآخُذها معي، إذا سمحت.»

وبعد فترةٍ وجيزة أحضر لها الكيميائي المكوِّنات في زجاجاتٍ صغيرة مكتوب على كلٍّ منها اسم ما تحتويه.

«هل لديكَ أي فكرة يا سيد فيلتز، ما نوع المتفجرات التي يُمكنها تحويلُ الذهب إلى مسحوق ناعم مثل هذا؟»

«ليس لديَّ سوى معرفةٍ نظرية بالمتفجرات، ولا أعلم أي مادةٍ يُمكن أن تُؤدي إلى مثل هذه النتائج التي لدَينا هنا. ربما يُمكن للبروفيسور كارل سيجفريد أن يُفيدكِ بخصوص هذه النقطة؛ فهو أمضى حياته في دراسة علم المتفجرات، وهو أكثر العلماء نبوغًا في هذا المجال.»

«هل يُمكنكَ أن تُعطيَني عنوانه؟»

كتب الكيميائيُّ العنوانَ على ورقةٍ وسلَّمه إلى الفتاة.

«هل تعرف ما إذا كان البروفيسور سيجفريد قد استُدعي هو أو أيٌّ من مُساعديه أثناء هذا التحقيق؟»

«أيُّ تحقيق يا سيدتي؟»

«التحقيق في الانفجار المروِّع الذي وقع مؤخرًا.»

أجاب الكيميائي باندهاش: «لم أسمع أخبارًا عن أي انفجار.»

وعندئذٍ تذكَّرَت جيني أنَّ تفاصيل الكارثة التي وقعت في الخِزانة باتت معروفةً للعالَم بأسره خارج النمسا، دون أن يدري أهلُ فيينا بأي أخبارٍ عنها.

وتابع الكيميائي مُلاحِظًا تردُّد جيني: «إنَّ البروفيسور ليس رجلًا عمَليًّا، لكنه مُتعمِّق في دراسة كل ما يتعلق بمجاله، وقد حقَّق بعض الاكتشافات العظيمة في مجال العلوم البحتة، لكنه لم يُقدِّم سوى القليل فيما يخصُّ تطبيق معرفته في أي غرضٍ مفيد لحياة الناس اليومية. إذا قابلتِه ستجدينَه حالِمًا ومُنظِّرًا، ولكن إذا نجَحتِ في إثارة اهتمامه تجاه أي مسألة، فسوف يُلاحقها حتى النهاية بغضِّ النظر تمامًا عن الوقت الذي سيستغرقه في ذلك أو أينما استدعاه الأمر؛ تلبيةً لنداءِ الواجب.»

قالت جيني بأسلوبٍ حاسم: «إنه إذن الرجل الذي أرغب في مقابلته.» ومِن ثمَّ غادرتا متجر الكيميائي، واستقلَّتا العربة مرةً أخرى.

قالت جيني: «أريدُ الذَّهاب إلى مكانٍ آخر قبل فوات الأوان.»

صاحَت الأميرة: «يا إلهي! أنتِ بالتأكيد لا تنوين مقابلة البروفيسور سيجفريد الليلة؟»

«لا؛ لكنني أريد أن أذهب إلى مكتب رئيس الشرطة.»

قالت الأميرة: «حسنًا، لن يستغرق هذا وقتًا طويلًا.» توجَّه بهم السائق إلى المَدْخل الليلي لمركز الشرطة الرئيسي بجوار هوهنشتاوفنجاسا. تركَت جيني الأميرة في العربة، ثم ذهبت وحدَها للتحدُّث إلى الضابط المسئول.

وقالت: «أُريد أن أُقابل رئيس الشرطة.»

«لن يحضر إلى هنا قبل صباح الغد. إنه الآن في منزله. هل لديكِ أمر مُهم تَودِّين إبلاغه به؟»

«أجل، وما عُنوان منزله؟»

«إذا تلطَّفتِ وأخبرتِني بمشكلتكِ يا سيدتي، فسيكون من دواعي سرورنا أن نُعاونكِ في حلها دون إزعاج السيد رئيس الشرطة.»

«يجب أن أُقابل رئيس الشرطة شخصيًّا. إن الأميرة فون شتاينهايمر في عربتها بالخارج، ولا أريد أن أجعلها تنتظر.» وبمجرد أن جاءت على ذكر الأميرة، انتبه الضابط وأصبح مُهذبًا للغاية.

«سأتصل برئيس الشرطة في الحال، وسيُسعده استقبالُكِ للغاية.»

«مهلًا، هل لديك هاتفٌ هنا؟ وهل يُمكنني التحدُّث إليه بنفسي دون أن يسمع أحدٌ حواري معه؟»

«بالتأكيد يا سيدتي. إذا دخلتِ هذه الغرفة معي، فسأتصل به وأتركِكِ تتحدَّثين إليه.»

وهذا ما كان بالفعل، وعندما جاءها صوت رئيس الشرطة على الجانب الآخر من الهاتف، عرَّفته جيني بنفسها قائلة:

«أنا الآنسة باكستر التي تكرَّمتَ بمُرافقتِها لمبنى الخِزانة ظهيرة اليوم.»

أجاب المدير: «أجل، أتذكرُكِ؛ أعتقد أننا أرجأنا التحقيق إلى الغد.»

«نعم، هذا ما كان مُخططًا له، لكني أردت أن أؤكد أنه إذا تدخَّل أحدٌ في خُططي، وإذا وُضِعْتُ تحت المراقبة، فسأُضطَرُّ إلى الانسحاب من التحقيق.»

مرَّت لحظات قليلة قبل أن يردَّ رئيس الشرطة، ثم قال وصوتُه يُخالجه بعض التردُّد: «يُؤسِفني اضطرارُكِ إلى الانسحاب، ولكن، إذا كنتِ ترغبين في ذلك، فالأمر يرجع إليكِ تمامًا. لديَّ مهامٌّ يجب إنجازها، وعليَّ أن أُؤدِّيها بأفضل ما لديَّ من إمكانياتٍ متواضعة.»

«هكذا هو الأمر إذن! وأنا مُمتنَّة لكَ أنْ حدَّثتني بوضوح. أظنُّ أنك قد شكَكت اليوم في قدرتي على المساعدة، ومِن ثمَّ تدخلتَ في عملي.»

أردفَ رئيس الشرطة: «لا أظنُّ أن كلمة «تدخُّل» هي الكلمة المناسبة؛ لكن يجب أن أعترف بأن الانصياع لجهود الهُواة لم يُثمِر أبدًا نتائجَ جيدة، وهو ما لم نستطع نحن الحصول عليه بسرعةٍ وفعالية أكبر، والقوةُ النظامية تحت قيادتي.»

«حسنًا، إنَّ القوة النظامية تحت قيادتك عمِلَت لعدة أسابيع، ويبدو أنها لم تُنجِز الكثير. أما أنا فلم أُكرِّس لهذه المسألة سوى جزءٍ من فترتَيْ بعد الظهيرة والمساء، وقبل أن أنسحب أودُّ أن أُقدِّم إليك بعض المعلومات التي قد تُثير اهتمامك وتُبلغها إلى الحكومة، وأنا على استعدادٍ تام لأن تأخُذ السَّبْق في هذا الاكتشاف؛ لأنني لا أرغب في الظهور بأي حالٍ من الأحوال في هيئةِ مُنافسٍ لك. أتسمَعُني بوضوح؟»

ردَّ رئيس الشرطة: «تمامًا يا سيدتي.»

«إذن، أولًا، أبلِغ الحكومة أنَّ ما حدث ليس سطوًا.»

«لم يكن هناك سطو؟ هذا غير معقول، اعذريني إذا قاطعتُكِ فجأة! ولكن أين الذهب إذا لم يكن هناك سطو؟»

«سأُخبرك حالًا. ثانيًا: أبلغِ الحكومة أنها لم تفقد شيئًا. إنَّ كومة الركام التي اقترحتَ التخلُّص منها بعيدًا تحتوي غالبًا على المائتي مليون فلورين المفقودة بأكملها؛ إذ إن أكثر من ثُلث الكومة هو ذهبٌ خالص. وإذا كنتَ تريد إسداءَ خدمةٍ إلى أحد أصدقائك الأوفياء وتُفيد الحكومة في الوقت نفسِه، فعليكَ أن تنصح الحكومة بالاستعانة بخدمات السيد فيلتز، كي يتمكن من استخراج الذهب بأكمله من الركام وبأسلوبٍ فعَّال. وأُرشح لك السيد فيلتز، لاقتناعي بأنه كيميائيٌّ على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة. وقد أنقذَتكَ كفاءتُه الليلة من أن تُعزَل غدًا من منصبك؛ لذلك يجب أن تكون مُمتنًّا له. والآن يُشرفني أن أتمنَّى لك ليلةً سعيدة.»

قال رئيس الشرطة بنبرةٍ مُتوسِّلة عبر الهاتف: «انتظري، انتظري لحظة! سيدتي العزيزة، اغفري لي أيَّ خطأ صدر مني، وانتظري لحظةً أو اثنتَين. مَن المسئول إذن عن هذا الانفجار، ولماذا نفَّذه في الأصل؟»

«هذا ما سأترك لسيادتك محاولة معرفته. فكما ترى، لقد قدمتُ لك نتائج تحقيقاتٍ توصلتُ إليها خلال بضع ساعات فقط، ولا يُمكنك أن تتوقَّع مني اكتشافَ كل شيءٍ في

هذه المدة البسيطة. لا أعرف كيف وقع الانفجار، ولا أعرف مَن هم الجُناة، أو مِن أين جاءوا. ربما يستغرق الأمر الغدَ بأكمله لمعرفة ذلك؛ لكن بما أنني وكلتُ التحقيقات لأهلها عندما وضعتُها في يدٍ خبيرة مثلك، فعليَّ أن أتحلَّى بالصبر إلى أن تُرسِل لي التفاصيل الكاملة؛ ولذا، مرةً أخرى، تُصبح على خير يا سيادة الرئيس.»

«لا، أرجوكِ لا تذهبي الآن. سأحضر على الفور إلى القسم، إذا تكرمتِ بالانتظار حتى أصل.»

«إنَّ الأميرة فون شتاينهايمر تنتظرني في عربتها بالخارج، ولا أرغب في تأخيرها أكثرَ من ذلك.»

«إذن أتوسَّل إليكِ لا تتوقَّفي عن تحقيقاتك.»

«لماذا؟ إنَّ جهود الهواة غير مُجدِية، كما تعلم، عند مقارنتها بعمل القوة النظامية.»

«أعتذرُ إليكِ سيدتي العزيزة، يجب أن تَصفحي عما قاله رجلٌ عجوز في لحظةٍ طائشة. لو أنكِ تعرفين عدد الهواة الذين يتدخَّلون في عملنا الصعب للغاية دون أي جدوى، لالتمَسْتِ لي العذر. هل أنتِ واثقةٌ تمامًا مما أخبرتِني به، وأن الذهب موجود في كومة الركام؟»

«واثقة تمامًا. وسأترك لك في المكتب هنا التحليلَ الذي أجراه السيد فيلتز، وإذا كان بإمكاني تقديمُ المزيد من المساعدة، فلا بدَّ أن يكون مفهومًا جيدًا أنك لن تتدخَّل مرةً أخرى في أيٍّ مما يُمكنني فعله. فإنَّ ذَهابك إلى السيد فيلتز الليلةَ بعد أن تركتَني وأمره بعدم إعطائي أيَّ معلوماتٍ هو أمرٌ أتردَّد في وصفه باسمه الصحيح. وعندما يُصبح لديَّ أي شيءٍ آخر لِأُخبرك به، فسأُرسِل لك.»

«شكرًا جزيلًا؛ سأظل دائمًا تحت أمركِ.» وهكذا انتهت هذه المكالمة الهاتفية على نحوٍ جيد، وسارعَت جيني إلى الأميرة، بعد أن توقفَت في طريقها لإعطاء الورقة التي تحتوي على نتائج التحليل إلى الضابط المسئول، وطلبَت منه تسليمها إلى رئيس الشرطة عندما يحضُر إلى مكتبه. وبإتمام هذه المهمة، شعرَت بالارتياح لأن المتاعب التي واجهَتها في يومٍ مثل هذا — حافل بالأحداث — لم تذهب سُدًى.

الفصل السادس عشر

جيني تزور ساحرًا عصريًّا في مَقره السحري

عندما استقلَّت جيني العربة؛ صاحت صديقتُها التي ظلَّت تنتظرها: «هيا أخبريني، هل قابلتِه؟» وهي تقصد رئيس الشرطة بالطبع.

«لا، لم أُقابله، لكنِّي تحدثتُ إليه عبر الهاتف. أتمنَّى لو كنتِ معي لتسمعي حديثنا؛ كان أطرف حوارٍ شاركتُ فيه على الإطلاق. اضطُررتُ مرتَين أو ثلاثَ مراتٍ إلى كتم السماعة؛ خوفًا من أن يسمع رئيس الشرطة صوت ضحكي. أخشى أنكِ قبل انتهاء هذه القضية ستشعُرين بالندم الشديد لكَوني ضيفةً في منزلكِ. وأعرفُ أنه قد ينتهي الحال بِزَجي في أحد سجون النمسا هنا. فقط تخيَّلي الأمر! لقد وقفتُ في وجه رئيس الشرطة في هذه المدينة الإمبراطورية كما لو كنتُ واحدًا من قطَّاع الطرق الهمجيِّين القادمين من الغرب. لقد أرهبتُ الرجل وأرعبتُه وهدَّدته، وهو الشخص الذي يملك زِمام الأمور في فيينا بين يدَيه، وله حرية التصرُّف في جميع شئونها، ويُمكنه أن يأخذني ويزجَّ بي في أي زنزانةٍ في أي وقت، كل ذلك رهن إشارةٍ منه.»

قالت الأميرة بحسمٍ: «ليس من قصر شتاينهايمر.»

«حسنًا، قد يتردَّد في فعل هذا، ومع ذلك، يُضحكني كثيرًا التفكيرُ في أنَّ مجرد صحفيَّة في جريدة، وهي غريبة في مدينة تضمُّ واحدةً أو اثنتَين فقط من صديقاتها، تجرؤ على التحدُّث إلى رئيس الشرطة كما فعلتُ الليلة، وإجباره على التوسُّل إليَّ كي أبقى في المدينة وأُواصِل مساعدته.»

قالت الأميرة بلهفة: «أخبريني بما قلتِ.» فأخبرَتْها جيني بكل ما دار بينهما عبر الهاتف.

«وهل تقصدين أن تقولي بكل هدوءٍ إنكِ ستُعطين هذا الرجل الحقَّ في استخدام المعلومات المُذهلة التي حصلتِ عليها، وتسمحين له بتلقِّي كل الثناء والتكريم الذي يمنحهما مثل هذا الاكتشاف؟»

أجابت جيني: «عجبًا؛ ما فائدة الثناء والتكريم بالنسبة لي؟ إنَّ التقدير الذي أطمح إليه سأحصلُ عليه في مكتب صحيفة دايلي بيجل في لندن.»

قالت الأميرة ذاتُ الطِّباع العمَلية، في تأكيدٍ واضح على أن المبادئ التي غُرسِت فيها خلال فترة نشأتها في شيكاجو؛ لم تَمحُها إقامتُها في فيينا: «ولكن، أيَّتُها الفتاة البلهاء، بعد توصُّلكِ إلى مثل هذا السِّرِّ عن مصير الذهب، كان بإمكانكِ جنيُ ثروةٍ طائلة؛ فلو أنكِ ذهبتِ إلى الحكومة وقلتِ «كم ستُعطونني إذا استعدتُ لكم الذهب المفقود؟» فلكِ أن تتخيَّلي الرد.»

«نعم، أعتقد أن المال قد يدخل ضمن المخطَّط لو أن الأمر سِرٌّ بالفعل. لكنكِ نسيتِ أنه في صباح الغد سيعرف رئيس الشرطة الأمر من الكيميائي. وبالطبع، لو كنتُ قد ذهبت وحدي إلى الخِزانة المُحصَّنة واحتفظتُ باكتشافاتي لنفسي، فلربما تمكَّنتُ من الوقوف في وجه حكومة النمسا والمجر بنجاحٍ مثلما وقفتُ في وجه رئيس الشرطة الليلة. ولكن مع مراقبة رئيس الشرطة لكل ما فعلتُه وذَهابه معي إلى الكيميائي، لم يعُد هناك مجالٌ لإبقاء الأمر سرًّا.»

«حسنًا يا جيني، كل ما يُمكنني قوله هو أنكِ فتاة حمقاءُ للغاية. ها أنتِ تجتهدين في عملك كما قلتِ في إحدى رسائلكِ لمجرد كسب لقمة العيش، وتسمحين الآن بلامبالاةٍ تامَّة أن تُفلِت ثروةٌ من بين أصابعكِ. وأنا ببساطة لن أسمح بذلك؛ سأُخبر زوجي بكل ما حدث وسيجعل الحكومةَ تتعامل معكِ بعدل، إن لم يكن بكرم. وأؤكِّد لكِ يا جيني أن اللورد دونال — لا، لن أذكر اسمه لأنكِ تحتجِّين بشدة — لكن زوجكِ المُستقبلي، أيًّا كان، لن يستخفَّ بقدركِ لأنكِ تأتين إليه بمهرٍ غالٍ. وها نحن قد وصلْنا إلى المنزل؛ ولن أتفوَّه بكلمةٍ أخرى حول هذا الموضوع إذا كان يُزعجك.»

عندما وصلَت جيني إلى جَناحها المُبهج الذي بدا مُريحًا حَدَّ الترَف، يشعُّ منه ضوءٌ هادئ ينساب من مصابيحَ مُتألقةٍ بدرجات ألوانٍ هادئة أكثرَ مما كانت عليه في ضوء النهار الأكثرِ توهُّجًا؛ أخذَت تسير ذَهابًا وإيابًا في غرفة جلوسها وهي هائمة في تفكيرٍ عميق. كانت في حَيرةٍ من أمرها، وكان السؤال الذي يطرح نفسه حينها هو ما إذا كانت تُخاطر بإرسال برقيةٍ مشفَّرة إلى جريدتها أم لا. فلو أنها متأكدة من أن الأخبار لن

تصِل إلى شخصٍ آخر، فلعل من الأفضل الانتظار حتى تحصل على مزيدٍ من التفاصيل عن كارثة الخِزانة. سيعتمد جانبٌ كبير من الأمر على ما إذا كان رئيس الشرطة قد أخبر أي شخصٍ بالسرِّ الليلةَ أم لا. فإذا لم يفعل، سيُصبح متأكدًا أنه هو والفتاة فقط مَن يعلمان بهذا الخبر المهم. وإذا تصدَّرَت الرواية الكاملة للاكتشاف عناوينَ جريدة «دايلي بيجل» الصادرةِ في صباح اليوم التالي، حينَئذٍ عند وصول الصحيفة إلى فيينا أو حتى قبل وصولها، إذا أُرسِل مُجمل الرواية في برقية إلى الحكومة — كما هو مؤكَّد ومعتاد — فسيعرف رئيس الشرطة في الحال حقيقة أنها مُراسِلة الصحيفة التي كان حريصًا جدًّا على إخافَتِها كي تُغادر فيينا. ومن ناحيةٍ أخرى، أعطَتها صداقتُها مع الأميرة فون شتاينهايمر تأثيرًا كبيرًا لدى الشخصيات الأرفعِ مقامًا من رئيس الشرطة، لدرجة أنه بعد الدرس الذي لقَّنَته إيَّاه، قد يتردَّد في اتخاذ أي خُطوة ضدها. إذن، مرة أخرى، فإن الأخبار التي يعرفها الليلة شخصان فقط؛ قد تتسرَّب في الغد إلى جميع المُراسِلين في فيينا، وهكذا تضيع كل جهودها سُدًى، فيما له صلةٌ بعمل جريدة «بيجل». حسمت هذه النقطةُ قرارَ الفتاة بعدما تحرَّرت من كل دافعٍ للتردُّد، وجلست إلى مكتبٍ وبدأت الفصل الأول من حلِّ لُغز فيينا. استهلَّت كتابتَها بجملةٍ في غاية الدبلوماسية: «رئيس شرطة فيينا يتوصَّل إلى اكتشافٍ مذهل للغاية.» ومن هذه البداية؛ انتقلَت إلى تفاصيل الاكتشاف الذي حقَّقَته اليوم. وعندما أنهَت كتابة المقال، نزلت إلى مُضيفتها وقالت:

«أيَّتها الأميرة، أريد رجلًا جديرًا بالثقة، كي يأخُذ برقيةً طويلة إلى مكتب التلغراف المركزي ويُسدِّد ثمنها ثم يُغادر سريعًا قبل أن يسأله أي شخصٍ أسئلةً فضولية.»

«أليس مِن الأفضل أن نستدعيَ ساعيَ البرقيات؟»

«ساعي برقيات؟ هل هو موظَّف عُيِّن من مكتب التلغراف لخدمتكِ أو مجرد ساعٍ عادي؟ لا؛ لا تستدعيه. فهو عادة ما يحمل رقمًا مميزًا ويُمكن تتبُّعه.»

صاحت الأميرة: «أنتِ مُحقة! إذن سأُرسل سائقنا الخاص. سأجعله يرتدي ملابسَ عادية بدلًا من الزي الخاص، وهو أكثرُ رجلٍ موثوق به للغاية، ولن يُجيب عن أسئلةٍ فضولية، أو أيِّ أسئلة أخرى، حتى لو طُلِبَ منه ذلك.»

وبالإضافة إلى البرقية التي ترغب جيني في نشر محتواها، أرسلت جيني برقيةً خاصَّةً إلى رئيس التحرير، تُخبره فيها بأن نشرَ المقال في صباح اليوم التالي قد يضرُّ بوضعها، لكنها تركَت القرار له تمامًا. ها هي الأخبار في جُعبتِه، وإذا كان يعتقد أن الأمر يستحقُّ

حقًّا المخاطرة بعدم النشر، فقد يُؤجِل النشر، وإذا لم يكن كذلك، فيُمكنه نشرُ الأخبار بغض النظر عن العواقب.

وفي واقع الأمر، أجَّل رئيس التحرير، على الرغم من خشيتِه فقدان السَّبْق الصحفي، نشر الأخبار ليومٍ واحد، حتى لا يُحرج وضعَ مندوبته المُتميزة، لكنه كان قلقًا للغاية، لدرجة أنه جلس طوال الليل مُنتظرًا إصدارات الصحف الأخرى، وتنفَّس الصعداء عندما ألقى نظرةً خاطفة؛ فوجد أن الصُّحف لم تتطرَّق إلى أي أخبارٍ عمَّا يُخفيه داخل مكتبه. ثم خلَد بعدها إلى النوم عند طلوع النهار. وفي الليلة التالية كان لديه نفسُ القدْر من القلق تقريبًا؛ إذ كان يخشى من حصول الصحف الأخرى على الخبر ونشرِه، رغم أنه ما زال في حوزة صحيفتِه «بيجل»، ومن ثمَّ انتظر للمرة الثانية في مكتبه حتى يرى ما قد تنشُره الصحف الأخرى؛ فوجد أن الحظ قد حالفه، وحصلَت صحيفته على السَّبْق الصحفي، وانفردَت بنشر الخبر قبل بقية الصحف.

في صباح اليوم التالي لحوارها مع رئيس الشرطة، أخذَت جيني حقيبة يدٍ صغيرةً ووضعَت فيها الزجاجات التي تحتوي على أنواع الغبار المختلفة التي استخلصها الكيميائي، وخرجَت بمفردها واستقلَّت عربة أجرة، ثم أعطت السائق عُنوان البروفيسور كارل سيجفريد. وقد كانت عربة الأميرة دائمًا تحت تصرُّف الفتاة، لكنها في هذه المناسبة لم تكن ترغب في أن تشعر بالحرج من هذه العربة الفخمة. فأقلَّتها العربة المُتواضعة إلى شارعٍ تصطفُّ على جانبَيه مبانٍ ضخمة مرتفعة، وتركَتها أمام العنوان الذي أعطته السائق. بدا المبنى مُكتظًّا بالشُّقَق. وأخذت تصعد سُلَّمًا بعد سُلَّم حتى وصلت إلى الطابق الأخير، فرأت اسم البروفيسور مكتوبًا على الباب. طرقَت الباب عدة مراتٍ دون أن تَلْقَى ردًّا، ولكن أخيرًا فَتَحَ جزءًا من الباب رجلٌ لم تشكَّ في أنه البروفيسور بشخصه. كان أبيضَ الشعر ذا وجهٍ مُجعَّد. نظر إليها من خلال نظارته ثم خاطبها بنبرةٍ حادة: «سيدة شابة، لقد أخطأتِ الشقة؛ هذه شقة البروفيسور كارل سيجفريد.»

ردَّت الفتاة على عجَلٍ والرجل العجوز يستعدُّ لإغلاق الباب: «أريد مقابلة البروفيسور كارل سيجفريد.»

«ماذا تُريدين منه؟»

«أريد بعض المعلومات منه بشأن المُتفجرات. قيل لي إنه خبيرٌ بالمتفجرات أكثرَ من أي رجلٍ آخر على قيد الحياة.»

«هذا صحيح تمامًا، وماذا بعد؟»

«لقد وقع انفجارٌ أسفر عن نتائجَ لافتةٍ للنظر للغاية، ويقولون إنه لا الديناميت ولا أي قوةٍ أخرى معروفة يُمكن أن يكون لها مثلُ هذا التأثير على المعادن مثلما فعلَت قوة ذلك الانفجار.»

صاح الرجل العجوز وهو يفتح الباب قليلًا ويُبدي اهتمامًا لم يكن ملحوظًا في أسلوبه حتى تلك اللحظة: «آه، إن الديناميت لا يعدو كونه لُعبة للأطفال! حسنًا، أين وقع ذلك الانفجار؟ هل تريدين منِّي أن أذهب لفحصه؟»

«ربما في وقتٍ لاحق. لكن في الوقت الحاليِّ أودُّ أن أُطلِعكَ على بعض آثاره، لكني لا أقترح القيام بذلك هنا في الممر.»

تراجَع العالِم العجوز على عجَلٍ وفتح الباب على مِصراعَيه وهو يقول: «صحيح تمامًا، صحيح تمامًا؛ بالطبع لستُ مُعتادًا على زياراتٍ من سيدات أنيقات، واعتقدتُ في البداية أنَّ هناك خطأ؛ ولكن إذا كانت لديكِ أيُّ مشكلةٍ علمية حقيقية، فسيُسعدني أن أُشارك في حلِّها. فما قد يبدو غير عاديٍّ لعقل الإنسان العادي يمكن بلا شك أن يُفسره العلماء تفسيرًا كاملًا. تفضلي، تفضلي.»

أغلق الرجل العجوز الباب خلفَها وقادها عبر ممرٍّ مُظلم إلى شقةٍ كبيرة كان سقفُها هو سقف المبنى. وللوهلة الأولى بدَت الشقة في حالة فوضى عارمة. وعلى الرغم من ضخامة المكان، فإنه كان مُمتلئًا بآلاتٍ وأدواتٍ غريبة الشكل؛ كُتَل من لفافات الأنابيب الزجاجية تبدو مُنحنِية في تشابُك رائع على طاولةٍ في منتصف المكان، ومن الواضح أنها كانت تَشغل انتباه البروفيسور في الوقت الذي قاطعَته فيه طَرَقات الباب. وقد تراصَّت الرفوف على الجدران ليحمِل كلُّ رفٍّ زجاجاتٍ وأجهزةً من مختلف الأنواع.

وأيًّا كان قدْر العناية التي يُوليها البروفيسور سيجفريد لأجهزته، فقد بدا أنه لا يُولي إلا قدرًا قليلًا من اهتمامه للأثاث. فلم يكن يُوجَد في الغرفة أيُّ كرسي لائق، باستثناء كرسيٍّ واحدٍ عميق بِمسند، وهو مُغطًّى بجلد النمر، كان البروفيسور من دون شكٍّ يجلس عليه مُتأملًا، أو أثناء مشاهدة تُقدم إحدى التَّجارِب. وفي الواقع، لم يدعُ السيدة الشابة إلى الجلوس عليه، ولم يُقدِّم لها أي مقعد على الإطلاق، بل جلس هو على جلد النمر بنفسه، ووضع أطراف أصابعه معًا، وأخذ يُحدِّق بها من خلال نظارته البرَّاقة.

ثم قال فجأة: «والآن، أيَّتها السيدة، ماذا أحضرتِ لي؟ لا داعيَ للبدء في الثرثرة؛ لأن وقتي ثمين. أرينِي ما أحضرتِه، وسأُخبركِ بكلِّ شيءٍ عنه؛ والأرجح أنه شيء بسيط للغاية.»

على الرغم من أسلوبه الفظ الذي أثار اهتمامها، ابتسمَتْ جيني وسحبت أقلَّ المقاعد تهالُكًا في المكان ثم جلست في ظلِّ الغَمْغمات الغاضبة من مُضيفها المُتوتِّر. ثم فتحت حقيبتها وأخرجَت قنينة الذهب الصغيرة وناولَته إيَّاها دون أن تنبس ببنت شَفة. تلقَّاها الرجل العجوز باستهانةٍ إلى حدٍّ ما وهزَّها إلى الخلف وإلى الأمام دون أن يُزيل سدادة الفِلِّين ثم ضبط نظارته، وبدا فجأةً وكأنه مُهتم بشدةٍ بالمادة التي تناولها. فنهض واقترب من الضوء. سحب سدادة الفِلِّين بيدَيه المُرتعشتَين، وصبَّ بعضَ المحتويات في راحة يدِه المفتوحة. كانت النتيجة مُذهلة بما فيه الكفاية؛ إذ نفضَ الرجل العجوز يدَيه لأعلى وترك القارورة تتحطَّم على الأرض إلى شظايا صغيرة. وترنَّح إلى الأمام وهو يصرخ: «آه، يا إلهي، يا إلهي!»

ثم انكفأ العالِم على وجهه وسقط على الأرض ممَّا أثار ذُعر جيني التي انتفضَت من كرسيِّها مذعورة. واجهت الفتاةُ صعوبةً في أن تكتم صرختها، ونظرت حولَها على عجلٍ باحثةً عن جرس لتستدعيَ خادمًا أو مساعدًا، لكن يبدو أنه لم يُوجَد أحد، فحاولت أن تفتح الباب وتصرخ طلبًا للمساعدة ولكن في ظل انفعالها لم تجد له مِقبضًا ولا مزلاجًا. ويبدو أنه مُقفَل والمفتاح بلا شكٍّ في جيب البروفيسور. ظنَّت في البداية أنه قد مات، لكنَّ أنينه المُستمرَّ وهو مُستلقٍ على الأرض أقنعها بخطأِ ظنها. فمالت عليه بقلقٍ وصاحت: «كيف يُمكنني مساعدتك؟»

تمتَم بصعوبة: «الزجاجة، الزجاجة، في الخزانة خلفك.»

هُرِعت لفتح أبواب الخزانة فوجدَت زجاجة براندي وكأسًا ملأَت بعضها. تمكَّن الرجل العجوز من النهوض في وضع الجلوس بعد مُعاناة، وأمسكت جيني بالكأس ووضعتها على شفتَيه الشاحبتَين. فتجرَّع ما فيها وشهق وهو يقول: «أشعر بتحسُّن الآن. ساعديني كي أجلس على كرسيِّي.»

فساعدَته كي يقِف على قدمَيه، وبينما تُجلِسه على الكرسي تملَّص منها، وصاح غاضبًا: «دعيني وشأني! ألا ترَين أني بخير؟»

تنحَّت الفتاةُ جانبًا وسقط البروفيسور على كرسيه ويداه المُتوتِّرتان ترتعشان على ركبتَيه. ولفترةٍ طويلة، لم يقُل أيٌّ منهما شيئًا، ثم جلست الفتاة أخيرًا على المقعد الذي كانت تجلس عليه سابقًا. وما قاله الرجل العجوز بعدها هو أن سألها: «مَنْ أرسلكِ إلى هنا؟»

«لا أحدَ، لقد جئتُ بمحض إرادتي. وكلُّ ما أردتُه هو مقابلة شخصٍ لديه معرفةٌ واسعة بالمتفجرات، وقد أعطاني الكيميائي السيد فيلتز عنوانك.»

كرَّر الرجل الاسم: «السيد فيلتز! السيد فيلتز! إذن هو مَنْ أرسلكِ إلى هنا؟»

قالت الفتاة بإصرار: «لم يُرسِلني أحدٌ إلى هنا؛ إنَّ الأمر كما أخبرتُك. أعطاني السيد فيلتز عنوانك فقط.»

«من أين حصلتِ على مسحوق الذهب هذا؟»

«إنَّه من ركام الانفجار.»

«أعلم، لقد قلتِ ذلك من قبل. أين حدث الانفجار؟ ومَن المُتسبِّب فيه؟»

«هذا ما لا أعرفه.»

«ألا تعرفين مكان الانفجار؟»

«أعرف مكان الانفجار، لكني لا أعرف مَن وراءه.»

«مَنْ أرسلكِ إلى هنا؟»

«أخبرتُك أنَّ أحدًا لم يُرسِلْني إلى هنا.»

«هذا ليس صحيحًا، إنَّ الرجل الذي تسبَّب في الانفجار هو مَنْ أرسلكِ إلى هنا. أنتِ عميلة له. ماذا تتوقَّعين أن تكتشفي مني؟»

«أتوقَّع أن أعرف نوع المتفجرات التي استُخدِمَت لتحقيق النتيجة التي بدا وَقعُها عليك غريبًا.»

«لِمَ تقولين هذا؟ لم يكن لها مِن وقعٍ عليَّ. كلُّ ما في الأمر أن قلبي ضعيفٌ؛ إني أتعرض لمثل هذه الأزمات القلبية وأُقاومها بتناول الشراب. ويبدو أنها يومًا ما ستقتلني. وعندئذٍ، لن تعرفي أيَّ أسرارٍ من رجلٍ ميت، أليس كذلك؟»

«أتمنَّى لكَ عمرًا مديدًا يا بروفيسور سيجفريد، وأودُّ أن أُضيف كذلك أني لم أتوقَّع مثل هذا الاستقبال من عالِمٍ مُتميز مثلك، كما قيل لي. إذا لم تكن لديك معلوماتٌ لتُعطيني إيَّاها، فعندئذٍ يكون قد انتهى الأمر؛ كلُّ ما عليك فعله هو أن تقول هذا.»

«مَنْ أرسلكِ إلى هنا؟»

«لا أحدَ، كما كرَّرتُ مرةً أو مرتين. لو أنَّ أحدًا قد أرسلني، لَكنتُ أعطيتُه رأيي في المهمة عندما أعود. هل ترفُض أن تُخبرني بأي شيءٍ عن المتفجرات التي حوَّلَت الذهب إلى مسحوق؟»

«أرفضُ؟ بالطبع أرفض! ماذا توقعتِ؟ أفترض أن الرجل الذي أرسلكِ إلى هنا يظنُّ أنه، لكونكِ فتاةً جذابة وأنا رجل عجوز، فسأخبركِ بنتائجِ أبحاثي التي أفنيتُ فيها عمري. عجبًا! لا، ولألف مرةٍ لا. أنا لستُ عجوزًا خرِفًا، وما زال لديَّ عُمرٌ كي أعيشه.»

«آمُل ذلك. حسنًا، تحياتي لك. سأبحث عن شخصٍ آخر.»

كشَّر الرجل العجوز عن أسنانه بابتسامةٍ ماكرة.

«لن تتمكني من ذلك. لقد كسرتُ زجاجتكِ وتناثر ما بداخلها في أرجاء المكان، فلم يبقَ له من أثر.»

لوَّح بيده الرفيعة الهزيلة في الهواء وهو يتكلم.

فقالت جيني: «لا يُهمني ذلك على الإطلاق؛ لديَّ زجاجاتٌ أخرى منها هنا في حقيبتي.»

وضع البروفيسور يدَيه على مسند كرسيه، ووقف ببطءٍ على قدمَيه.

وصاح: «لديكِ أخرى؛ زجاجاتٌ أخرى؟ دعيني أراها، دعيني أراها!»

ردَّت جيني: «لا، لن أفعل.»

وبسرعةٍ لم تكن تتوقَّعها جيني خاصةً بعد انهياره الأخير، استدار البروفيسور نحو الباب وسند بظهره عليه. وبدَت النظارة فوق عينيه مُتوهِّجة كما لو كانت تشتعل. وثنى أصابعه التي تُشبه المخالب بصرامة. وسمعت صوتَ أنفاسه المُتلاحقة؛ إذ كان من الواضح أنه قد أُصيبَ بحالة هياجٍ شديد.

وهمسَ بصوتٍ أجشَّ مُحدقًا بها: «مَنْ يعلم أنكِ أتيتِ لرؤيتي؟»

نهضت جيني ثم وقفت هناك وأخذت تضغط على قفازها وأجابت بهدوءٍ لم تكن في الواقع تشعر به:

«مَنْ يعرف أني هنا؟ لا أحدَ سوى رئيس الشرطة.»

«مَنْ؟ رئيس الشرطة!» ردَّد البروفيسور ما قالته وقد بدت عليه علاماتُ الاندهاش من إجابتها غير المتوقعة. وبعدها هدأ وتراجع عن موقفه الحاد، وعاد مرة أخرى إلى هيئة الرجل العجوز التي ظهر عليها عندما كان يجلس مُكوَّمًا على كرسيه. وغمغم قائلًا: «اعذريني؛ كنتُ منفعلًا.» ثم اتجه نحوَ كرسيه مرةً أخرى.

«لاحظتُ ذلك يا بروفيسور. ولكن قبل أن تجلس مرة أخرى؛ افتح هذا البابَ من فضلك.»

لكنه توقَّف قبل أن يصِل إلى كرسيه وسألها: «لماذا؟»

«لأني أريده مفتوحًا.»

فقال بنبرةٍ أعلى: «وأنا أريده أن يظل مُغلقًا حتى نتفاهم. لن أسمح لكِ بالخروج الآن. لكنني سأتركِكِ وشأنكِ بمجرد أن تُقدِّمي لي بعض التفسيرات.»

«إذا لم تفتح البابَ فورًا، فسأُلقي بهذا الجهاز إلى الشارع عبر النافذة. ولا شك أنَّ صوت تحطم الزجاج سيُثير انتباه أي شخصٍ يتصادف مروره في الشارع، ومن ثَمَّ سيُسرع لإنقاذي على الفور يا بروفيسور، كما أنَّ لديَّ صوتًا لا أتردَّد كثيرًا في الصراخ به، وبذلك لن أجد صعوبة في إرشاد الغرباء إلى مكاني.»

وبينما كانت جيني تتحدث، تحركت بسرعة نحو الطاولة التي وضع عليها مجموعةً غريبة من العاكسات والأنابيب الزجاجية المُلتوية.

فقفز البروفيسور حائلًا بينها وبين الطاولة وهو يصرخ: «لا، لا، لا! المسي أيَّ شيءٍ غير هذا، أي شيءٍ غير هذا. لا تُحركيه شبرًا واحدًا، هذا خطرٌ لدرجة الموت، ليس لكِ ولي فحسب، ولكن ربما للمدينة كلها. ابتعدي عنه!»

قالت جيني، وهي تتراجع على الرغم من محاولتها الحفاظَ على رباطة جأشها: «حسنًا، إذن، افتح باب الغرفة وباب الشقة أيضًا واتركهُما هكذا. وبعد ذلك، إذا بقِيتَ جالسًا على كرسيك، فلن ألمس الجهاز، ولن أُغادر حتى أُقدِّم لك التفسيرات التي تطلُبها وتُجيب أنت عن بعض الأسئلة التي سأطرحها. لكن يجب أن يكون لديَّ طريقٌ واضح إلى السُّلَّم، تحسبًا لانفعالك مُجددًا.»

أجاب الرجل العجوز مُرتجفًا مُتحسِّسًا جيوبه بحثًا عن مفاتيحه: «سأفتح البابَيْن، سأفتحهما؛ لكن ابتعدي عن هذا الجهاز، إلا إذا كنتِ تُريدين دمارًا سريعًا لنا جميعًا.»

توجَّه البروفيسور وهو يلتفِت لزائرته بتحفزٍ أبطأ من سرعته، ليفتح الباب الأول ثم الباب الثانيَ على عجل، ثم عاد إلى كرسيه مُترنحًا ليُلقي بنفسه على جلد النمر، مُرتجفًا ومُنهكًا.

وقال بنبرةٍ مُتذمرة: «قد يتصنَّت علينا أحد. لا يمكن أن نعرف مَنْ قد يتسلل بهدوءٍ عبر السُّلَّم. فأنا محاط بجواسيس يُحاولون معرفة ما أفعله.»

قالت جيني: «انتظر لحظة.»

وتوجهت بسرعة إلى الباب الخارجي، فوجدت أنه يُغلَق بمزلاجٍ زنبركي، ففتحَته وأغلقَته مرتين أو ثلاثًا حتى أصبحَت على درايةٍ كاملة بطريقة فتحه، ثم أغلقته، وبعد ذلك وارَبَت الباب الداخلي، وجلست.

قالت: «وهكذا، لن يستطيع أحدٌ أن يُقاطعنا يا بروفيسور سيجفريد؛ لكن أرجوك لا تبرح كرسيَّك.»

غمغم الرجل العجوز: «ليس لديَّ أي نية لذلك؛ والآن أخبريني، مَنْ أرسلكِ إلى هنا؟ قلتِ إنكِ ستُخبرينني. أعتقد أنكِ مَدينة لي بتفسير.»

ردَّت الفتاة: «أعتقد أنكَ أنت مَن تدين لي بتفسير؛ وكما أخبرتُك من قبل، لم يُرسِلني أحد. لقد جئتُ هنا بمحض إرادتي، وسأحاول أن أُوضِّح لك سبب مَجيئي بالضبط؛ منذ فترةٍ حدث انفجار هائل في هذه المدينة ...»

صاح الرجل العجوز، واضعًا يدَيه على مسندَي كرسيه، وكأنه سيقِف على قدميه: «أين؟ متى؟»

قالت جيني بحزم: «اجلس مكانك، وسأُخبرك بكلِّ ما لديَّ من معلوماتٍ عن الأمر. فالحكومة، لأسبابٍ خاصة بها، ترغب في إبقاء حقيقة هذا الانفجار سرًّا، ومن ثمَّ قلة قليلة خارج الدوائر الرسمية تعرفُ بالأمر. وأنا أُحاول اكتشاف سبب تلك الكارثة.»

سألها الرجل العجوز بتحفُّز وبصوتٍ مرتعش: «هل تعملين لحساب الحكومة؟»

«لا. إنني أُجري تحقيقاتي بصفةٍ مُستقلة تمامًا عن الحكومة.»

«لكن لماذا؟ لماذا؟ هذا ما لا أفهمه.»

«أُفضِّل كثيرًا عدم الإجابة عن هذا السؤال.»

«لكن هذا السؤال ... كلُّ شيءٍ مُتضمَّن في هذا السؤال. يجب أن أعرف سبب مجيئكِ هنا. إذا لم تكوني موظفة تابعة للحكومة، فلحساب مَنْ تعملين إذن؟»

قالت جيني ببعض التردُّد: «إذا أخبرتُك، فهل ستحتفِظ بما أقول سرًّا؟»

صاح العالِم وهو مُتلهِّف لا يستطيع صبرًا: «أجل، أجل، أجل!»

«حسنًا، أنا أعمل لحساب صحيفة يومية في لندن.»

«لقد فهمت، أجل لقد فهمت؛ وقد أرسلوكِ هنا لتنشُري للعالَم أجمع كلَّ ما يُمكنكِ اكتشافه عن أبحاثي. علمتُ أنكِ جاسوسة منذ أن رأيتُكِ. ما كان ينبغي أن أسمح لكِ بالدخول.»

«يا سيدي العزيز، إنَّ الصحيفة في لندن ليست على علمٍ بوجودك. ولم يُرسِلوني إليك على الإطلاق. لقد أرسلوني كي أتوصَّل، إن أمكن، لسبب الانفجار الذي أخبرتُك عنه. وقد أخذتُ بعضًا من ركام الانفجار إلى السيد فيلتز لتحليله، وقال إنه لم يرَ من قبل ذهبًا

قد سُحِقَ إلى حبيباتٍ دقيقة غير محسوسة مثلما حدث مع العينة التي تركتُها معه. ثم سألتُه عن أفضل خبراء المتفجرات في فيينا، فأعطاني عنوانَك. هذا هو سبب وجودي هنا.»

«لكن ماذا عن الانفجار؟ لم تُخبريني متى وأين حدث!»

«كما أخبرتُكَ، إنه سرٌّ حكومي.»

«لكنكِ ذكرتِ أنكِ لستِ موظفة حكومية، ولذا لن تكون هناك خيانةٌ للثقة إن سمحتِ لي بمعرفة التفاصيل الكاملة.»

«هذا صحيح. حسنًا، لقد حدث الانفجار بعد منتصف ليل السابع عشر في قبو الخِزانة.»

نهض الرجل العجوز على الرغم من تحذيرها له ووقف على قدمَيه من أثر المفاجأة.

فقفزَت جيني واقفة وقالت بتهديد: «ابقَ مكانك!»

«لن ألمسكِ. إذا كنتِ مُتشككة لهذا الحدِّ في كل حركةٍ تصدُر مني، فاذهبي بنفسكِ وأحضري لي ما أريد. هناك خريطة لفيينا مُثبَّتة على الحائط هناك. أحضريها لي.»

ذهبَت جيني في الاتجاه الذي أشار إليه البروفيسور. فوجدت خريطةً عادية لمدينة فيينا. وبينما تُحاول جيني خلع الخريطة من الحائط، لاحظَت خطًّا شبه دائري مرسومًا بالقلم الرصاص يمر أفقيًّا عبر الجزء الجنوبي من المدينة. وعندما تحققَت عن كثب، وجدت أن الجزء الثابت من البوصلة قد وُضِعَ على مكان المبنى الذي تُوجَد به شقة البروفيسور. وتفحَّصت مسار القلم الرصاص، ولاحظَت أنه مرَّ عبر مبنى الخزانة.

فصاح البروفيسور وهو يضربُ الهواء بيدَيه: «لا تنظري إلى الخريطة! لقد طلبتُ منكِ أن تُحضريها لي. ألا يُمكنكِ تنفيذُ عملٍ بسيط كهذا دون أن تتجسَّسي؟»

نزعَت جيني الخريطة بسرعةٍ عن الحائط وأحضرتها إليه. فتفحَّصها العالِم عن كثبٍ وضبط نظارته ليراها بوضوحٍ أكبر، ثم مزَّق الخريطة عمدًا إلى عدة أجزاء صغيرة. ثم نهض — وهذه المرة لم تحتَجَّ جيني — وذهب إلى النافذة، وفتحها، وألقى بقِطَع الورق المتطايرة في الهواء، فحملتها الرياح القوية بعيدًا فوق أسطح فيينا. وأغلق النافذة، وعاد إلى كرسيه.

وبعد برهةٍ سألها: «هل أُصيبَ أحدٌ جراء هذا الانفجار؟»

«أجل، قُتِل أربعة رجال على الفور، وأُصيب عشرة بجروح خطيرة وهم الآن في المستشفى.»

صاح الرجل العجوز، وغطَّى وجهه بيدَيه مُتمايلًا من جانب إلى آخر في كرسيه وكأنه يتوجَّع من الألم والندم: «يا إلهي! يا إلهي!» وفي النهاية، رفع وجهه الذي أصبح شاحبًا مُصفرًّا أكثر ممَّا كان عليه خلال الدقائق القليلة الماضية.

ثم قال وهو يُبلل شفتَيه الجافَّتَين: «لا يُمكنني أن أُخبرِك بشيء.»

«لا بدَّ أن تُخبرني؛ لأنه من الواضح أنك تعرف كل شيء.»

«لم أكن أعرف شيئًا عن أي انفجارٍ حتى أخبرتِني أنتِ عنه. فما شأني أنا بالخِزانة أو الحكومة؟»

«هذا هو بالضبط ما أريد أن أعرفه.»

«هذا غير معقول. إنني لستُ متآمرًا، بل أنا رجل عِلم.»

«إذن ليس لديك ما تخشاه يا سيد سيجفريد. إذا كنتَ بريئًا، فلماذا لا تُقدِّم المساعدة في هذا الأمر؟»

«لا علاقة لي بهذا الأمر؛ أنا عالِم، أنا عالِم. كلُّ ما أريده هو أن أُترَك وحدي مع أبحاثي. لا علاقةَ لي بالحكومات أو الصحف أو أي شيء يخصُّها.»

أخذَت جيني ترسم نمطًا بطرف مظلتها على الأرضية المُغبرة للغرفة. ثم تحدَّثت بهدوءٍ شديد:

«إنَّ الخط الذي رسمْتَه على خريطة فيينا مرَّ عبر مبنى الخِزانة؛ وكان مركز الدائرة هو هذه الشقة. لماذا رسمت نصف دائرة بالقلم الرصاص على الخريطة؟ ولماذا كنت قلقًا من أن أرى أنك قد فعلت ذلك؟ ولماذا مزَّقت الخريطة إربًا إربًا؟»

جلس البروفيسور سيجفريد هناك ينظر إليها مشدوهًا، لكنه لم يرد.

واستطردت الفتاة: «اعذرني فيما أقوله، تصرُّفاتك صبيانية للغاية. من الواضح أنك لستَ مُجرمًا، لكن لو كان رئيس الشرطة في مكاني لاعتقلك منذ فترةٍ طويلة، لمجرد أنك ترتكب أفعالًا حمقاء.»

قال مُترددًا بعد فترة: «الخريطة لا تُثبت شيئًا، وبات من الصعب الآن أن تعثري عليها أنتِ أو رئيس الشرطة.»

«هذا دليل آخر على حماقتك. لا يحتاج رئيس الشرطة إلى العثور عليها. أنا هنا شاهدة على ما رأيته في الخريطة وعلى الخط المنحني الذي يمرُّ عبر الخِزانة، وشاهدتُك وأنت تمحو ما كنتَ تعتقد أنه دليل إدانة. من الأفضل كثيرًا أن تتعامل معي بصراحةٍ مثلما تعاملتُ معك. وسأُقدم لك أفضل نصيحةٍ يُمكنني تقديمها، إذا كانت نصيحتي ستُفيدك.»

«أجل، وانشريها في جميع أنحاء العالَم.»

«سيتعيَّن نشرُها للعالم بأسره على أي حال؛ لأنني إذا غادرتُ هذا المكانَ دون أنا أعرف كل ما حدث، فسأذهب ببساطةٍ إلى الشرطة وهناك سأُخبرهم بما توصَّلتُ إليه في هذه الغرفة.»

«وإذا تحدثتُ، فستذهبين أيضًا إلى رئيس الشرطة وتُخبرينه بما اكتشفتِه.»

«لا، أَعِدُكَ ألا أفعل.»

سأل الرجل العجوز بارتياب: «وما الذي يضمن لي ذلك؟»

«لا ضمان على الإطلاق باستثناء وعدي لك!»

«هل تتعهَّدين بعدم نشْر ما سأقوله لكِ في صحيفتك؟»

«لا، لا يُمكنني أن أَعِدَك بذلك!»

تابع العالِم قائلًا: «ومع ذلك، فإنَّ الصحيفة لا تُهم، ستُصبح القصة عديمة القيمة بالنسبة لكِ؛ لأن أحدًا لن يُصدِّقها. ليس هناك فائدة تُذكَر في أن تنشر صحيفة قصة ستُقابَل بالسخرية والحط من قدرها، أليس كذلك؟ وعلى كل حال، أعتقد أنكِ صادقة، وإلا كنتِ ستَعِدين بعدم نشر سطرٍ مما سأُخبركِ به، وعندها كنتُ سأعرف أنكِ تكذبين. وكذلك كان من السهل أن تعدي بذلك مثلما قلتِ إنكِ لن تُخبري رئيس الشرطة. لقد اعتقدتُ في البداية أن بعض المنافسين من العلماء أرسَلوكِ إلى هنا لتتجسَّسي عليَّ، وتعرِفي ما كنتُ أفعله. وأؤكِّد لكِ أنني لم أسمع شيئًا عن الانفجار الذي تتحدثين عنه، لكن كنتُ متأكدًا من وقوعه في مكانٍ ما على امتداد هذا الخط الذي رسمتُه على الخريطة. كنتُ آمُل ألا يكون الأمر خطيرًا، وبدأتُ أعتقد أنه ليس كذلك. لقد دفعني القلق خلال الشهر الماضي إلى حَدِّ الجنون تقريبًا، وكما قلتِ تمامًا، كانت أفعالي صبيانية.» ثم نهضَ الرجل العجوز من كرسيه منفعلًا وأخذ يسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا، ويُمرِّر أصابعه وهو شارد الذهن في شعره الأبيض الطويل، ويتحدث إلى نفسه أكثرَ مما يتحدَّث إلى جيني التي ظلَّت تستمع إليه.

كانت جيني قد وضعت كرسيها بالقُرب من الباب دون أن تحتجَّ على قيامه؛ خوفًا من مقاطعة حديثه، وإثارة شكوكه مرةً أخرى.

«لا أرغب في حماية اختراعاتي. ولم أحصل على براءة اختراع في حياتي. فما أكتشفه؛ أمنحه للعالَم بلا مقابل، لكن لن يُجرِّدني أحدٌ من سُمعتي كعالِم. أريدُ أن تتناقل الأجيال القادمة اسمي ضمن المُكتشفين العِظام. لقد تحدَّثتِ للتوِّ عن الذهاب إلى الشرطة

وإخبارهم بما تعرفينه. يا لكِ من حمقاء! لقد بات ذَهابكِ إلى مركز الشرطة الرئيسي من دون إذني أو رغمًا عني مُستحيلًا تمامًا مثل استحالة أن تذهبي إلى النافذة وتستعيدي تلك القطع من الورق التي ذهبَت أدراج الرياح. فقبل أن تصلي إلى نهاية السُّلَّم، يُمكنني أن أُحوِّل فيينا كتلةً من الأنقاض. أجل، يُمكنني على الأرجح نسفُ إمبراطورية النمسا بأكملها. إنَّ الحقيقة هي أنني لا أعرف حدود قوتي، ولا أجرؤ على اختبارها.»

قالت جيني لنفسها وهي لا تزال تقترِب من الباب: «يا للهول، رجلٌ مجنون!» فتوقف الرجل العجوز عن السير والتفتَ إليها بشراسةٍ وهو يقول:

«أنتِ لا تُصدقينني؟»

فأجابت وقد شحب وجهها: «أنا لا أُصدقك.»

ضحك الساحر العجوز ضحكةً خافتة مُخيفة. وأخذ من أحد الرفوف رأسَ مطرقة بدون مقبض، وظنت جيني للحظة أنه سيُهاجمها؛ لكنه فقط ناولها الرأس المعدنيَّ وقال:

«اكسري هذه إلى نصفَين. وضَعِيها بين راحة يدكِ واطحنيها حتى تُصبح مسحوقًا.»

«تعرف جيدًا أن هذا غير معقول؛ لا أستطيع أن أفعل ذلك.»

«لماذا لا يُمكنكِ فعلُ ذلك؟»

«لأنها من الفولاذ.»

«هذا ليس سببًا. لماذا لا تستطيعين أن تفعلي ذلك؟»

نظر إليها بحِدَّة من فوق نظارته، ورأت عينَه الثائرة يتَّقِد منها حماسُ المُعلم بينما يُرشد تلميذه إلى ضوء الحقيقة.

«سأُخبركِ لماذا لا يُمكنكِ فعل ذلك؛ لأنَّ كل جزيء دقيق مُتَّحِد مع الآخر بقوة هائلة. ويمكن تسخينُه حتى الاحمرار وطَرْقُه وتشكيلُه على هذا النحو وذاك، ومع ذلك تظل القوة بين الجزيئات مُتماسكة مثل قبضة عملاق. لنفترض الآن أن لديَّ مادةً ما، إذا وُضِعَت قطرةٌ منها على قطعة الحديد هذه، فإنها ستُؤدي إلى تحرير القوة التي تربط بين الجزيئات وانطلاقها، ماذا سيحدث عندئذٍ؟»

أجابت جيني: «لا أعرف.»

صاح البروفيسور بصبرٍ نافد: «لا، بل تعرفين! مثلُكِ مثلُ أي امرأةٍ أخرى، لن تُكبِّدي نفسَكِ عناءَ التفكير. إنَّ ما سيحدث كالتالي؛ ستتحرَّر القوة التي تربط الجزيئات بعضها ببعض وتتحوَّل المطرقة إلى مسحوقٍ مثل الذهب الذي أحضرتِه إليَّ. والانفجار الذي

سيعقب ذلك، بسبب الإطلاق المفاجئ لهذه القوة الهائلة، من المُحتمَل أن يُدمِّر هذه الغرفة ويُودي بحياتنا. أنتِ تفهمين هذا، أليس كذلك؟»

«أعتقدُ ذلك.»

«حسنًا، سأُخبركِ بشيءٍ لن تفهميه، وربما لن تُصدقيه عند سماعه. لا تُوجَد سوى قوةٍ واحدة في هذا العالم وجزيءٍ واحد من المادة. لا يُوجَد سوى عنصرٍ واحد، وهو أساسُ كل شيء. كلُّ الأشكال والظروف المختلفة للأشياء التي نراها ناتجة عن مجرد تغيُّر في تلك القوة فضلًا عن أعداد ذلك الجسيم. هل تجاوزتُ قدرتكِ على الفهم؟»

«أظن هذا يا بروفيسور.»

«بالطبع؛ أعلم أن عقل المرأة العادية ضعيفٌ وواهِن، ومع ذلك، حاولي أن تفهمي ما سأقول. لقد اكتشفتُ كيفية تفكيك هذه القوة وتلك الجسيمات. ويُمكنني، بلمسةٍ واحدة أن أُطلق على هذه الأرض عملاقًا قوتُه لا حَدَّ لها ولا يُمكن ردعها.»

«لماذا تعترض إذن على أن يعرف العالَم بأمر اكتشافك؟»

«السببُ الأول أنه لا يزال هناك آلاف الأشياء يُمكن تعلُّمها على مدار هذه السلسلة من الأبحاث. وفي اللحظة التي يُعلن فيها المرءُ اكتشافاته، يُقابَل بالاستهزاء أولًا، ثم عندما تثبُت صحة ما توصَّل إليه، يظهر في كل جزءٍ من العالَم أناسٌ آخرون يقولون إنهم يعرفون كل شيءٍ عن هذا الاكتشاف منذ عشرات السنين، وسيُثبتون ذلك أيضًا؛ على الأقل بما يكفي لخداع عالَم ساذَجٍ سهل الانخداع. والسببُ الثاني أنني رجل تُحرِّكه المشاعر الإنسانية، أتردَّد في نشر معرفةٍ من شأنها أن تُمكِّن أي أحمق من تدمير الكون. ثم إنَّ هناك سببًا ثالثًا. هناك شخص آخر، على ما أعتقد، اكتشفَ كيفية إضعاف قوة تماسُك الجزيء؛ وهو العالِم كيلي من فيلادلفيا، في الولايات المتحدة …»

صاحت جيني ضاحكة: «ماذا! أنت لا تقصد كيلي الرجل المُحرِّك؟ ذلك الدجَّال! عجبًا، لقد كشفَتْ كلُّ الصحف في العالَم ادعاءاته السخيفة. إنه لم يفعل شيئًا سوى إهدارِ أموال الآخرين.»

«أجل، لقد سخِرَت منه الصحف. فمنذ الأزل؛ يَرجُمُ البشر أنبياءَهم بالحجارة. ومع ذلك، فقد حرَّر قوة لا يستطيع مقياسٌ من صُنع الإنسان أن يقيس مقدارها. لقد كان متفاخرًا، إذا أردتِ القول، وقال إنه باستخدام كوبٍ من الماء سيقود باخرةً عبر المحيط الأطلسي. التزمتُ حينها الصمت، وظَللتُ أعملُ بعيدًا ولكني أُتابعه، وكان يعمل هو بعيدًا عني ولكن يُتابعني؛ لأن كلًّا منا يعرف ما يفعله الآخر. وإذا اكتشف أيٌّ منا كيفية التحكُّم

في هذه القوة، فسوف يُخلَّد اسمُ المكتشِف عبر الأجيال القادمة إلى الأبد. وهو غير قادر على فعل ذلك بعد، وكذلك أنا. لكن لا يزال هناك فرقٌ آخر بيننا؛ يبدو أنه قادر على إطلاق تلك القوة في وجوده؛ بينما لا يُمكنني القيام بذلك إلا عن بُعد. كانت كل تجارِبي مؤخرًا موجَّهة نحوَ إجراء تعديلاتٍ على هذه الآلة؛ وذلك لتحرير القوة داخل النطاق المُحيط بي في هذه الغرفة، على سبيل المثال، لكن المسألة حيَّرَتني. فلا بدَّ أن تتَّحِد عند بؤرةٍ مُحدَّدة هذه الأشعة غير المرئية التي تُرسلها هذه الآلة، التي من شأنها أن تخترق الحجر أو الحديد أو الخشب أو أي مادةٍ أخرى، ولم أتمكن من جعل هذه البؤرة قريبةً منِّي إلا لمسافةٍ تزيد عن نصف ميل. لقد ذهبتُ الصيف الماضيَ إلى منطقةٍ غير مأهولة في سويسرا وواصلتُ تجارِبي هناك. وفجَّرتُ صخورًا على جوانب الجبل اخترتُها عن عمد، وكانت المسافات متفاوتة تتراوح ما بين ميلٍ ونصف ميل. ثم فحصتُ الصخور المتفككة، وبمجيئكِ إلى هنا وإعطائي هذا الذهب، أدركتُ على الفور أن شخصًا ما قد اكتشف السِّرَّ الذي كنتُ أُحاول فهمَه طوال السنوات العشر الماضية. واعتقدتُ أنكِ ربما أتيتِ من عند كيلي. والآن أنا على قناعةٍ بأنَّ الانفجار الذي أخبرتِني عنه في الخِزانة حدثَ بسببي. إنَّ هذه الآلة، التي هدَّدْتِ باستهتارٍ أن تُلقيها من النافذة، انزلقت عن غير قصدٍ من دعامتها أثناء عملي هنا بعد منتصف الليل في يوم السابع عشر. لقد أعَدتُها فورًا إلى وضعها الصحيح كما ترين الآن بحيث تُطلِق أشعتها في الهواء، ومن ثمَّ لا تُسبِّب ضررًا؛ لكن كنتُ على علمٍ بأن انفجارًا ما سيحدُث في فيينا في مكانٍ ما داخل دائرةٍ نصف قُطرها يبلغ نصف ميل. لقد رسمتُ نصف الدائرة بالقلم الرصاص كما رأيتِ على خريطة فيينا؛ لأنني وسط انفعالي بإعادة الآلة إلى وضعها لم ألحظ بالضبط المكانَ الذي أشارت إليه، لكنني كنتُ أعرف أنه على امتداد الخط الذي رسمتُه قد وقع انفجارٌ ما. وكنت آمُل ألا يكون خطيرًا، لكنه على ما يبدو كان خطيرًا للغاية. فانتظرتُ وانتظرت، ولم أجرؤ على ترك الشقة، لكن لم أسمع أيَّ خبرٍ عن أي كارثة، كنتُ مُمزَّقًا بين القلق الذي من الطبيعي أن يُصيب أيَّ امرئٍ تُحركه مشاعرُ إنسانية في مثل موقفي ولا يريد تدمير الحياة، والخوف من ألا يحدُث شيء، وبذلك لا أكون قد توصلتُ بالفعل إلى الاكتشاف الذي اعتقدتُ أني قد توصلتُ إليه. لقد تحدَّثتِ عن أفعالي كونها صبيانية؛ لكن الحقيقة أنني حين أدركتُ أنني كنتُ السببَ في هذا الانفجار، راوَدَني خوفٌ من الملاحقة الجنائية. لا يعني هذا أنني سأعترضُ على سجني إذا سمحوا لي بمُواصلة تَجارِبي هناك؛ لكنهم، بلا شك، لن يفعلوا ذلك؛ لأن السلطات لا تعرف شيئًا عن العِلم، ولا يعنيها الأمر كثيرًا.»

على الرغم من الشكوك التي انتابت جيني في البداية، وجدَت نفسها تدريجيًّا تُؤمن بكفاءة آلة الزجاج والحديد التي تبدو غير ضارَّةٍ والتي رأَتها على الطاولة أمامها، وشعرت بالرُّعب من سحرِها وهي تُحدِّق بها. ثم بدأت احتمالاتٌ مُروعة تتسلَّل إلى تفكيرها، وسألت لاهثة: «ماذا سيحدُث إذا أدرتُ هذه الآلة ووجَّهتُها نحو مركز الأرض؟»

«لقد أخبرتُكِ بما سيحدث. سوف تتحوَّل فيينا إلى أنقاض وربما تُصبح الإمبراطورية النمساوية بأكملها، وربما بعض الدول المجاورة، كتلةً من الغبار غير المحسوس. قد يتلاشى العالَم نفسُه. لا يُمكنني تحديد حجم الخسائر ولا أجرؤ على المُخاطرة بالتجرِبة.»

صاحت جيني قائلة: «يا إلهي، إنَّ التفكير في هذا الأمر مُخيفٌ للغاية؛ يجب أن تتخلَّص من هذه الآلة يا بروفيسور ولا تصنع آلةً أخرى مثلها.»

«ماذا! وأتخلى عن الأمل في أن يُخلَّد اسمي عبر الأجيال القادمة؟»

«يا بروفيسور سيجفريد، بمجرد أن تُصبح هذه الآلة معروفةً للعالَم، لن يكون هناك أجيالٌ قادمة لتُخلِّد اسمَك. ومع انتشار الكراهية التي سوف تسود حينئذٍ بين الدول، ومع وجود دول مختلفة مليئة بمجانين مُطلَقٍ سراحُهم ممن نُطلِق عليهم المُتطرفين المُتعصبين — رجال يُنذرون بنشر الكراهية بين الشعوب — إلى متى في رأيك سيُواصِل العالَم مسيرته عندما تُقدم إليه مثل هذه الآلة؟»

نظر البروفيسور باعتزاز إلى الآلة التي صنعها بتفانٍ وبذَل فيها جهدًا كبيرًا.

«ستُصبح مفيدةً جدًّا للبشرية إذا وُظِّفَت جيدًا. ومع تضاؤل مناجم الفحم في كل مكان، ستُوفر قوةً دافعة للكون ستستمر عبر العصور.»

صاحت جيني بحزم: «يا بروفيسور سيجفريد، عندما تسمح مشيئة الرَّب أن تُصبح تلك الآلة ملكيةً عامة يتشارك فيها كلُّ البشر، فإنها إرادته إذن بأنْ تَحين نهاية العالَم.»

لم ينبس البروفيسور بكلمة، لكنه وقفَ عاقدًا حاجبَيه تمامًا ومُحدقًا بشدة في الآلة. بينما يحمل في يده رأس المطرقة التي سبق أن أعطاها للفتاة؛ ويُؤرجح ذراعه إلى أسفل وإلى أعلى كأنه يُقدِّر وزنها. ثم فجأة، دون كلمة تحذير، قذَفها نحو الآلة كي يُحطمها، فتحطَّم زجاجها وسقطَ مُصدِرًا رنينًا على الأرض.

صرخَت جيني مذعورةً وهي تَئِنُّ في الوقت الذي جاهدَ البروفيسور كي يصِل إلى كُرسيه ثم سقط عليه بدلًا من الجلوس. واستشرى شحوبٌ مُروِّع في وجهه، وركضت الفتاة المُنزعجة مرةً أخرى إلى الخِزانة، وسكَبَت بعض البراندي وقدَّمته إليه، ثم حاولت أن

تسكبه في حلقه، لكن أسنانه المنطبقة قاومَت محاولتها. ففركَت يدَيه المُتيبِّستَين، وبمجرد أن فتح عينَيه، هزَّ رأسه ببطءٍ.

قالت وهي ترى فكَّيه يسترخيان: «حاوِلْ أن تتناوَل هذا الشراب.»

فتمتم بصعوبة: «لا فائدة منه، إنَّ حياتي في هذه الآلة؛ وهي هَشَّة مثل الزجاج. أشعرُ ...»

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك. فنزلت جيني بسرعةٍ إلى عيادة طبيبٍ في الطابق الأول لاحظَتْها عند صعودها.

هُرِعَ الطبيب، الذي كان على معرفةٍ بالبروفيسور لكن ليس بصفةٍ شخصية؛ إذ كان لديه عددٌ قليل من الأصدقاء. أخذ الطبيب يصعد السُّلَّم ثلاث درجاتٍ في كل مرة، وتبِعَتْه جيني بسرعة أقل. ثم التقى بالفتاة وهو خارجٌ عند باب الشقة.

وقال: «لا فائدة، لقد انتهى الأمر، مات البروفيسور سيجفريد، وأنا على يقينٍ من أنَّ النمسا قد فقدت بوفاته أعظمَ علمائها.»

ردَّت الفتاة بصوتٍ مرتجف: «أنا متأكدة من ذلك. ولكن ربما أن هذا، في نهاية المطاف، هو الأفضلُ للجميع.»

قال الطبيب: «أشكُّ في ذلك. لا تُخالجني الرغبة أبدًا في الاعتراض على العناية الإلهية إلا عندما يُتَوفَّ رجل مُتميز وهو يُقدِّم الخير للبشرية.»

ردَّت جيني بإجلال: «أخشى أننا لم نصِل إلى حالةٍ من التطوُّر تُبرِّر لنا انتقاد حِكمة العناية الإلهية. خلال حياتي القصيرة، رأيتُ عدة حالاتٍ بدا فيها أن العناية الإلهية قد تدخَّلَت لحماية مخلوقاتها. وحتى الموت المفاجئ للبروفيسور سيجفريد لا يُزعزع إيماني بأنَّ العناية الإلهية تعلَم ما لا نعلَم.»

ثم استدارت بسرعةٍ ونزلَت السُّلَّم على عجل. وعند الباب الخارجي سمعت الطبيبَ يُنادي: «من فضلكِ، يجب أن أعرف اسمكِ وعنوانكِ.»

لكن جيني لم تتوقَّف للإجابة. لم تكن ترغب في الخضوع لاستجواب، فهي تعلَم أنها إذا قالت الحقيقة فلن يُصدِّقها أحد، بينما إذا حاولَت إخفاءها، فقد يتسبَّب لها هذا التصرُّفُ في عواقب وخيمة لا يمكن توقعها؛ فركضت بسرعة إلى ناصية الشارع، وأشارت لعربة أجرة وتوجَّهت إلى مكانٍ في أقصى المدينة، ثم نزلت منها، وذهبت إلى شارع رئيسي، واستقلَّت عربة ترام إلى وسط المدينة، ومن هناك استقلت عربة أجرة أخرى إلى القصر.

الفصل السابع عشر

جيني تحجز كابينة في عربة النوم

لقد وعدَت جيني البروفيسور سيجفريد ألا تتواصَل مع رئيس الشرطة بشأنه، وما يدور في ذهنها الآن: هل بتواصُلها ستُخلِف وعدَها أم لا؟ فإذا سمحَت لهذا المسئول بمعرفة نتيجة تحقيقها، فلن يُشكِّل الأمرُ حينها أي فارقٍ بالنسبة إلى البروفيسور. وقد سألت نفسَها؛ لو أن البروفيسور سيجفريد كان بإمكانه أن يتوقَّع موته المفاجئ، فهل كان سيُفضِّل أن تُعلِن عن كل ما تعرِفه عنه؟ ألم يقُل مِرارًا وتَكرارًا أنه يعمل من أجل الشهرة وتخليد اسمه عبر الأجيال القادمة؟ ثم إنَّ هناك أمرًا آخر يجِب أن يُؤخَذ بعين الاعتبار: إذا لم تُبلِغ رئيس الشرطة عن سبب الانفجار، فسوف يستمرُّ بلا جدوى في بحثه غير المُثمر، ولا شكَّ أنه سيُقبَض على العديد من الأبرياء خلال سَير تحقيقات الشرطة، وهو وضعٌ سيجلب متاعبَ كثيرةً ونفقاتٍ طائلة، ومن الوارد أن يُسجَن شخصٌ أو أكثرُ مدى الحياة دون أن تكون له أيُّ علاقة بالقضية على الإطلاق. ومن ثَمَّ قرَّرت جيني أن تُخبر رئيس الشرطة بكل ما تعرفه، وهو ما لم تكن لتفعله لو أن البروفيسور سيجفريد ما زال على قيد الحياة. ولهذا، أرسلَت مرسالًا إلى المسئول الكبير، وبمجرد أن بدأت تحكي للأميرة المُتلهِّفة شوقًا إلى سماعها عمَّا حدث، وصل الرجل إلى القصر، وجلس الثلاثة في غرفة جلوس جيني مع غلق الأبواب.

بدأت جيني قائلة: «لقد تمكَّنتُ من معرفة مُلابَسات وقوع الانفجار في مبنى الخِزانة ومَنْ وراءه، ولكن قبل أن أُكمِل حديثي يجب أن تعِدَني بتقديم خدمتَيْن، وفي وُسعِك فعلُ كلٍّ منهما دون عائق.»

سألها رئيس الشرطة بحذَر: «ما هما؟»

أجابت جيني: «سأُخبرك بهما أثناء رواية قصتي؛ فهُما جزءٌ منها، ولكن يجب أن تعِدَني أولًا دون شروط، وأن تفيَ بوعدك الذي قطعته على نفسك.»

قال رئيس الشرطة: «هذه بالأحرى شروطٌ غريبة يا آنسة باكستر، ولكنني أقبل بها عن طيب خاطر لثقتي بكِ؛ فأنتِ مَن اكتشف أنَّ كل الذهب لا يزال في الخِزانة.»

«حسنًا، إذن أول خدمة هي ألا تستدعِيَني للإدلاء بشهادتي عند إجراء تحقيقٍ حول ملابسات حادث وفاة البروفيسور كارل سيجفريد.»

صاح الرئيس: «أنتِ تُدهشينني! كيف علمتِ أنه قد مات؟ لقد وصلَني الخبر قبل أن أُغادر مكتبي بلحظاتٍ قليلة.»

ردَّت جيني ببساطة: «لقد كنتُ معه عندما وافتْهُ المَنيَّة.» وقد أثار كلامُها دهشة الأميرة ورئيس الشرطة، لكنها تابعت قائلة: «طلبي التالي هو أن تُدمِّر تمامًا آلةً موضوعة على طاولةٍ في منتصف غرفة البروفيسور تقريبًا، ربما تكون الآلةُ مُعطَّلةً بالفعل — أعتقد أنها كذلك — إلا أنني لن يهنَأ لي بالٌ حتى يُمحَى أثرها تمامًا؛ لأن دراسةَ ما يتبقى منها قد تُمكِّن عالِمًا آخرَ من تشغيلها مرةً أُخرى، وأرجو أن تهتمَّ بهذا الأمر بنفسك، سأذهب معك، إذا كنتَ ترغب في ذلك، وأُرشِدك إلى الآلة إذا كانت قد نُقِلَت من موقعها.»

قال رئيس الشرطة: «الغرفة مُغلقة، ولن يُمَسَّ أي شيءٍ حتى أصل إلى هناك. لكن ما نوع تلك الآلة؟»

أجابت جيني: «إنها من النوع المُميت والمُدمِّر للغاية، وإذا وقعتْ في أيدي أحد الفوضويِّين، فيُمكنه وحدَه أن يُحوِّل مدينة فيينا إلى حطام.»

صاح المسئول مذعورًا: «يا إلهي!» فهو ينزعج للغاية من الفوضويين، وقد أثَّرَت فيه جيني تمامًا عند ذكرها هذا النوع من المُجرمين؛ إذ إنها لو أخبرته أن اختراع البروفيسور قد يُمكِّن النمسا من غزو كل الدول المُحيطة، لكان الاحتمالُ الوارد جدًّا هو الحفاظ على الآلة بعناية.

وتابعَت جيني: «إنَّ الانفجار الذي حدث في مبنى الخِزانة وقع عن غير قصدٍ بسبب هذه الآلة، على الرغم من وجودها في ذلك الوقت في غرفةٍ عُلوية على بُعد نصف ميل. وقد رأيتَ الأثر الرهيب الذي خلَّفه ذلك الانفجار، ولك أن تتخيَّل إذن الدمار الذي قد تُسبِّبه إذا وقعَت في أيدي أحد هؤلاء الفوضويين الذين لا يُقدِّرون العواقب.»

أكدَّ رئيس الشرطة بحماس؛ وهو يمسح جبينه الشاحِب: «سأُدمر هذه الآلة بيدَيَّ.»

ثم واصلَت جيني حديثها، وسط دهشةٍ متزايدة من جانب الأميرة ورئيس الشرطة، وسردَت كل تفاصيل مُقابلتها مع البروفيسور الراحل كارل سيجفريد.

قال رئيس الشرطة وهو ينهض بعد الانتهاء من سرْد كل التفاصيل: «سأذهبُ في الحال وأُبيدُ تلك الآلة، وسأفعل ذلك بنفسي. وبعد انتهاء التحقيق، سأُصدر أمرًا بتدمير كلِّ شيءٍ في الغرفة العلوية. أتمنَّى أن يُزَجَّ بجميع العلماء على وجه الأرض في غياهب السجون كي نأمنَ مكرهم.»

ردَّت جيني: «أخشى أن هذا لن يُجدِيَ نفعًا، إلا إذا تمكَّنتَ من منع تهريب المواد الكيميائية إلى داخل البلاد؛ إذ قد يُحوِّل العلماءُ سجنك إلى رماد، ويَنسَلُّون بهدوءٍ قبل أن تشعر بهم.»

كان السيد هاردويك قد أخبر جيني بأنها إذا تمكَّنَت من حلِّ لُغز فيينا فإنها ستُعزِّز من سُمعة صحيفة «دايلي بيجل» في أوروبا، وقد فعلَت جيني أكثرَ مما كان مُتوقَّعًا منها، لكن السُّمعة التي حصدتها الصحيفة في أوروبا لم تكن بالقدر المُتوقَّع؛ فصحيحٌ أن المقال المنشور عن سبب الانفجار الذي اكتمل على نحوٍ دراماتيكي مع وفاة البروفيسور المأساوية المفاجئة قد أحدثَ ضجَّةً كبيرة في لندن، بيْدَ أن الصحف الهَزلية لهذا الأسبوع قد امتلأت بالرسوم التوضيحية التي تسلط الضوء على أوجه الاستخدام المُمكنة لآلة البروفيسور. كما أن القول بأنَّ أي رجلٍ عاقل في إنجلترا قد صدَّقَ كلمةً واحدة مما ورد في هذا المقال سيكون بمثابة إهانةٍ غير مُستحَقة لذكاء جمهور القرَّاء البريطاني. ولم يتوقَّف أحد ليُفكِّر أنه إذا نشرَت صحيفةٌ ما مقالًا عما يُمكن أن تفعله أشعَّة رونتجن دون التمكُّن من إثبات حقيقة التصريحات عمليًّا، فإنه سيكون موضع سخرية الجميع. ولو ذكرت إحدى الصحف قبل بضع سنواتٍ أن رجلًا في يورك استمع إلى صوت صديقٍ له في تلك اللحظة وهو موجود في لندن، ولم يتمكَّن من سماع ما قاله صديقه فحَسْبُ، بل تمكَّن أيضًا من تمييز نبرة صوته العادية، فإذا أضافت الصحيفة أن الآلة التي أنجزت ذلك كلَّه قد دُمِّرَت مع الأسف، لاستنكر الناسُ الطبيعة المُثيرة للصحافة الحديثة.

وهكذا انهالت الرسائل على رئيس التحرير، لتُوضِّح أنه في حين أن الكُتَّاب يرغبون — بصفةٍ عامة — في نشر الأكاذيب المُعتادة والمُتاجَرة بها يوميًّا في الصحف، فإن هناك حدًّا لسذاجة القراء، وقد اعترضوا على التعامُل معهم على أنهم أغبياء بُلَهاء. واستكمالًا للحرَج الذي أصاب صحيفة «دايلي بيجل»، نشرَت حكومة النمسا بيانًا رسميًّا، نشرته وكالة «رويتر» ومُراسِلوها المتميزون المُنتشِرون في كل أنحاء العالم. وقد صِيغَ البيان بتلك النبرة الهادئة والجادة والمُتَّسِقة التي يستخدمها الدبلوماسيُّون عند سرد أكذوبةٍ عاريةٍ تمامًا من الصحة.

انتشرت شائعاتٌ غيرُ مسئولة (هكذا بدأ البيان الرسمي) مفادها أنَّ انفجارًا قد وقعَ في مبنى الخِزانة في فيينا، وقيل إنَّ كميةً كبيرة من الذهب قد سُرِقَت، وإنَّ كارثةً من نوعٍ ما قد أصابت الخزانة، ثم نُشِرت قصة سخيفة أكَّدَت أن البروفيسور سيجفريد، وهو إحدى الشخصيات النمساوية المُشرِّفة الذي وافته المنية مؤخرًا، هو مَنْ تسبَّب في وقوع هذا الدمار الشامل باستخدام أحد أساليب السِّحر الأسود. ومن ثمَّ، نُوشِدَت الحكومة بإصدار التصريحات التالية؛ أولًا: لم يُسرَق بنسٌ واحد من الخزانة. ثانيًا: إنَّ ما يُسمَّى بصندوق الحرب لم يَمسَسْه أحد. ثالثًا: إنَّ مبلغ المائتي مليون فلورين موجود بأمانٍ خلف أبواب الخزانة المُغلَقة بإحكام. رابعًا: لم تكن العملات الذهبية تنتمي إلى دولٍ مختلفة كما زُعِم، وهو ما كان بمثابة تلميحٍ خفي بأن النمسا لديها نية عدائية ضدَّ إحدى هذه الدول الصديقة. وكلُّ العملات الموجودة في هذا الصندوق — الذي يُوصَف على نحوٍ مغلوط بأنه صندوق حرب، بينما هو ليس صندوقَ حرب على الإطلاق، ولكنه مجرد صندوق يحوي الاحتياطيَّ النقديَّ الذي تمتلكه النمسا — تتألَّف بالكامل من العملات النمساوية. خامسًا: من أجل وضع حَدٍّ لهذه الفضائح المُدوِّية والمُغرِضَة، أعلنت الحكومة أنها تنوي وزن هذا الذهب في تاريخ مُعيَّن، ودَعَتْ مُمثِّلين عن الصحافة من روسيا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا؛ كي يشهدوا عملية الوزن هذه.

وفي اليوم التالي لعملية وزن الذهب التي تمَّت في فيينا، نُشِرَت عنها مقالاتٌ طويلة مُرسَلة عبر التلغراف في الصحافة الإنجليزية، فضلًا عن نشر العديد من المقالات الرنَّانة في المقالات الافتتاحية، من دون التطرُّق إلى صحيفة «دايلي بيجل» التي استنكرَتْ شَرَهَ رئيس التحرير ونهَمَه الشديد تجاه الإثارة الذي لم يُبدِ احترامه للصداقة التي ينبغي أن تُوجَد بين الدول الصديقة، ولا السُّمعة الطيبة للمَوتى المُحترمين والمُشرِّفين، وغايته هي إحراز النجاح حتى وإن كانت الوسيلة هي نشر الفضائح اليومية، ولم يتورَّع عن نشر ما هو زائد عن الحَدِّ أو غير مُحتمَل، وقد راهنَ على السذاجة المفترَضة في جمهوره من القرَّاء. ولكن، لحُسن الحظ، أكَّدَت الصحف ذات المصداقية أنَّ السحر انقلب على ساحره وطَالَته الفضيحة. إنَّ صُحف الإثارة تستحقُّ الازدراء اللاذع من جميع الرجال الشرفاء. وفي وقتٍ لاحق، نشرَت إحدى المجلَّات النقدية مقالًا بعنوان «بعضُ ملامح الصحافة الحديثة»، هاجمَت من خلاله صحيفة «دايلي بيجل» بضراوة، وفي إحدى المجلَّات رُبع السنوية، أوضحَ أستاذٌ في جامعة كامبريدج عبثية الاختراع المزعوم وعدَمَ معقوليته من وجهة نظرٍ عِلمية.

صاح السيد هاردويك وهو يجوب غرفته ذهابًا وإيابًا بخطًى سريعة: «أُقسِم أنني سأتوخَّى كل الحذر بعد ذلك في التعامل مع الحقيقة؛ إذ إنها من الأمور الخطيرة للغاية التي يصعب التدخل فيها. فإذا صرَّحتَ بالحقيقة بشأن إنسانٍ ما، فإنك ستُواجه غرامةً وقضية تشهير، وإذا صرَّحت بالحقيقة بشأن دولة، فستُهاجمك الصحافة المُوحَّدة فيها. حسنًا، إنه لأمرٌ يجعل معركة الحياة أكثرَ إثارةً للاهتمام، ونحن نحتال ونمكر لنُناضل نضالًا أفضل، كما يقول براوننج.»

استدعى رئيس التحرير الآنسة باكستر، وهي تجلس الآن بجانب مكتبه بينما هو يسير بعصبيةٍ ذهابًا وإيابًا. وأُغلِقَت الأبواب حتى لا يُقاطعهما أحد، وعرَفَت من أسلوب رئيس التحرير أن هناك موضوعًا مهمًّا يجري التعامل معه. وقد عادت جيني إلى لندن بعد قضاء شهرٍ في فيينا، وانشغلت كسابق عهدها لمدة أسبوع في عملها الروتيني في الصحيفة.

قال رئيسُ التحرير، بعدما أعلن عدم ثقته في الحقيقة كمادةٍ سائغة وقابلة للتطبيق في مجال الصحافة: «لديَّ خُطة أودُّ أن أعرضها عليكِ يا آنسة باكستر. أريدكِ أن تعرفيها أولًا، ولكِ الحق بعد ذلك في الموافقة عليها أو رفضها. وتذكَّري، إذا وافقتِ عليها، فإنَّ فرصة نجاحكِ فيها هي واحد في المليون. وعلى ضوء الفرصة الوحيدة التي أمامنا، أقترحُ الآن إرسالكِ إلى سانت بطرسبرج.»

هتفت الفتاة في ذعر: «إلى سانت بطرسبرج!»

قال رئيس التحرير، وقد أخطأ في فهم مغزى هتافها: «إنَّها رحلة طويلة للغاية، لكن يُمكنكِ السفر إلى هناك مع أقصى درجات الراحة المُمكنة، وأريد منكِ ألا تدَّخري أيَّ نفقاتٍ في سبيل حصولكِ على كل سبل الرفاهية التي تُقدِّمها قطارات السكك الحديدية المختلفة أثناء رحلتكِ إلى سانت بطرسبرج، وعودتكِ منها.»

تمتَمَت جيني بصوتٍ خافت: «ولماذا عليَّ الذهاب إلى سانت بطرسبرج؟»

أجاب رئيس التحرير: «من أجل رسالةٍ فحسب. سأُخبركِ بما حدث وما يحدُث. ولن أذكر أيَّ أسماء، ولكن في الوقت الحاليِّ كتبَتْ شخصية رفيعة المستوى في روسيا، وهي شخصية صديقة لبريطانيا العظمى، رسالةً خاصة، تُقدِّم من خلالها بعض المقترحات إلى شخصيةٍ رفيعة المستوى في إنجلترا، التي تُعَدُّ صديقة لروسيا. وهذا التواصل ليس بصفةٍ رسمية؛ إذ ليس من المفترَض أن تعرف أيٌّ من الحكومتَين أيَّ شيءٍ عنه على الإطلاق. وفي واقع الأمر، فإنَّ الحكومة الروسية لديها شك، والحكومة البريطانية على يقين، أنَّ

هذه الوثيقة ستُصبح قريبًا قيد التوصيل. وهي إما ألا تُسفِر عن شيءٍ أو أن تسفر عن أشياء عظيمة. والآن في ليلة الحادي والعشرين، وفي إحدى عربات النوم بقطار نورد السريع الذي يُغادر سانت بطرسبرج مُتوجهًا إلى برلين، سيُسافر مبعوثٌ خاص حاملًا هذه الرسالة في حوزته. وأريدكِ أن تستقلِّي القطارَ نفسَه، وتحجزي كابينة بالقُرب من كابينة المبعوث، إذا أمكن. إنَّ هذا المبعوث هو رجل تثق فيه الأطراف المَعنية في المفاوضات ثقةً مطلقة. أتمنَّى لو أنَّني أعرف اسمه، لكنني لا أعرفه. ومع ذلك، هناك احتمالات أنه سيُغادر لندن مُتوجهًا إلى سانت بطرسبرج في هذا الوقت تقريبًا، ولذا ينبغي أن تُبقي عينَيك يقظتَين خلال رحلتكِ إلى هناك؛ لأنكِ إذا استطعتِ السفر معه على متن القطار نفسِه، فقد يُسهِّل هذا مهمتَكِ بعد ذلك. ولتأخُذي هذه الرسالة.» تابع رئيس التحرير حديثه، وهو يأخذ من دُرج مكتبه مظروفًا كبيرًا مُغلقًا بقطعة كبيرة من الشمع المختوم: «إنَّ كل ما بها هو نسخة عادية متواضعة من إصدار اليوم من صحيفة بيجل، ولكن بناءً على مظهرها الخارجي يُمكن وضعها مكانَ الرسالة التي ستُغادر سانت بطرسبرج يوم الحادي والعشرين. والآن، ما أودُّ منكِ أن تفعليه هو أن تأخذي هذا المظروف في حقيبة يدكِ، وإذا تمكنتِ خلال رحلة العودة إلى لندن من الحصول على الرسالة الحقيقية، وترك هذه في مكانها، فستكونين بذلك قد أنجزتِ أعظمَ خدمة للصحيفة.»

صاحت جيني، وهي تنهض: «ماذا! لا يسَعُني حتى مجرد التفكير في الأمر، كيف تطلُب مني ذلك يا سيد هاردويك. إنَّ الأمر أشبهُ بحادث سطوٍ على الطرُق السريعة!»

قال هاردويك مُدافعًا عن موقفه: «أعلم أنَّ الأمر يبدو هكذا، لكن أنصتي إليَّ. لو أني أنوي فتح الرسالة واستخدام محتوياتها، لكان يحقُّ لكِ عندئذٍ أن تتَّهِميني بالتحريض على السرقة، لكن الحقيقة هي أن الرسالة لن تتأخَّر؛ سوف تصِل إلى يد الشخصية الرفيعة المستوى في إنجلترا دون أن تُمسَّ تمامًا. والفارقُ الوحيد هو أنكِ مَنْ سيحملها بدلًا من ذلك المبعوث الذي سيُرسلونه.»

فردَّت جيني: «تريد إذن أن تُفتَح الرسالة بطريقةٍ خفية لا يُمكن ملاحظتها فيما بعد، أليس كذلك؟ لا، لا أستطيع فعل ذلك يا سيد هاردويك.»

«يا عزيزتي، أنتِ تقفزين إلى استنتاجاتٍ مُتسرِّعة غير صحيحة. ولدَهشتكِ فأنا أعرف بالفعل محتويات الرسالة.»

فسألت جيني: «إذن ما فائدة تكبُّد كل هذه النفقات والمَشقَّة في محاولة سرقتها؟»

أجاب هاردويك: «لا تقولي «سرقتها» يا آنسة باكستر. سأُخبركِ بدافعي. هناك مسئول في إنجلترا بذل قصارى جهده لإلقاء العقبات في طريقي. هذا أمرٌ غير ضروري ويُثير استيائي؛ لأنني بصفةٍ عامة أتمكن من الحصول على الأخبار التي أبحث عنها، لكنني بسبب مُعارضته في عدة حالاتٍ لم أتمكن من الحصول على الأخبار، وليس هذا فحسْب، بل حصَلَت عليها الصحف الأخرى. والآن، منذ النقد اللاذع الذي طالنا بشأن ذلك التحقيق النمساوي، وبصرْف النظر عن أنَّنا لم ننشُر سوى الحقيقة، يُكِنُّ لي هذا المسئول العجوز الغبي السخرية والبغضاء، ولأصدُقكِ القول فأنا أرغب حقًّا في أن أحطَّ من قدره. وهو لا يدري مُطلقًا أنني أعرف ما أعرفه عن تلك الرسالة؛ إذ إنه يعتقد في الواقع أنها سِرٌّ مُطلَق. ومع ذلك، يُمكنني غدًا — إذا أردتُ — أن أُلغي كل الترتيبات ببساطةٍ من خلال نشر ما هو في حوزتي بالفعل، وهو تصرُّفٌ سيُحدِث ضجةً في هذا البلد لا تقلُّ عن الضجة التي سيُحدثها في روسيا. ومن أجل الصداقة بين الدولتَين، اللتين يتهمونني بازدرائهما، كفَفتُ يدي عن فعل ذلك.

والآن، إذا تمكَّنتِ من الحصول على هذه الرسالة، أريدكِ أن تُرسلي إليَّ برقيةً وأنتِ في طريقكِ إلى لندن، وسألتقي بكِ في المحطة، ثم سآخُذ الوثيقة مباشرةً إلى هذا المسئول، حتى قبل أن يتمكن مبعوثه من الوصول إليه.» وسأقول للمسئول: «هذه هي الرسالة المُنتظرة من الشخصية الرفيعة المستوى في روسيا إلى الشخصية الرفيعة المستوى في إنجلترا. وإذا كنتَ تريد الوثيقة، فسأُعطيها لك، ولكن ينبغي أن يكون مفهومًا أنَّ حجم تعاونك مع بعض الصحف الأخرى يجب أن يقل، وأن يَزيد في المقابل حجمُ تعاملك مع صحيفتي مُستقبلًا.»

«وماذا ستفعل إنْ رفض شروطك؟»

«لن يرفضها. ولكن إذا فعل فسأُعطيه المظروف كما هو.»

«حسنًا، بصراحةٍ يا سيد هاردويك، أعتقد أن مُخطَّطك لا يستحقُّ المبلغ الذي سيُنفَق فيه، بالإضافة إلى صعوبة حصولي على الرسالة، التي ستكون بلا شكٍّ في مأمنٍ تام داخل صندوق المُراسَلات، وستكون دائمًا تحت مراقبة المبعوث.»

«أنا على أتمِّ استعدادٍ للمخاطرة بكل ذلك إذا وافقتِ على القيام بالرحلة. أنتِ تستهينين بمُخططي؛ ولكن هذا لأنكِ لا تُدركين حجم الموقف فحسْب. إنَّ كل ما فعَلتِه حتى الآن كان ذا فائدةٍ مؤقتة للصحيفة؛ ولكن إذا نجحتِ في هذه المهمة، فأنا أتوقَّع أن الفائدة التي ستعود على بيجل ستدوم إلى الأبد. سيمنحني هذا مكانةً لدى بعض المسئولين

لم أحظَ بها من قبل. وفي المقام الأول، سيجعلهم ذلك يهابونني، وهذا في حدِّ ذاته دافعٌ قوي عندما يتعلق الأمر بمحاولة الحصول على المعلومات التي يتوقون إلى تقديمها لبعض الصحف الأخرى.»

«حسنًا يا سيد هاردويك، سأحاول، ولكني أُحذِّرك من أن هذه المهمة لا يُمكن أن تُكلَّل بالنجاح. ففي أي مهمةٍ أخرى حاولتُ تنفيذها، كنتُ على ثقةٍ تامة في النجاح منذ البداية، ولكن هذه المرة، أنا مُتيقنة من الفشل.»

«كما أخبرتكِ يا آنسة باكستر، فإنَّ الخطة صعبة للغاية لدرجة أنكِ إذا فشلتِ، فسيُثبت فشلُكِ أنها كانت مُستحيلة؛ لأنني مُتيقن من أنه إذا كان بمقدورِ أي شخصٍ على وجه الأرض تنفيذها بنجاح، فهو أنتِ، وعلاوة على ذلك، فأنا مُمتنٌّ للغاية لموافقتكِ على الاضطلاع بمثل هذه المهمة.»

وهكذا وجدَت جيني باكستر نفسها في الوقت المُحدَّد في العاصمة الكبرى للشَّمال، داخل غرفةٍ في فندق «دي لو يوروب» تُطِل على شارع نيفسكي بروسبكت، لو أنها في الظروف العادية لاستمتعَت بزيارة سانت بطرسبرج، لكنها الآن تخشى الخروج مخافة أن تلتقي باللورد دونال ستيرلنج وجهًا لوجهٍ في أي لحظة، ويتعرَّف عليها، ولذا مكثت في غرفتها مُتوخيةً الحذَر، وأخذت تُشاهد مناظر الشوارع الغريبة من نافذتها. وقد وجدت نفسها تُدقِّق النظر في كلِّ مَن بدا وكأنه رجلٌ إنجليزي، وكان عليها أن تعترِف بشعورها بقليلٍ من خيبة الأمل عندما يتأكَّد لها أن الشخص المعنيَّ ليس اللورد دونال، في الواقع، خلال إقامتها القصيرة في سانت بطرسبرج، لم ترَ مُطلقًا مَنْ يُشبه هذا الشاب.

ذهبَت جيني في مساء يوم وصولها إلى مقرِّ شركة عربات النوم، لحجز مكانٍ في إحدى العربات التي ستُغادر في تمام السادسة مساء يوم الحادي والعشرين. وكانت أول الصعوبات التي واجهتها عندما علمت أن هناك عدةَ عربات نوم في هذا القطار، فكانت في حيرةٍ من أمرها لمعرفة أيها تختار. وقفت هناك مُتردِّدة ودليل حجز العربات على الطاولة أمامها.

فقال الموظف: «لديكِ مجالٌ كبير للاختيار، عادةً لا تُحجَز المقاعد مُقدمًا بسابق وقتٍ طويل، وقد حُجز مكانَان فقط في القطار، حتى الآن.»

قالت الفتاة، وهي لا تعرف العُذر الذي يجب أن تُقدمه لتردُّدها: «أودُّ أن أكون في عربةٍ بها بعض الإنجليز.»

«إذن اسمحي لي أن أوصي بهذه العربة؛ لأن السفارة البريطانية قد حجزت الكابينة «ج»، بالقُرب من منتصف العربة، وهي تلك الكابينة المظلَّلة بعلامة زائد.»

قالت جيني: «حسنًا، سآخُذ الكابينة المجاورة لها، كابينة «د»، أليس كذلك؟»

ردَّ الموظف: «يؤسِفني أن أبلغكِ بأنها محجوزة أيضًا، هاتان هما المحجوزتان. سأرى تحت أي اسم حُجِزت الكابينة «د»؛ ربما يكون شاغلها إنجليزيًّا أيضًا. لكن يُمكنني أن أحجز لكِ الكابينة «ب»، على الجانب الآخر من الكابينة المحجوزة للسفارة. إنها كابينة مزدوجة، رقم ٥ ورقم ٦.»

قالت جيني: «هذه ستفي بالغرض.»

بحث الموظف في دفتر الحجز، ثم قال:

«غير مُسجَّل هنا اسم مَنْ حجز الكابينة «د».» ثم تابع، وهو يتحدَّث بصوتٍ مهموس مُتلفتًا حوله: «المُعتاد عندما لا يُسجِّل أحدهم الاسم أن يعني هذا الشرطة الروسية. ولذا، كما ترين، بحجزكِ الكابينة الثالثة لن تُصبحي تحت كَنَفِ السفارة البريطانية فحسب، ولكن أيضًا في حماية روسيا. هل ترغبين في حجز سريرٍ واحد فقط أم الكابينة كلها؟ إنها كابينة مزدوجة.»

«سأحجز الكابينة بأكملها، إذا سمحت.»

دفعَت مقابل الحجز وغادرت، مُتسائلةً عما إذا كانت الشرطة قد حجزت الكابينة الأخرى بالفعل، وما إذا كانت السلطات حريصةً للغاية على سلامة المبعوث الخاص، لدرجة أنها اعتبرت أن من الضروري حمايتَه حتى الحدود. وإذا أُضيفت إلى الاحتياطات الطبيعية للمبعوث، يقظةُ رجلٍ أو اثنَين من رجال الشرطة الروسية المُتشكِّكين، فهل يُصبح مشروعها الصعب بالفعل مُستحيلًا. لكن من ناحيةٍ أخرى، قد يكون رجال الشرطة الذين يتقاضَون رواتبَ منخفضة عُرضةً لتأثير المال، وبما أنها تحمِل معها قدرًا كبيرًا من العملات الذهبية، فإنَّ وجودهم قد يكون عَونًا وليس عائقًا. وعمومًا، فإنها لم تكن مُتحمِّسة للمهمة التي أُسنِدَت إليها، وكلما فكرت في الأمر فَتَرَتْ همتُها شيئًا فشيئًا. ومع ذلك، بما أنها مُلتزمة بكلمتها مع رئيس التحرير، إذا فشلت المهمة فلن يكون ذلك بسبب تقصيرها.

الفصل الثامن عشر

جيني تتكبَّد العناءَ خلال رحلةٍ ليلية مُروعة

ذهبَت جيني إلى المحطة قبل موعدِها في ليلة الحادي والعِشرين، ودخلَت إلى عرَبة النوم في القطار بمجرد السماحِ لها بذلك. وبدا المُشرِفُ على العربة مُرتبكًا على نحوٍ غير مُبرَّر من قلقِها ورغبتها في الوصول إلى الكابينة بسرعة، وفحَص تذكرتَها بعنايةٍ كبيرة، ثم طلب منها أن تتبعه، حتى أوصلها إلى الكابينة «ب»، حيث يُوجَد السرير رقم ٥ والسرير رقم ٦، عُلوي وسُفلي. لم تكن الأسِرَّة مُرتَّبة، كما تحتوي الكابينة على مقعدٍ واحد يتَّسع لشخصَين. ثم نزل المشرف إلى الرصيف مرةً أخرى، ووجدَت جيني نفسها وحيدةً في العربة، وسارت ذهابًا وإيابًا في الممر الضيِّق على الجانب، الذي يصِل بين الكبائن، للحصول على فكرةٍ أفضلَ عن مُحيطها.

[رسم توضيحي: مخطط عربة النوم.]

الكابينة «ج»، المجاورة لكابينتها، هي المُخصَّصة للسفارة البريطانية. والكابينة «د» هي المُخصصة للشرطة وهي أبعدُ قليلًا، وقد وقفَت جيني لبضع لحظاتٍ بجوار النافذة الزجاجية العريضة على جانب الممرِّ لتُطلَّ على الرصيف المزدحِم. ولفترةٍ من الوقت راقبَت مشرفَ العربة الذي بدا وكأنه يُحدِّق بقلقٍ نحو الاتجاه الذي يأتي منه الرُّكَّاب، وكأنه يبحث عن شخص معيَّن. وبعد قليلٍ ظهر رجلٌ ضخم، يرتدي معطفًا طويلًا، ذو وجهٍ مُلتحٍ صارم — ظنَّت الفتاة قطعًا أنه روسي — وتقدَّم نحو المُشرف وتحدَّث إليه بجِدية. ثم اتجه الاثنان نحو سُلَّم العربة، فهُرِعت جيني إلى كابينتها الصغيرة الضيقة، وتركت الباب مُواربًا بمقدار بوصةٍ واحدة. بعد لحظةٍ جاء الرجلان وهما يتحدَّثان معًا بالفرنسية.

كان صوت الرجل الضخم خشنًا، ويتحدَّث الفرنسية بطريقةٍ يتضح منها أنها ليست لغتَه الأصلية.

سأل الرجل بصوتٍ أجش: «متى علمتَ أنه قد غيَّر غرفته؟»

أجاب المشرف: «بعد ظهر اليوم فقط.»

«هل صنعتَ ثقوبًا بين هذه الكابينة والكابينة المجاورة؟»

«أجل يا سيدي؛ لكن أزوف لم يُخبرني ما إذا كنتَ تُريد الثقوب في الأعلى أم في الأسفل.»

أجاب الروسي: «في الأسفل بالطبع، أيُّ أحمق قد يعرف ذلك؛ فالغاز يرتفع حتمًا لا يهبط، ثم عندما يشعُر بتأثيره ويَخرُّ ساقطًا، سيُحاط بطبقة غاز كثيفة للغاية، بينما إذا وضعناه في الأعلى، وسقط هو لأسفل، فسيُحاط بالهواء النقي، ومن ثمَّ قد يهرب. هل صنعتَ الثقب فوق السرير العلوي؟»

«أجل يا سيدي، لكني صنعتُ واحدًا في الأسفل أيضًا.»

«حسنًا، يُمكننا بسهولةٍ سَدُّ الثقب العلوي. هل أحكَمتَ النافذة كي لا تُفتح؟ فأول ما يفعله هؤلاء الإنجليز هو فتح نافذة.»

«النافذة مُغلَقة بإحكامٍ يا سيدي، ما لم يُكسَر الزجاج.»

«لا بأس، لن يُفكر في فعل ذلك إلا بعد فوات الأوان، فالإنجليز شعب يحترم القانون. كم الرُّكَّاب الآخَرون في العربة؟»

«عُذرًا، لقد نسيتُ أن أُخبرك يا سيدي، لقد حجزَت سيدة إنجليزية الكابينة «ب»، وهي بداخلها الآن.»

صاح الروسي بصوتٍ أجش: «لتَصُبَّ عليك الأرواحُ الشريرة جامَ غضبها! لماذا لم تقُل هذا من قبل؟»

ثم انخفض صوت حديثهما لدرجة أن جيني لم تستطع تمييز كلامهما. وبعد لحظة سمعت أحدَهما يطرق بابها، وكان لديها من الحضور الذهني ما يكفي لأن تذهب إلى الزاوية الأخرى وتقول بصوتٍ يغلبه النعاس:

«ادخل!»

ففتح المشرف الباب، وقال بالفرنسية:

«تذكرتُكِ، إذا سمحتِ يا سيدتي.»

سألته جيني: «ألا تتحدَّث الإنجليزية؟»

كرَّر المشرف سؤاله فحسْب، وبينما كانت جيني تهزُّ رأسها؛ نظر الروسي الضخم من فوق كتف المشرف وقال بلغة إنجليزية مقبولة:

«إنه يطلب تذكرتكِ يا سيدتي. ألا تتحدَّثين الفرنسية؟» وردًّا على هذا السؤال المباشر، أجابت جيني، وهي تبحث في حقيبتها عن التذكرة:

«أنا أتحدث الإنجليزية، وقد أظهرتُ له تذكرتي من قبل.» وناوَلَتْ تذكرة عربة النوم ذات الورقة العريضة إلى الروسي، الذي دفع المشرف جانبًا ووقف الآن داخل الكابينة.

وقال: «لقد حدث خطأ؛ فالكابينة «ج» هي التي حُجِزَت لكِ.»

قالت جيني: «أنا مُتأكدة من عدم حدوث أي خطأ؛ لقد حجزت السريرَين رقمَي ٥ و٦. انظر، ها هي الأرقام.» ثم أشارت إلى اللوحة المعدنية المُثبَّتة على الباب، «وها هما نفس الرقمَين اللذين تحملهما التذكرة.»

هزَّ الروسي رأسه.

«لقد حدث الخطأ في مكتب شركة عربات النوم. وأنا مدير الشركة.»

سألت جيني ببراءة: «حقًّا؟ وهل الكابينة «ج» مُريحة مثل هذه؟»

أجاب الروسي: «إنها نسخة طبق الأصل من هذه الكابينة يا سيدتي، بل هي مريحة أكثر؛ لأنها أقربُ إلى وسط العربة.»

«حسنًا، ولا مشكلة في حجزي للسريرَين، أليس كذلك؟»

«بالطبع، لا يا سيدتي، إنَّ الكابينة بالكامل تحت تصرُّفكِ.»

قالت جيني: «حسنًا، في هذه الحالة، ليس لديَّ أيُّ اعتراضٍ على التغيير.»

كانت تعلم أنها ستُجبَر على التغيير، بغضِّ النظر عن صحة تسجيل تذكرتها، ومن ثمَّ رأت أنَّ من الأفضل أن تلعب دور الفتاة البسيطة المُغتربة، وعدم إحداث ضجةٍ قدرَ الإمكان حول تغيير الكابينة، وعليها أن تُراجع ترتيب الكبائن في ذهنها. فهي الآن في الكابينة «ج»، التي حجزتها السفارة البريطانية في البداية. كان من الواضح أنه في اللحظة الأخيرة قرَّر المبعوث أن يأخذ الكابينة «أ»، المكوَّنة من أربعة أسِرَّة في نهاية العربة. وأخذَت الشرطة بعد ذلك الكابينة «ب»، التي كانت محجوزة لجيني في البداية، ومن خلال المحادثة الصغيرة التي سمِعتْها، فهمت جيني أنهم يعتزمون قتل المبعوث الذي يحمل الرسالة المهمة أو تخديره. وهكذا لم تأتِ الشرطة هنا للحماية، ولكن للهجوم. ركَّز هذا التعقيدُ المُذهِل في المؤامرة كلَّ تعاطف الفتاة مع الرجل التعيس الذي هو مجرد رسول بين شخصيَّتَين رفيعتَي المستوى، على الرغم من أنه يُسافر على ما يبدو تحت حماية

السفارة البريطانية في سانت بطرسبرج. وبوضوحٍ تام، فإن حقيقة أنها كانت تنوي سرقته إذا سنحَت الفرصة، تجسَّدت أمامها مثل شبحِ اتهام، فصرخَت في نفسها: «لن أقبل بأي مهمة كهذه مرةً أخرى، أبدًا، أبدًا.» وهي الآن مُصرَّة على مساعدة الرجل الذي كانت تنوي الإيقاع به. وستنتظر وصوله إلى ممر العربة حتى تُحذِّره من خلال سرْد ما سمعته. كانت قد خلعت قُبعتها عند دخولها الكابينة. والآن ارتدَتْها على عجَل، ودفعت دبوسًا طويلًا خلالها، وعندما نهضت، حدثَت رجَّة في القطار جعلتها تجلس مرةً أخرى على عجلٍ إلى حدٍّ ما، وعبر نافذتها رأت أنوار المحطة تبتعِد، حيث بدأ القطار في التحرُّك، فصاحت بحرارة: «حمدًا لله! لقد تأخَّر المبعوث عن موعد القطار. ستذهب مؤامرةُ أولئك الأشرار سُدًى.»

ونظرت إلى الأعلى نحو السقف، فلاحظَت وجود ثقبٍ يبلغ قطره حوالي بوصةٍ واحدة محفور في الحاجز الخشبي الرقيق بين كابينتها والكابينة التالية. وعندما التفتت إلى الحائط خلفها، رأت أن هناك ثقبًا آخَرَ قد حُفِر في موضعٍ مُماثل عبر الكابينة «ب»، وهكذا جُهِّزَت العربة جيدًا من أجل هذه المهمة. فضحكت جيني بصوتٍ خفيض وهي تتصوَّر خيبة الأمل على وجوه المتآمرين. كان القطار يندفع بسرعةٍ عبر ضواحي سانت بطرسبرج، عندما ذُهِلت جيني بسماع صوت شخصٍ غريب يقول بالفرنسية:

«أيُّها المشرف، أنا مَنْ حجزت الكابينة «أ»؛ فأين توجد؟»

أجاب المشرف: «إنها هناك يا سيدي.» بدا أنه يُنادي الجميع بهذه العبارة «يا سيدي.» شعرَت جيني، التي نهضت على قدمَيها مرةً أخرى، بالذُّعر عندما علمت أن المبعوث قد جاء، وسمعت صوت باب كابينته يُغلَق، وهكذا عَمَّ الصمتُ أرجاء المكان باستثناء صوت القطار الذي يتحرك بسرعة. ظلت جيني واقفةً هناك لبضع لحظاتٍ وهي مُتوترة من الانفعال، ثم ذكَّرَت نفسها بالفتحة الموجودة بين كابينتها الحاليَّة والكابينة التي تركَتها مؤخرًا. فقفزت على المقعد، ووضعت عينها ببعض الحذَر على الثقب، واسترَقَتِ النظر من خلاله. في البداية ظنَّت أن الكابينة خالية، ثم لاحظت وجود أسطوانة ضخمة في نهايتها بجانب النافذة وصلت إلى السقف تقريبًا. كان مصباح الكابينة يُضيء ويُظهِر كلَّ شيءٍ بوضوح، فاستطاعت رؤية كل تفاصيلها، باستثناء الأرضية. ثم ارتفع ظَهر رجلٍ ببطء، بعد أن كان فيما يبدو جاثيًا على رُكبتَيه على الأرض، وهو يُمسك بيده لفة أنبوب مطاطي. فنظرت إلى الأسفل ورأت أنها مُتصلة بالأسطوانة، وأنها بلا شك تضخُّ الغاز الذي تحتويه الأسطوانة من خلال الثقب إلى داخل الكابينة «أ». وللحظةٍ، واجهت جيني صعوبةً في

كَبْتِ صرخة، لكنها أدركَت أنها غير قادرة على تقديم المساعدة مُطلقًا، حتى لو أُطلِق إنذار، ولذا قاومَت رغبتها في الصراخ، ورأتْ أن الرجل الذي كان يُنظِّم ضخَّ الغاز ليس نفسه الذي تحدَّث إلى مشرف العربة. وانتباها الخوف من أن يُدير رأسه ويلمح عينها عبر الفتحة الصغيرة، فمدَّت يدَها وغطَّت المصباح، وتركت كابينتها في ظلام دامس. كان الغطاء المُزدوَج، الذي غطَّت به المصباح شبه الكروي مثل جفن العين عندما تُغلقه، يمنع وصول أي شعاع ضوء إلى كابينتها.

عندما عادت جيني إلى تجسُّسها مرةً أخرى، سمعت صوتَ طَرْقٍ على الباب في الكابينة «أ» جعله يُطقطق، ثم صوت سقوط جسمٍ ثقيل على الأرض. وفُتح باب الكابينة «ب»، فرأت رأسَ الروسي الأول، الذي تحدَّث بلغته الخاصة كلمةً فظَّة واحدة. فأغلق مُساعِده المَحْبَس وأوقف ضخَّ الغاز من الأسطوانة. ثم أغلق باب الكابينة «ب» على الفور مرةً أخرى، وسمعت جيني صوت المفتاح أثناء محاولة فتح الكابينة «أ».

فقفزت جيني عن المقعد، وألقت قُبعتها، وبأقلِّ قدْر ممكن من الضوضاء، وارَبَت بابها للخلف بمقدار بوصةٍ أو اثنتين. فرأت المُشرف يفتح باب الكابينة «أ»، والروسي الطويل يقف بجانبه ويقول بصوتٍ هامس:

«لا تقلق على الرجل، سوف يتعافى بمجرد فتح الباب والنافذة، احصل على الصندوق. وأمسك أنفك بأصابعك وأغلِق فمك. ها هو الصندوق الأسود في الزاوية.»

انحنى المشرف تجاه زاوية الكابينة وحمل صندوق مراسلاتٍ أسودَ عاديًّا إلى الخارج.

بدا الشرطي مُجهَّزًا تمامًا بالمواد اللازمة لغرَض السطو. فقد اختار مفتاحًا من وسط مجموعة مفاتيح، وجرَّبه ثم جرَّب الثانيَ والثالث، ومن ثمَّ فتح غطاء الصندوق. فأخرج رسالة مُشابهة تمامًا للرسالة التي بحوزة جيني؛ لدرجة أنها تفقَّدَتها لتتأكَّد أنها لا تزال في جيبها، ثم وضع الروسيُّ المظروف بين رُكبتَيه وأغلق الصندوق. ولم يَدُر بباله أن نسخةً وهمية قد وُضِعَت مكان النسخة الأصلية. فتصرَّفت جيني بسرعة، حيث فتحت البابَ بهدوءٍ وخرجت إلى الممر، بينما الرجلان مُنهمكان في عملهما فلم يرَها أحدٌ منهما. أعاد الرجل الطويل الصندوق إلى المُشرف، ثم أخذ الرسالة من بين رُكبتَيه وأمسكها بيده اليمنى، وفي ذات اللحظة تمايلت جيني تجاهه، كما لو كانت تتمايل بسبب حركة القطار، وبخفة يدٍ من شأنها أن تضعها في مصافِّ مُقدِّمي الألعاب السحرية، انتزعت الرسالة من يد الرجل المندهش والمتوتر؛ وأسقطَت الرسالة الزائفة على أرضية العربة من يدها الأخرى. كان المشرف قد خرج للتوِّ من الكابينة «أ»، مُمسكًا أنفه وبدا مُضحِكًا للغاية وهو

يقف هناك في هذا الوضع، ومندهشًا من الظهور المفاجئ للسيدة. فضربَ الروسيُّ أصابع المشرف بيده اليمنى، وبحركة سريعة من يده اليسرى أغلق باب الكابينة «أ»، وحدث كل ذلك في عُشر الوقت الذي استغرقه وصف الموقف.

صاحت جيني بالإنجليزية: «معذرة! لقد دفعني تأرجُّح العربة تجاهك.»

وقبل أن يرد، ألقى الروسي نظرة على الأرضية ورأى المظروف الكبير مُلقًى هناك وختمه في الأعلى. فوضع قدمه الضخمة عليه بهدوء، ثم قال مُتصنعًا التأدُّب:

«لا عليكِ يا سيدتي. أخشى أن أكون ضخمًا للغاية لدرجة أنني أشغل معظم مساحة الممر.»

قالت جيني: «إنه لطفٌ بالغ منك أن تقبل اعتذاري، لقد خرجتُ فقط لأسأل المشرف عما إذا كان سيُرتِّب السرير داخل كابينتي، هل تتكرَّم وتُترجم ذلك إليه؟»

طلب الروسي من المشرف أن يمتثل لطلب السيدة، فأجاب بصوتٍ خافت، وترجمَ الروسي الرد.

«سيُصبح في خدمتكِ خلال لحظاتٍ قليلة يا سيدتي. ولكن عليه أولًا ترتيبُ الكابينة «أ».»

قالت جيني: «حسنًا، شكرًا جزيلًا؛ لستُ في عجلةٍ من أمري؛ في أي وقت في غضون الساعة سيفي بالغرض.»

بعد ذلك عادت مرةً أخرى إلى كابينتها، وقد أخفت الرسالة الحقيقية في ثنايا فستانها، وتركَت الزائفة على الأرض تحت قدم الروسي. ثم أغلقت البابَ بإحكام، وتأكَّدت من عدم مُراقبتها من خلال أيٍّ من الثقوب التي صنعها مشرف العربة في الحاجز، ووضعت الوثيقة الهامة بسرعة في جيبٍ داخلي عميق بسُترتها. بصفةٍ عامة، تُوجَد جيوب داخلية في رداء المرأة، وجيوب خارجية في سترتها، لكن جيني، نظرًا لأنها تتعامل مع العديد من الوثائق في سياق عملها، كانت قد زوَّدَت هذه السترة بجيبٍ داخلي عميق وواسعٍ خصوصًا لهذا الغرَض. ثم جلسَت على زاوية المقعد متسائلة عن مصير المبعوث المسكين، فعلى الرغم من إغلاق الباب على نحوٍ مفاجئ من قِبَل الروسي، فقد لمحت الرجل المُستلقيَ على الأرض داخل كابينته بعد ضخ الغاز إليها. كما أنها استنشقت نفحةً من الغاز الثقيل غير السام الذي استُخدِم، والذي يبدو أنه انتشر الآن في مُحيط العربة بالكامل، لا سيَّما في الممر الطويل الضيق. لم يكن من المُرجَّح أنهم يعتزمون قتل الرجل؛ إذ إن موته سيُسفر عن تحقيقٍ صعب، في حين أن أقواله بأنه خُدِّرَ قد تُنكَر بسهولة. وبينما كانت جالسة

هناك، لم يقطع صمتَ المكان سوى صوتِ ضجيج القطار المنخفض، وبعد فترةٍ سمعت صوتَ ارتطام الأسطوانة المعدنية بالحاجز الخشبي للكابينة المجاورة؛ إذ من الواضح أن الرجال كانوا يُزيلون أجهزتهم. وبعدها، تباطأت سرعة القطار، حتى توقَّف في النهاية، فنظرَت من النافذة إلى الظلام، ووجدت أنهم توقفوا عند محطةٍ ريفية ذات إضاءة ضعيفة. فغطَّت مصباح السقف مرةً أخرى لكي تتمكن من رؤية الخارج بوضوحٍ أفضل، دون أن يُلاحظها أحد، ثم لاحظت المشرف ورجلًا آخر يضَعان الأسطوانة الضخمة على رصيف المحطة، دون بذْل أدنى جهدٍ لإخفائها. ووقف الروسي الطويل القامة بجانبهم وأصدر أوامره باقتضاب. وبعد لحظاتٍ، تحرَّك القطارُ مرةً أخرى، وبعدما انطلق القطار مواصلًا رحلته، سمِعَت جيني طَرقةً على بابها. وعندما فتحته، قال المُشرف إنه سيُرتب سريرها الآن، إذا كانت تودُّ ذلك. فوقفت خارجًا في الممر بينما أنهى الرجل عمله ببراعةٍ وسرعة. ولم تستطع كبح فضولها تجاه الراكب الغامض في الكابينة «أ»، ولإشباع فضولها، سارت ببطءٍ ذهابًا وإيابًا في الممر، عاقدةً يدَيها خلف ظهرها، ومرَّت أمام باب كابينتها المفتوح عدة مرات، فلاحظت أن المشرف يُراقبها في شَكٍّ.

كان باب الكابينة «أ» مفتوحًا على نحوٍ جزئي، لكن المصباح المُغطَّى في السقف ترك الداخل غارقًا في الظلام الدامس. لم يعُد هناك الآن أيُّ أثرٍ للغاز المُخدِّر في الممر، وبينما كانت تمر أمام الكابينة «أ»، شعرت بهبوب نسيمٍ مُنعش عبر المدخل المفتوح جزئيًّا، ومن ثَمَّ استنتجت أن النافذة قد فُتِحَت. وبمجرد أن مرت أمام باب كابينتها، رأت المشرف مشغولًا بمهمة من شأنها أن تمنعه من النظر إلى الممر لمدة دقيقة على الأقل، فاستغلَّت تلك اللحظات لتهدئة شكوكها حيث اشرأبَّت برأسها بسرعةٍ داخل الكابينة «أ» وألقت نظرةً خاطفة. فرأت الرجل في وضعٍ مُمَدَّد على المقعد ووجهه نحو الحائط ورأسه على وسادة. بينما كان صندوق المراسلات موجودًا في زاوية المقعد حيث كان قد تركه بلا شك. كان الرجل يتنفَّس بصعوبةٍ مثل رجلٍ وقعَ تحت تأثير الشراب؛ لكن هواء الكابينة أصبح نقيًّا ومنعشًا، ولذا فإنه حتمًا سوف يتعافى.

استمرت جيني في السير ذهابًا وإيابًا، وهي تُفكر مَليًّا فيما حدث. في البداية، عندما حصلت على الوثيقة المهمة، قرَّرت إعادتها إلى المبعوث، لكنها عندما تفكَّرت في الأمر أكثرَ دفعَها ذلك إلى تغيير رأيها. لقد تعرَّض المبعوث للسرقة من قِبَل الشرطة الروسية، وسيُخبر رؤساءه بما حدث بالضبط، ومع ذلك ستصل الرسالة إلى وجهتها بسرعةٍ كما لو كان قد أحضرها بنفسه، وكأن شيئًا لم يحدُث له على الإطلاق. ولأنها تعرف الهدف

الذي كان يدور في ذهن السيد هاردويك، رأت جيني أن الرسالة الآن تضاعفت قيمتها عشرات المرَّات عما لو كانت قد أخذتها هي من المبعوث. كان من الواضح أن السفارة البريطانية، أو المبعوث نفسه، لديه شكوك في أن هناك محاولةً ستحدُث من أجل سرقة الوثيقة، وإلا فلِمَ استُبدِلَت كابينته بأخرى في اللحظة الأخيرة. إذن، يمكن لرئيس التحرير أن يُخبر المسئول قائلًا: «لقد سرقَتِ الشرطة الروسية رسالتك من الشخص الذي أرسلته على الرغم من كل الاحتياطات التي يُمكن اتخاذها، بينما استطاع المبعوث الخاص بي أن يخدع الروس ويستردَّ الرسالة. وهكذا، كما ترى، لقد أنجزتُ ما عجزَتْ سلطة الحكومة البريطانية بأكملها عن تحقيقه، ولذا سيكون من الحكمة أن تتصالح معي.»

قرَّرت جيني أن تُخبر هاردويك كيف حصلَت على الوثيقة بالضبط؛ فهي تعرف جيدًا طبيعتَه اليقظة، ولذا فهي متأكدة من أنه سيستفيد إلى أقصى حدٍّ من البطاقة الرابحة التي حصل عليها.

قال المشرف باللغة الفرنسية: «الكابينة جاهزة الآن.»

كان ذهنها حاضرًا بما يكفي كي تتصنَّع أنها لم تفهم عبارته، إلى أن شرح معناها بحركةِ يده. ثم دخلت كابينتها وأغلقَت الباب.

وبعد أن قرَّرت ما ستفعله بالوثيقة المهمة، تبادرت إلى ذِهنها مشكلة مُقلقة، وهي موقف الشرطة الروسية مما فعلَتْه وما إذا كانت ستسمح لها بالإفلات بفَعْلتها. فكَّرَت في الموقف بعناية وحاولت إجراء حساباته في ذهنها. فالقطارات نادرةٌ على خطوط السكك الحديدية الروسية، ولم تكن لديها أيُّ وسيلةٍ لتقدير الوقت الذي سيعود فيه ذلك المتوحش قوي البنية الذي خطَّط للسرقة ونفَّذها إلى سانت بطرسبرج. ولم يكن لديه حتمًا أوامرُ بفتح الرسالة وقراءة محتوياتها؛ هذا الامتياز فيما يبدو مسموحٌ به فقط لمسئولٍ أعلى في سانت بطرسبرج. ترجَّل رَجُلا الشرطة عند أول توقُّفٍ للقطار، ومن الوارد جدًّا ألا يصِلا إلى العاصمة قبل صباح اليوم التالي، حينها يكون قطار برلين السريعُ قد اقترب من عبور الحدود. وبمجرد عبورها ستكون في مأمن، ولكن في اللحظة التي سيكتشفون فيها أن المظروف المسروق يحتوي فقط على نسخةٍ من صحيفة إنجليزية، فسيكون المجال مفتوحًا لحدوث أي شيء. هل يُمكن للسلطات الروسية أن تُرسل برقيةً إلى الحدود لتفتيشها، أم أن المسئول الكبير الذي خطَّط لعملية السطو سيشتبه في أنها المسئولة عن اختفاء الرسالة المطلوبة بشدةٍ بسبب خفَّة يدها؟ وحتى لو اشتبه بها، فمِن المؤكَّد أن ذكاءه لن يخونه ليعترِف بشيءٍ مثل هذا. وستكون خُطته هي التأكيد على أن هذه هي الوثيقة الحقيقية

التي كانت موجودةً في صندوق مراسلات الرجل الإنجليزي، وهو أمر مُرجَّح للغاية مع أخذِ تغيير الكابينة في الاعتبار في اللحظة الأخيرة؛ ممَّا سيُظهر للمسئولين ارتيابَ المبعوث أو مَنْ أرسلوه، وسيُصبح التخمين الطبيعي أن هناك مبعوثًا آخر قد ذهب بالوثيقة الحقيقية، وأنَّ الرجل المسروق كان مُجرَّد خُدعة لتضليل الشرطة الروسية. على أي حال، خَلُصَتْ جيني إلى أنه لم يكن هناك شيء لتفعله على الإطلاق سوى البقاء مُستيقظة طوال الليل، وحراسة الكنز الذي منحها إيَّاه الحظُّ السعيد. وقفتْ على سريرها، وهي على وشك وضع منديلها داخل الثقب المحفور في الحاجز، لكنها توقفت فجأةً ونزلت على الأرض مرةً أخرى. فعلى الرغم من أنها مُنزعجة من البقاء في مكانٍ عُرضَة لأي تجسُّس مُحتمَل، فإنها لم تجرؤ على سدِّ الثقوب؛ لأن ذلك سيكشف أنها كانت على علمٍ بوجودها، وسيُثير ذلك شكَّ المشرف في أنها فهِمت في النهاية ما قيل، بينما إذا تركتها كما هي، فإن هذا سيُصبح تأكيدًا قويًّا على جهلها بالمُخطط. وهكذا أخذت من حقيبتها وشاحًا، وربطت أحد طرَفَيه حول معصمها والآخر في الباب، حتى لا يُفتَح، إذا غَطَّت في النوم، دون إيقاظها. وقبل أن تُحصِّن نفسها على هذا النحو، غطَّت المصباح وعَمَّ الظلامُ غرفتها، حتى إذا تجسَّس عليها أحد، فلن يرى الوشاح الأسود الذي يصِل بين معصمها والباب.

وعلى الرغم من خطورة موقفها، فقد واجهت صعوبةً بالغة في البقاء مُستيقظة؛ إذ كان لِدَمدمة القطار تأثيرٌ مُهدئ للغاية، وقد استفاقت مرة أو مرتَين مَخافةَ أن تغطَّ في نومٍ عميق. وبمجرد أن شعرت بضيقٍ في حلقها، ونزلت بقدَمِها على الأرض، حيث رأت الغاز المُتصاعِد يظهر بطريقةٍ ما، مثل لون الدم. ولكن جذبَها الوشاح لتجثُوَ على رُكبتَيها، وظنَّت للحظةٍ أن شخصًا ما يُمسك معصمها. ففكَّت الوشاح وهي تلهث ورفعت الغطاء عن المصباح لتُضيء الغرفة مرةً أخرى. كان قلبها ينبض بسرعة، لكن كل شيءٍ كان لا يزال في موضعه، باستثناء الدَّمدَمة المُستمرة للقطار المندفع عبر الظلام يشقُّ طريقه فوق سهول روسيا المُترامية الأطراف. ونظرت إلى ساعتها الصغيرة، فوجدَتْها تُشير إلى الثانية صباحًا. وعرَفَت حينها أنها قد غَطَّت في نومٍ عميق على الرغم من عزمها القوي على أن تبقى مُستيقظة. كانت الرسالة لا تزال في الجيب الداخلي لسُترتها، وكل الأمور تبدو على ما يُرام في الثانية صباحًا. لم يبدُ أن هناك مَن تجسَّس عليها عبر الفتحات، ولذا غَطَّتِ الضوءَ مرةً أخرى واستلقَت على السرير مُجددًا، وهي تتنهَّد بينما تُفكر كيف سيبدو زيُّها اللطيف مُجعَّدًا في الصباح. وهي الآن مصرَّة على ألا تنام، إذا كانت عزيمتها ستُبقيها مُستيقظة. وبعد لحظةٍ أفزعَها صوتُ شخصٍ ما يضرب حاجز الكابينة بفأس.

فقفزت، ومرةً أخرى سحبها الوشاح للخلف، وفكَّته من حول معصمها ولاحظت أن ضوء النهار يغمر الكابينة، وقد أذهلها هذا. فكيف يُمكن أن يسطع ضوء النهار بهذه السرعة؟ هل غَطَّت في النوم مرةً أخرى، وهل الضرب المُتخيَّل عند الباب بفأسٍ مجرد خاتمة لحُلْمٍ سبَّبَته طرقات المشرف؟ بعد توقفٍ لاهث سمعت طَرقةً رقيقة على بابها، وصوت المشرف وهو يقول:

«الإفطار في لوجا يا سيدتي، خلال ثلاثة أرباع الساعة.»

فأجابت بالإنجليزية وصوتها يرتجف من الخوف: «حسنًا.» ثم فكَّت الوشاح من الباب ببطءٍ ووضعته في حقيبة يدِها. وارتبكت على الرغم من جهودها لضبط النفس؛ إذ عرَفَت أنها غَطَّت في النوم طوال الليل حتى وقتٍ طويل من الصباح. ووسط انفعالها فكَّت أزرار سُترتها لتتحسَّس الرسالة في جيبها الداخلي. أجل؛ كانت الرسالة هناك، حيث وضعتها بالضبط. إنها لا تجرؤ على إخراجها وفحصها؛ خوفًا من أن تكون مُراقَبة من مكانٍ ما غير مرئي، لكن «الحمد لله»، هكذا قالت لنفسها بحرارة، «لقد مضَت هذه الليلة الرهيبة. وبمجرد عبور الحدود سأكون في مأمن.» وحاولت مدَّ ملابسها ونفْضَ الغبار عنها قدْر الإمكان، وانتعشت كثيرًا عند اغتسالها بالماء البارد، وهو أحد عناصر الرفاهية في عربة النوم.

الفصل التاسع عشر

جيني تتعرَّض لأكبر مفاجأةٍ في حياتها

في الساعة التاسعة، توقَّف القطار الطويل في لوجا، متأخرًا سبع عشرة دقيقة، وكان في ذلك مُتَّسَعٌ من الوقت لكي يتناول الرُّكَّاب إفطارهم بتأنٍّ في بوفيه المحطة. وقد اكتظ المطعم بالعديد من الرُّكَّاب، ويبدو أن معظمهم لم يكونوا في كامل يقظتهم بعد، في حين كان العديد منهم غير مُهندَم وأشعث، كما لو كانوا لم يحصلوا على قسطٍ وافٍ من النوم ليلًا.

وجدَت جيني طاولةً صغيرة فجلست إليها وطلبت قهوتها وبعضَ المخبوزات من النادل الذي جاء ليخدمها. وبينما كانت تتطلَّع في ملامح المُرافقين داخل المطعم القادمين من كل الأرجاء وتستمع إليهم وهم يتحدثون العديد من اللغات التي أضفى مزيجها مُحيطًا صاخبًا على أجواء المطعم، أخذت جيني تُفكر في التجارِب الغريبة التي مرَّت بها منذ مغادرتها لندن. وبدا لها أنها كانت تُشارك في كابوس مُروِّع، وارتجفت عندما فكَّرت في مسألة الخروج على القانون ومُخالفته، تحت مظلة القانون، في هذه الإمبراطورية الكبيرة والاستبدادية، حيث يقع حتى الحاكِم تحت مراقبة مرءوسيه، وليس بإمكانه إرسال رسالة خارج دولته في أمان، إذا أراد ذلك. وخلال حلم اليقظة الذي راوَدَ جيني، أدركت، وهي نصف واعية، أنَّ هناك رجلًا يقف أمام طاولتها؛ ثم صدر صوتٌ جعل قلبها يكاد يتوقَّف:

«الأميرة المفقودة!»

وضعَت يدَها فجأة على حلقها، حيث بدا أن أنفاسها تخنقها، ثم نظرت إلى الأعلى ورأت اللورد دونال ستيرلنج مُرتديًا اللباسَ اليوميَّ العادي لرجلٍ إنجليزي، مهندمًا كما لو كان خارجًا من منزله وليس قطارًا. مع ابتسامةٍ لطيفة مُرتسمة على شفتَيه وبريقٍ في عينَيه، لكن وجهه كان شاحبًا شحوبًا مُروعًا.

صاحت وهي تنظُر إليه بعيونٍ يملؤها التعجُّب والخوف: «لورد دونال! ماذا حدث لك؟»

أجاب الشابُّ محاولًا كتم ضحكته: «لا شيء، لا شيء، أهمُّ ما يَعنيني الآن هو أنني وجدتُكِ أيَّتها الأميرة. لقد قضيتُ ليلةً مُرهقة، هذا كل شيء، وأُعاني من تبعاتها هذا الصباح. هل أستطيع الجلوس؟»

ثم جلس مُتثاقلًا على كُرسي في الجانب الآخر من الطاولة، مثل رجل مُنهَك تمامًا لم يعُد بمقدوره مواصلة الوقوف، وأكمل حواره:

«مثل كل الرجال المُرهَقين، سوف أُفطر على المُنبِّهات. أيُّها النادل، أحضر لي كوبًا كبيرًا من أفضل مشروب براندي لديك.»

تدخَّلَت جيني وقالت بالفرنسية: «أيُّها النادل، وأحضر معك وجبتَي إفطار؛ أتصوَّر أنك بحاجة إلى تناول الإفطار الآن يا لورد دونال؟»

قال: «لقد طلبتُ إفطاري، ومع ذلك، فأنا بحاجةٍ إلى تناول مشروب البراندي، وللأسف لم أُحضِر معي بعضًا منه، ولذا يجب أن أشرب الأشياء الحقيرة التي يُسمُّونها أفضلَ ما لديهم هنا.»

أصرَّت قائلة: «عليكَ أن تأكُل أيضًا.» كما لو كان مسئولًا منها ولها كلُّ الحق في فعل ذلك.

«سأفعل كلَّ شيء تطلُبينه؛ فأنا سعيدٌ للغاية لرؤيتكِ جالسة أمامي، لكن لا تتفاجَئي إذا كانت شهيتي ضعيفة للغاية.»

سألته بجدية: «ما الأمر؟ أنت تبدو مريضًا للغاية.»

أجاب وهو يخفض صوته: «لقد خُدِّرتُ وسُرِقْتُ، لقد شارفتُ على الموت بالفعل. قضيتُ ليلةً في عالَم الموتى، وهذا الصباح أتحرك بصعوبةٍ تامة؛ لكن رؤيتكِ أيَّتها الأميرة تُشعِرني حقًّا بأنني لا زلتُ أنتمي إلى أرض الأحياء!»

قالت الفتاة وهي تنأى بنظرها لأسفل نحوَ مفرش المائدة: «أرجوك لا تدعوني بالأميرة.»

«إذن بماذا أدعوكِ أيَّتها الأميرة؟»

قالت بصوتٍ مُنخفض: «اسمي جيني باكستر.»

سألها بلهفة: «آنسة جيني باكستر؟» مع التركيز على كلمة آنسة.

أجابت وهي ما زالت لا تنظُر إليه: «أجل؛ آنسة جيني باكستر.»

تراجع للخلف على كُرسيِّه وقال:

«حسنًا، إنَّ الحياة ليست قاسيةً رغم كلِّ ما عانيتُه، مَنْ كان يُصدِّق أنني قد أقابلكِ هنا في روسيا! هل زُرتِ سانت بطرسبرج إذن؟»

أوضحَت جيني على عجل: «أجل؛ فأنا أعمل صحفية، وعندما قابلتَني من قبلُ في الحفل، كنتُ مُتخفِّية، وكان ذلك تحديدًا بهدف كتابة تقرير عن الحفل لصحيفتي، ولا زلتُ عاجزةً عن شكرك على لُطفك معي في تلك الأمسية لورد دونال.»

قال الشاب في محاولةٍ واضحة للمرَح: «شكرُكِ جاء متأخرًا، كان يجب أن تُراسليني وتشكريني على لُطفي معك، لقد عرَفْتِ عنواني، وكانت الأصول تقتضي أن تُراسليني وتشكريني.»

قالت جيني، محاولةً إخفاء فرحتها: «كنتُ مُتردِّدة بشأن مُراسلتك، خوفًا من أن تكون رسالتي بمثابة دليل، ولم يكن لديَّ أيُّ رغبةٍ في التدخُّل في المهمة التي أسندْتَها إلى السيد كادبوري تايلور.»

صاح الشاب: «يا إلهي! كيف علمتِ بذلك؟ لا بدَّ أن الأميرة فون شتاينهايمر أخبرتكِ بذلك. لقد راسلَتني تتَّهمني بكل أنواع الخُبث لمحاولتي العثورَ عليكِ.»

«لا يا لورد دونال، لم أعلَم منها. في الواقع، لو أنك قد فتحتَ باب الغرفة الداخلية في مكتب السيد كادبوري تايلور على نحوٍ أسرع قليلًا، لوجدتَني أمامك؛ لأنني كنتُ المساعدةَ التي حاولَتْ إقناعه بأنك قابلتَ الأميرة فون شتاينهايمر بالفعل.»

فضحك اللورد دونال، للمرة الأولى، من صميم قلبه.

«حسنًا، إنه لأمرٌ مُدهش! وأعتقد أن كادبوري تايلور لم يكن لديه أدنى شكٍّ في أنكِ الشخص الذي كان يبحث عنه؟»

«ولا ذرَّة من الشك.»

قال اللورد دونال: «في رأيي! هذه أفضل نكتة سمعتُها منذ عشر سنوات.» وهنا، أحضر النادل الإفطار، فأخذت جيني تُصدِر تعليماتها إلى دونال قائلة:

«يجب أن تشرب جزءًا صغيرًا من ذلك البراندي وَضَعِ الباقي في قهوتك، ويجب أن تتناول فطورًا جيدًا، فهذا سيُساعدك على نسيان متاعبك، إذا كانت لديك أي متاعب حقيقية.»

قال الشاب: «متاعبي حقيقية بما فيه الكفاية؛ فعندما التقيتُ بكِ من قبل، أيَّتها الأميرة، كنتُ ناجحًا إلى حدٍّ معقول. لقد تحدَّثنا حتى عن أمورٍ تخصُّ السفراء، أليس

كذلك؟ على الرغم من حقيقة أن السفراء كانوا يتطفَّلون بلا داعٍ في تلك الليلة. والآن أنتِ ترَين أمامك رجلًا مُحطَّمًا. أجل، أنا لا أمزح؛ إنها الحقيقة، لقد كُلِّفتُ بمهمة، أو على وجه الدقة، رغم علمي بخطورتها، توسَّلتُ كي يُكلِّفوني بها. كانت المهمة هي مجرد نقل رسالة من سانت بطرسبرج إلى لندن، وقد فشلتُ فيها، وهذا كلُّ ما في الأمر، وها أنتِ ترَين النتيجة أمامك.»

صاحت الفتاة وقد احمرَّ وجهها لشعورها بالذنب؛ لأنها أدركَت أن هذا هو الرجل الذي أُرسِلَت لسرقته: «لكن بالتأكيد لا يُتوقَّع منكَ مواجهة محاولة القتل غيرِ القانونية التي كنتَ ضحيةً لها؟»

«هذا هو بالضبط ما كنتُ أتوقَّعه، وما افترضتُ أنه يُمكنني مواجهتُه. في مهنتي، التي تُشبه في مُجملها مِهنتَكِ لدرجةٍ كبيرة، باستثناء أنني أعتقد أنه يتعيَّن علينا الكذِبُ أكثر في مهنتنا؛ إذ لا يُوجَد في قاموس مِهنتنا مكانٌ لكلمة فشل. ربما تسمع أفضل الأعذار بالتسامُحِ وهزِّ الكتفَين، لكن الفشل، مهما كان السبب، هو الهلاك. لقد فشلت. لن أُقدِّم أيَّ أعذار. سأذهب إلى لندن وأقول: «لقد سرَقَتني الشرطة الروسية.» فحسب. وأنا أعرف جيدًا مَنْ خدعني، وكيف فعل ذلك. ثم سأُرسل استقالتي. سيقبلون ذلك بكلمات أسفٍ مُهذَّبة، وسيقول بعضهم لبعض: «يا له من مسكين، كان أمامه مُستقبل مِهني رائع، لكنه مُغيَّب أو شيء من هذا القبيل، وسقط في الفَخ.» حسنًا، لن نتحدَّث عن ذلك بعد الآن.»

«إذن أنت لا تحتقر مهنة الصحافة يا لورد دونال؟»

«أحتقِرها! قطعًا لا؛ أنا أُقدِّرها. فأنا أنتمي إلى مهنة أدنى مرتبةً بكثيرٍ بمقياس الأخلاق، كما قلتُ. لكن أيَّتها الأميرة، هل تستقيلين من صحيفتكِ إذا استقلتُ من العمل الدبلوماسي؟»

هزَّت الفتاة رأسَها ببطءٍ وهي تنظُر لأسفل نحو مفرش المائدة أمامها.

قال بتهوُّر: «سأُرسل استقالتي في برقية، إذا أرسلتِ استقالتكِ في برقية إلى صحيفتكِ.»

«أنت مريضٌ وقَلِق هذا الصباح يا لورد دونال، ولذا تنظر إلى الحياة نظرةً متشائمة. يجب ألا تستقيل.»

«حسنًا، لكن يجب أن أفعل هذا، فقد فشلتُ، وهذا يكفي.»

«هذا لا يكفي. يجب ألا تفعل شيئًا حتى تصِل إلى لندن.»

قال الشاب بجُرأة: «تُعجبني كلمتك «يجب» يا جيني، أتعرفين؛ إنها تُوحي بشيء.»

سألته وهي تنظر إليه: «بماذا تُوحي يا لورد دونال؟»

«تُوحي بأنكِ ستتوقَّفين عن مُناداتي بلقب «لورد».»

أجابت جيني: «لن يكون ذلك صعبًا للغاية.»

صاح سيادته: «يُسعدني أن أسمعكِ تقولين ذلك، والآن، لكي أعرف كيف يبدو الأمر من شفتَيكِ العزيزتَين، ناديني باسمي من غير لقب؛ فقط دون.»

«لا؛ لو أنني وافقتُ على حذف اللقب، فسأُناديك دونال؛ إذ يعجبني الاسم بكامله.»

مدَّ يدَه عبر الطاولة، وهو يقول: «هل أنتِ على استعدادٍ إذن لقَبول رجُلٍ تخلَّى عنه الحظ؟ أعلم أنني لو كنتُ من القالب الذي يُصنَع منه الأبطال، لتردَّدتُ في أن أهدي لكِ حياةً رديئة. لكني أحببتُكِ في اللحظة التي رأيتُكِ فيها، وتذكَّري بحثي غيرَ المُجدي عنكِ، لا يُمكنني المخاطرة بفقدانكِ مرةً أخرى؛ ليست لديَّ الشجاعة.»

وضعَتْ يدَها في يدِه ونظرتْ في عينَيه مباشرةً لأول مرة.

وقالت: «هل أنت مُتأكد يا دونال؛ فأنا لستُ مجرَّد دُمية تُعلَّق عليها الملابس البالية لعاطفةٍ قديمة؟ لقد كنتَ تعتقد أنني الأميرة في البداية.»

احتجَّ قائلًا: «لا، لستِ كذلك؛ فبمجرد أن سمعتُك تتحدَّثين، عرَفتُ أنكِ قدَري المُنتظَر.»

«احذَر يا دونال، إذ يقولون إنَّ تخلِّيَ العُشاق عن وعودهم يجلب الحظ السيئ. لا أعتقد أنك متأكد تمامًا رغم كل ذلك، لكنني أيضًا أفتقد الشجاعة، ولا أجرُؤ على رفضك.»

نظر اللورد دونال حوله فوجد المكان لا يَزال مُزدحمًا. ويبدو أن قطار برلين السريع قد منحهم وقتًا طويلًا لتناول الإفطار، ولم يكن في عجَلةٍ من أمره لاستكمال رحلته غربًا. ومن ثَمَّ عاود نظرتَه إليها وتنهَّد.

وهمسَ قائلًا: «يا له من مكانٍ غير مقدس، وغيرِ مناسب للتقدُّم بطلَب زواج! ومع ذلك فإنهم يُسمُّون روسيا الأرضَ المنعزلة الكبرى. حقًّا، لقد حصلنا على جزءٍ من هذه العزلة لأنفسنا بالكامل!»

جلسَت الفتاة هناك، وقد ارتسمت على شفتَيها الجميلتَين ابتسامةٌ اعتقدَ اللورد دونال أنها مُحيِّرة للغاية. ثم أعلن موظف السكك الحديدية بصوتٍ عالٍ أن القطار على وشك استئناف رحلته. فتعالَى صوت الأقدام بينما يتحرك الرُّكَّاب لأخذ أماكنهم.

قال اللورد دونال مُستغلًّا الارتباكَ والجلَبة: «إنَّ الإخوة والأخوات يُقبِّلون بعضهم بعضًا، كما تعلمين، قبل القيام برحلةٍ عبر السكك الحديدية.»

ولم تُبدِ جيني باكستر اعتراضها.

ثم همسَ قائلًا: «هناك مُتَّسَع من الوقت، وأنا أعرفُ طبيعة القطارات الروسية؛ فمواعيدها غير دقيقة؛ ولذا فأنا ذاهبٌ الآن إلى مكتب التلغراف، لأُرسِل استقالتي، وأريدكِ أن تأتي معي وتُرسِلي استقالتكِ.»

قالت الفتاة: «لا يا لورد دونال.»

سألها وهو مندهش: «ألن تستقيلي؟»

«بلى، ولكن في الوقت المناسب، أمَّا أنت فلن تستقيل.»

فصاح مُداعبًا: «أوه، يا لها من صيغة أمرٍ صريحة! سأُخبركِ بكل شيءٍ عن ذلك عندما نستقلُّ القطار.»

فقالت: «نعم، إني آمُرُك ألا تُرسِل استقالتك. أجل يا دونال، ولستَ بحاجةٍ إلى أن تنظُر إليَّ بهذا الاندهاش، وربما عليك أيضًا أن تعتاد الرضوخ لأوامري في الحال. لقد أحببتَني بمحض إرادتك، كما تعلم. ولا يُمكنك القول إنني شجَّعتُك. والدليل أنني راوَغْتُ كادبوري تايلور اليقِظَ بقدْر ما استطعت. والآن، إذا كان هناك وقت، فاذهب إلى مكتب التلغراف وأرسِل رسالةً إلى الأميرة الحقيقية، في قصر شتاينهايمر بفيينا. وأخبرها أنك قد تقدَّمت لخِطبة جيني باكستر وزواجها، واطلُب منها أن تُرسِل لك تهنئتها في برقيةٍ على برلين.»

أجاب الشاب بحماسة يعتليها السرور: «سأفعل ذلك.»

عندما خرج اللورد دونال من مكتب التلغراف، قالت له جيني: «انتظر لحظةً بينما أدخل عربة النوم كي أُحضِر سُترتي وحقيبة يَدي.»

صاح بتهوُّر: «سأذهب وأُحضرهما أنا.»

قالت: «لا، وسأُخبرك بالسبب فيما بعد. إنَّ مشرف عربة النوم شخصٌ وضيع وهو مُتواطئ مع الشرطة.»

قال اللورد دونال: «حقًّا، أنا أعلم ذلك، يا له من شيطانٍ ذليل، لا يستطيع أن يرفض؛ ويجب أن يفعل ما تأمره به الشرطة أثناء وجوده في روسيا.»

«سأُحضِر أشيائي وأذهب إلى عربةٍ عادية من الدرجة الأولى. عندما أعبر من هذا الباب، يجب أن تأخذ أشياءك وتلحق بي. لا يزال هناك مُتسَع من الوقت، ولا أُريد أن يرانا المشرف معًا.»

ردَّ الشاب مُمتثلًا لكلامها: «حسنًا.»

الفصل العشرون

جيني في حوارٍ مع شاب يروق لها كثيرًا

عندما عاود القطارُ التحرك، كانا يجلسان معًا في عربة رُكَّاب عادية بعيدة عن عربة النوم.

وقالت الفتاة: «أحد عيوبي هو أنني أتصرَّف أولًا ثم أُفكر بعد ذلك. وأشعر بالأسف الآن لأنني طلبتُ منك إرسال تلك البرقية إلى الأميرة.»

«لماذا؟»

«لأن لديَّ الكثيرَ لأُخبرك به، وربما ترغب في فسخ الخِطبة المُتسرِّعة التي تعهَّدتَ بها.»

صاح الحبيب المُتحمِّس: «أمرٌ مُحتمَل! في الواقع أيَّتها الأميرة، إذا كنتِ تعتقدين أنه يُمكنكِ التخلُّص منِّي بسهولة، فأنتِ مُخطئة للغاية.»

«حسنًا، أريد أن أُخبرك لماذا لم أسمح لك بتقديم الاستقالة.»

فكَّت الفتاة ببطءٍ أزرار سُترتها الكبيرة، ثم أمسكت بها من طية صدْر السترة بحيث لا يراها أحد، وسحبت جزءًا من الظرف الكبير من جيبها الداخلي حتى ظهر ختم السفارة بوضوح. فذُهِلَ اللورد دونال وجحظَت عيناه بشدة، وبدا أن أنفاسه قد توقَّفَت.

ثم شهق قائلًا: «هل تقصدين أنَّ الرسالة معكِ؟»

قالت وهي تُزرِّر سُترتها مرةً أخرى: «أجل، لقد سرقتُ اللصوص. أصغِ إليَّ، وسأُخبرك بكل ما حدث. لكن، أولًا، هل أنت مُسلَّح؟»

أجاب: «أجل، لديَّ مُسدس في جيبي لا يُجدي نفعًا ولم يُفدْني بشيءٍ أمس.»

«حسنًا، سوف نعبُر الحدود ظهر اليوم. إذا اكتشفَت السلطات الروسية قبل ذلك الوقت كيف خدَعتُهم، وإذا كان لديهم أي شكٍّ في كوني السببَ في ذلك، أليس من المُحتمَل أن يُلقوا القبض عليَّ ويُفتشوني بحُجةٍ أو بأخرى؟»

فكَّر اللورد دونال للحظة وقال: «يُمكنهم فعل ذلك بكل سهولة، لكن يا جيني، أنا سأُقاتل من أجلك ضد الإمبراطورية الروسية بأكملها، وسيتأذَّى شخصٌ ما إذا ورَّطوكِ في الأمر. ومع ذلك، ستتردَّد الشرطة قبل التورط مع مبعوثٍ من السفارة، أو أي شخصٍ تحت حمايته في وضح النهار داخل قطارٍ مُزدحم؛ ولذا، نحن لن نعود إلى عربة النوم تلك، لكن سنظلُّ هنا حيث يُوجَد بعضٌ من أبناء وطننا.»

قالت جيني: «هذا ما كنتُ سأقترحه، والآن استمع إلى القصة التي يجب أن أُخبرك بها، وبعد ذلك ستعرف تحديدًا لماذا أتيتُ إلى روسيا.»

قال الشاب على عجل: «لا تُخبريني بأي شيءٍ تُفضلين عدم الإفصاح عنه.»

أجابت الفتاة: «صحيحٌ أني أُفضِّل ألا أُفصح عنها، لكن لا بدَّ أن أُخبرك بها.»

ظلَّت تحكي حتى ساعاتٍ طويلة، وعندما انتهت صاحَ الشاب بحماسٍ ردًّا على سؤالها:

«ألومُكِ! لماذا؟ بالطبع لا ألومك على الإطلاق. لم يكن هاردويك هو مَنْ أرسلكِ إلى هنا، بل العناية الإلهية. لقد جمعَنا القَدَرُ يا جيني، وإيماني به فيما بعدُ لن يتزعزع.»

ضحكت جيني ضحكةً قصيرة راضية، وقالت إنها شعرتْ بالإطراء لأنَّ مَنْ جاء بها هو القدَر.

علَّق الشاب الجريء قائلًا: «ما هي إلا طريقة أخرى لأقول بأنكِ ملاك يا جيني.»

وهكذا عبَرا الحدود دون أن يعترضهما أحد، وبمجرد وصولهما إلى ألمانيا، أخذت جيني الرسالة موضوع النزاع وسلَّمتْها إلى حبيبها.

وهمستْ مع تنهيدةٍ قصيرة؛ إذ كانت تتخلَّى عن ثمار إنجازها الأعظم: «تَفضَّل، ضع هذه في صندوق المُراسلات خاصتك، وتأكَّد من بقائها فيه حتى تصِل إلى لندن. آمُل أن يُعجَب الروس بنسخة دايلي بيجل التي سيجدونها في مظروفهم.»

ومن ثمَّ تجاذبا أطراف الحديث معًا طوال الرحلة الطويلة إلى برلين. وعند الساعة الحادية عشرة مساءً، وصلا إلى محطة شلايشر أخيرًا، لكن بدا كما لو أنَّهما لم يبدآ حديثهما إلا الآن فقط، ولا يزال هناك بقية لحديثهما.

وتسلَّم اللورد دونال برقية من الأميرة في برلين.

قالت فيها: «أُهنئكما من أعماق قلبي؛ وأخبر جيني في المرة القادمة التي تراها فيها (ضحك اللورد دونال وهو يقرأ هذا بصوت عالٍ) أنَّ الحكومة النمساوية منحَتْها مكافأة

ثلاثين ألف جنيه إسترليني لمشاركتها في تمكينهم من استعادة الذَّهب، وأعتقد أن هذا أقلُّ ما يُمكنهم تقديمه لها مقابل ما فعلَتْه.»

صاح اللورد دونال: «والآن، أعتبر ذلك مُنتهى السخاء من الحكومة النمساوية، لقد اعتقدتُ أنهم سيُعلنون الحرب على إنجلترا عندما قرأتُ خطاب رئيس الوزراء لديهم، لكن بدلًا من ذلك، ها هم يُقدِّمون هدايا زفاف لفتياتنا الجميلات.»

قالت جيني: «كم هذا لطيف! هذا من طيبة قلب الأميرة ولُطف الأمير؛ فهو مَن سعى في طلب ذلك.»

«ولكن، تُرى ما الذي فعَلْتِه من أجل الحكومة النمساوية يا جيني؟»

«إنها قصة طويلة يا دونال، وأعتقدُ أنها مُثيرة إلى أبعد حَد.»

«حسنًا، لنشكر العناية الإلهية لأنَّ لدينا رحلةً طويلة حيث يُمكنكِ أن تحكيها لي وأن أستمع إليها.»

وبقول هذا، سمح الشاب الجريء لنفسه أن يُقبِّل رفيقته اللطيفة مُتمنيًا لها ليلةً سعيدة، هناك وسط كل الجلَبة والضجيج داخل محطة شلايشر بانوف في برلين.

وفي الصباح الباكر، التقى الاثنان مرةً أخرى في عربة المطعم. وعندئذٍ، كان القطار يمرُّ بمدينة كولونيا، مندفعًا بسرعة في ذلك الوادي الخلَّاب الذي يمر عبرَه نهر فيسدرا الصغير الهادر. ولم يكن بالعربة سوى اللورد دونال وجيني، فاختارا طاولةً بالقُرب من منتصف العربة وطلبا الإفطار. كان المنظر من ورائهما آسرًا، يُظهِر لهما من النوافذ الزجاجية العريضة والشفَّافة على كل جانب، في تتابع سريع، سلسلةً من المناظر الطبيعية الجديرة بالمُشاهدة؛ التِّلال ذات الأشجار الكثيفة، والمنازل الريفية المبهِجة، والتيَّار الهادر السريع المتلاطم الذي تعلوه رغوةٌ تُشبه الصوف. وبين الحين والآخر يبزغ جزءٌ من قلعةٍ قديمة مُتهالكة على المرتفعات، وفي أعماق الوادي، تجد طاحونةً مائية هنا وهناك.

وكان من الواضح تمامًا أن جيني قد حظيت بنومٍ هانئ عوَّضها عن الكابوس الذي مرَّت به في الرحلة الروسية. وتألقت في ملابسَ بسيطةٍ أنيقة للغاية، وبدَت عليها علامات النضارة والجمال مثل قطرة ثلج. لم يستطع الشابُّ المفتون أن يُشيح بعينَيه بعيدًا عنها، وعندما احتجَّت جيني بضحكةٍ رقيقة على انشغاله عن رؤية كل هذه المناظر الطبيعية الفاتنة، أجاب بأن لديه شيئًا أجمل بكثير يستحقُّ أن يُمَلِّي عينَيه منه، فتورَّد وجه جيني خجلًا مما أضفى عليها جاذبيةً أكثر مما كانت عليها، وابتسمت له دون أن تُبديَ أيَّ اعتراضٍ آخر. وسواء كان السببُ فرحته بالعثور على جيني، أو حصوله على قسطٍ وافر

من النوم، أو ارتياحه عندما اكتشف أن مسيرته المهنية لم تُدمَّر، كما تخيَّل، أو الثلاثة معًا، فقد بدا اللورد دونال وقد استعاد حيويته مرةً أخرى، مع وجهٍ مشرق ومرح ومُبتهجٍ مثل صبيٍّ عاد إلى منزله لقضاء عطلته. وهكذا استمتعا بوجبة الإفطار مع انتشاءٍ بأجواءٍ شبابية وشهيةٍ مُقبِلة على وجبةٍ لذيذة أُعِدَّت بكفاءة. قُدِّمت المخبوزات بلونها البُني المُميز ورائحتها الجذَّابة، وزبدة فاخرة وباردة في شكل موجاتٍ حلزونية لونها ذهبيٌّ رائع، والقهوة كما يجب أن تكون، والنادل يقف صامتًا ومُنتبهًا. وبهذا أصبحت المغامرة داخل روسيا كما لو كانت ذكرى شرٍّ تركاها خلفهما. وانطلق القطار مُسرعًا عبر مناظر طبيعية ساحرة باتجاه إنجلترا في رحلة العودة إلى وطنهما.

ثم أسند الشابُّ ظهره إلى كُرسيِّه، وشبَّك أصابعه خلف رأسه وأخذ ينظُر إلى جيني، وشعورٌ بالرِّضا التام يملؤه.

وقال: «رحلةٌ مبهجة.»

همست جيني: «نعم، إنها لطيفة جدًّا. لطالما استمتعتُ بالسفر إلى الخارج، لا سيَّما في رحلة تتَّسِم بالرفاهية. لكن، للأسف! الرفاهية تتطلَّب أموالًا باهظة، أليس كذلك؟»

«أوه، لا داعي للقلق، فأنتِ غنية.»

«هذا صحيح؛ كنتُ قد نسيت الأمر برُمته.»

«آمُل يا جيني أن حقيقة سفري على متن قطارٍ فاخر لم تخدعكِ بخصوص ثروتي. ويجب أن أُخبركِ أنني عادةً ما أحجز تذكرة الدرجة الثالثة عندما أُسافر بصفةٍ شخصية. إنني أستمتع بهذه الرفاهية المترفة على حساب دافعي الضرائبِ المُرغَمين في بريطانيا. وعندما أُسافر في مهمةٍ من أجل الحكومة البريطانية، أقول، كما قال «بوه باه» مُحدِّثًا «كوكو» في أوبرا «ميكادو»، «دلل نفسك يا ولدي.» أو ما معناه ذلك.»

ضحكت جيني قائلة: «في الواقع، لا أختلفُ كثيرًا عنك؛ فالصحيفة هي التي تتحمَّل كل نفقات هذه الرحلة، لكن سأُصر على إعادة الأموال إليها الآن بعد أن فشلتُ في مهمتي.»

«عجبًا، إنَّ العمل بالصحافة أكثر صدقًا من العمل بالسلك الدبلوماسي! لم تخطر ببالي أبدًا فكرة إعادة أي أموال. إن مجرد الاقتراح يُجمِّد الدم في أوصالي، ويجعل كل شعرةٍ تقف على نهايتها مثل القنفذ المفزوع. فشعارنا في الخدمة هو، احصل على كل ما يُمكنك، واحتفظ بكل ما تحصل عليه.»

«ولكن كما ترى، تختلف حالتك عن حالتي؛ لقد بذلتَ قُصارى جهدك للنجاح، وفشلتُ أنا بمحض اختياري، ومن ثمَّ أجلس هنا وقد خُنت صحيفتي.»

قال الشاب وهو يُمسِك صندوق المُراسَلات الذي لم يُفارقه لحظة، ويضعه على الطاولة: «حسنًا يا جيني كل ما عليكِ هو أن تطلبي، وسأُعيد هذه الرسالة المُثيرة للمتاعب إلى حيازتكِ مرةً أخرى. هل أنتِ نادمة على كرمك؟»

«بالطبع لا، على الإطلاق، لن أستعيدها تحت أي ظرف. حتى بالنظر إلى الأمر من الوجهة المادية البحتة؛ إذ يعني لك النجاحُ أكثرَ بكثيرٍ مما يعنيه لي. وكما تقول، أنا غنية، ومن ثمَّ سأتخلَّى عن مهنتي في الصحافة. أفترض أن هذا هو السبب في أن النساء من النادر جدًّا أن يُحقِّقن نجاحاتٍ كبيرة في حياتهن. فغالبًا ما تكون مهنة المرأة مجردَ اهتمامٍ ثانوي بالنسبة إليها؛ بينما مهنة الرجل هي حياته كلها.»

قال الشاب في لحظاتِ تأمُّل: «يا للأسى! إن نجاح شخصٍ ما يعني عادةً فشَل شخصٍ آخر. لو أني الشخص السخي والمُخلص كما أتخيل نفسي أحيانًا، لكان عليَّ أن أرفض قَبول نجاحي على حساب فشلكِ. لقد نجحتِ أنتِ بالفعل، بينما فشلتُ أنا دون شك. ومع الكرم الذي يجعلني أشعر بضآلتي ولؤمي، ها أنتِ تُهدينني نجاحَك، وأنا أتقبَّله بأنانية. لكن ضميري مرتاح لسببٍ وحيد؛ فأنا وأنتِ سوف نتزوج، ونُصبح كيانًا واحدًا. وسيرث هذا الكيانُ جميع نجاحاتنا ويتنصَّل من جميع إخفاقاتنا. أليست هذه فكرة جيدة؟»

أجابت جيني: «إنها ممتازة، ولكن لا يسعني إلا أن أشعر بالأسف قليلًا من أجل السيد هاردويك المسكين.»

«مَن هو، أهو رئيس التحرير؟»

«أجل. لقد كان يُؤمن بقدراتي لدرجةٍ كبيرة، ومن المؤسف أن يَخيب ظنُّه.»

«لا تَشغلي بالكِ بشأن هاردويك. لا تُفكري به على الإطلاق. فكري بي بدلًا من ذلك.»

«أخشى أنني أفعل ذلك، وقد فعلتُ ذلك منذ بعض الوقت. ومع هذا، سوف أنزل في محطة لييجا وأُرسل له برقيةً بأنني لن أُحضِر الوثيقة إلى لندن.»

«سأُرسل البرقية نيابةً عنك عندما نصل إلى هناك. ولكن، إذا كنتُ أتذكَّر جيدًا ما أخبرتِني به عن هدفه، فأظنُّ أنه لن يشعر بخيبة أملٍ كبيرة. فقد فهمتُ منكِ أنه لم يكن ينوي نشر الوثيقة، حتى لو حصل عليها.»

«هذا صحيح تمامًا. كان يرغب في أن يُقدِّم الوثيقة إلى المسئول بنفسه، وكان سيُقابلني في محطة تشارينج كروس، ويحصل على المظروف ويأخذه في الحال إلى وجهته.»

قال الشابُّ في حيرة: «يجب أن أعترف أنني ما زلتُ لم أفهم الهدف وراء ذلك. هل أنتِ متأكدة من أنه قال لكِ الحقيقة؟»

«نعم، بالتأكيد. كان هذا هو الهدف. يبدو أن هناك في وزارة الخارجية مسئولًا عجوزًا يضطهد السيد هاردويك. وهذا المسئول — الذي نسيتُ اسمه؛ إذ لا أعتقد في الواقع أن السيد هاردويك قد أخبرني باسمه — على ما يبدو أنه يتجاهل صحيفة دايلي بيجل عندما يُبلغ الصحف بأخبارٍ مهمة، ويقول السيد هاردويك إنه يُفضل إحدى الصحف المُنافِسة، ولم تتمكن صحيفة بيجل، حتى الآن، من أن تحظى بأي معاملة عادلة منه. ولذلك، أراد السيد هاردويك أن يأخذ الوثيقة إليه، ومن ثمَّ يُقنعه بخطورة مُناصَبة العداء مع صحيفته. وكما فهمتُ من خطته، التي لم تكن مقنعة كثيرًا بالنسبة لي، فإن هاردويك لا يعتزم أي نيةٍ لعقد صفقة أو مساومة، ولكنه ببساطة يريد تسليم الوثيقة إلى المسئول، ومطالبته بمنح الصحيفة نصيبها العادل من الأخبار.»

«هل تقصدين أن المسئول المَعنيَّ هو الرجل الذي أودُّ أن أُعطيَه هذه الرسالة؟»

«أجل.»

«أوه، يا للمصادفة العجيبة؛ إنه خالي! ما أعجبَ هذا الأمر! هذا هو السير جيمس كارديف، الأخ الأكبر لوالدتي، وهو رجلٌ عجوز طيب، لكن أتفهم جيدًا أن مَنْ لا يعرفه عن قُرب قد يظن أنه فظ ومُزعج. وإذا كان رئيسُ التحرير يقصد ما يقوله حقًّا، فليس هناك مشكلة أو خيبةُ أمل. فلو أن كل ما هو مطلوب هو كسب ودِّ جيمي العجوز كي يُعامل هاردويك معاملةً طيبة، فيُمكنني أن أضمن ذلك. فأنا تلميذٌ لخالي. وكلُّ ما أعرفه تعلمته منه. ولم يفهم حتى الآن لماذا لا تُعيِّنُني الحكومة البريطانية على الفور سفيرًا لدى فرنسا. فجيمي سيفعل ذلك غدًا إذا كانت لديه السلطة. لقد سمعتُ عن هذه الرسالة من خلاله، وأعتقد أن نفوذه له علاقة كبيرة بحصولي على مهمة المبعوث الخاص هذه. لقد كان الحزن الذي سيشعر به خالي جيمي، لو فشلت، هو الذي وضعَ قطرة المرارة الأخيرة في كأس حزني عندما عدتُ إلى صوابي بعد تخديري على يد رجال الشرطة الروسية؛ إذ من الممكن أن يكون ذلك بمثابة ضربةٍ قوية للسير جيمس كارديف. سنصل إلى تشارينج كروس في حوالي الساعة السابعة والنصف ليلًا، وسينتظرني السير جيمس هناك مع عربته الخاصة ليصطحبَني عند وصولي. والآن، ما رأيكِ في تسوية هذه المشكلة تحت مظلة محطة تشارينج كروس؟ فإذا أرسلتِ برقية إلى السيد هاردويك كي يُقابلنا هناك، فسوف أُقدِّمه إلى السير جيمس، ولن يُواجه أي مشكلةٍ في هذا الصدد بعد الآن.»

قالت الفتاة وهي تنظُر لأسفل نحو مفرش المائدة: «أعتقد أني أُفضِّل ألا يُقابلنا السيد هاردويك.»

وعاجَلها الشاب بردِّه قائلًا: «هذا أفضل بالطبع، ما الذي كنتُ أُفكر فيه؟ إنه مجرد لقاء عائلي، ولا نريد أي غرباء فيه، أليس كذلك؟»

فضحكَت جيني ولم تُعقِّب.

الفصل الحادي والعشرون

جيني تستعدُّ لموكب زفافها

تحرَّك القطار بسلاسةٍ وسرعة من كاليه إلى دوفر، ثم وصل إلى محطة تشارينج كروس في موعده بالضبط؛ حيث وجد اللورد دونال عربة خاله في انتظاره، وأثناء نزوله هو وجيني من القطار رأى الرجل العجوز يُمعِن النظر في وجوه الرُّكَّاب بحثًا عنه، وما إن رآهما السير جيمس حتى تقدَّم نحوَهما بلهفةٍ وشَدَّ على يدَي ابن أُخته مُصافحًا وهو يصيح:

«دونال؛ أنا سعيد حقًّا برؤيتك. هل كل أمورك على ما يُرام؟»

«على خيرِ ما يُرام خالي العزيز.»

«أنا سعيد لسماع هذا أيضًا، فقد بلَغَتنا بعض التلميحات المُقلقة للغاية من الشرق.»

«إنها تلميحاتٌ مُبرَّرة تمامًا، كما سأُخبرك لاحقًا؛ ولكن في هذه الأثناء خالي العزيز، اسمح لي أن أُقدِّم إليك الآنسة باكستر، التي منحتني شرَف خِطبتها لتُصبح زوجتي.»

احمرَّ وجه جيني خجلًا تحت ضوء المصباح الكهربائي عندما استدار الرجل العجوز بسرعة تجاهها. وأمسك السير جيمس بيدِها للحظاتٍ قبل أن يتكلم، وهو يُحدِّق فيها باهتمام. ثم قال بتأنٍّ: «حقًّا يا دونال، لطالما كانت لديك عينٌ ثاقبة تجاه الجميلات.»

صاح الشابُّ مُستاءً من صراحة خاله: «أظنُّ أن هذا ليس تصريحًا دبلوماسيًّا على الإطلاق كما تعلم.»

قالت الفتاة وهي تضحك في سعادة: «في الواقع، يا سير جيمس، هذا أكثرُ من مجرد تصريح دبلوماسي، إنه مُجاملة لطيفة، وأؤكد لك أنني أُقدِّرها. ففي المرة الأولى التي قابلَني فيها، كان يظنني شخصًا آخر تمامًا.»

أجاب الرجل العجوز: «إذن، أيًّا كان هذا الشخص يا عزيزتي، فأنا واثقٌ من أنها امرأة جميلة، ويجب ألا تُعيري كلامي اهتمامًا؛ فلا أحد يفعل، وإلا لأصبح لدونال شأنٌ

آخر غير شأنه الحالي، ولكن يُسعدني أن أُخبرك أن الرحلة التي أتَمَّها الآن ستعود عليه بالنفع الكبير.»

قال الشاب، وهو ينظر إلى خطيبته: «أجل، يا خالي العزيز، هذا صحيح؛ لأنني قابلتُ في هذه الرحلة الآنسة باكستر، التي عانَيتُ فقدانها لبعض الوقت. والآن، أودُّ أن تُسديَ إليَّ معروفًا. هل تعرف السيد هاردويك، رئيس تحرير صحيفة دايلي بيجل؟»

«أجل أعرفه؛ لكنه لا يروقني، وكذلك صحيفته.»

«حسنًا، لن يُعجِب الروس أيضًا بعد ما فعله، وأودُّ فقط أن أُخبرك أنه لولا حُسْنُ تصرُّفه هو وأحد أعضاء فريقه، لكنتُ فشِلتُ في هذه المهمة. لقد خدَّرني رجال الشرطة الروسية ثم سرقوا الوثيقة. وشاهدَت الآنسة باكستر، التي كانت في القطار، كل ما حدث، ثم نجحت ببراعةٍ شديدة في استعادتها من اللصوص. لقد كنتُ مُلقًى على الأرض عاجزًا عن الحَراك وفاقدًا الوعي. فاستعادت هي الوثيقة وسلَّمتها إليَّ عندما عبرْنا الحدود، وتركَت في أيدي الروس مظروفًا مُشابهًا يحتوي على نسخةٍ من صحيفة دايلي بيجل؛ ولذا، أرى يا خالي العزيز، أنه إذا كان بإمكانك فعلُ أي شيءٍ مستقبلًا كي تردَّ الجميل للسيد هاردويك، فسوف تُساعد في سداد الدَّين الذي تدين به عائلتُنا له.»

«يا عزيزي، سيكون من دواعي سروري أن أفعل. أخشى أنني كنتُ مُزعجًا وفظًّا تجاهه. وأنا على استعدادٍ تامٍّ للذهاب إليه على الفور والاعتذار منه، إن كانت هذه رغبتك.»

صاحت جيني: «لا، ليس عليك الاعتذار؛ ولكن إذا كنتَ تستطيع مساعدته دون الإضرار بالمصالح الدبلوماسية، فسأكون مُمتنةً للغاية.»

قال دونال: «وأنا أيضًا.»

أخرج الرجل العجوز حافظة البطاقات الخاصة به، وكتب على ظهر بطاقته دعوةً وديَّةً إلى هاردويك يدعوه فيها إلى الحضور لمُقابلته، وسلَّمها إلى جيني قائلًا:

«أخبري السيد هاردويك أنني تُسعدني رؤيته في أي وقت.»

قال اللورد دونال: «والآن، يجب أن تَدَعينا نصطحبكِ إلى المنزل في العربة.»

«لا داعيَ لهذا. سوف أستقلُّ عربة أجرة، وأذهب مباشرةً إلى مكتب الصحيفة؛ لأن السيد هاردويك سيكون في انتظاري حاليًّا.»

«ولكن يُمكننا أن نوصلكِ إلى هناك.»

«كلَّا من فضلك.»

ثم صافَحَت السير جيمس وقالت، بأقل قدرٍ من التردُّد قبل أن تنطق الكلمة الأخيرة: «طابت ليلتُك خالي العزيز.»

حيَّاها الرجل العجوز: «طابت ليلتكِ يا عزيزتي، بارك الله فيكِ.» قالها بحنانٍ غير مُتوقَّع منه في ظلِّ مظهره الجليل والمهيب.

ساعد اللورد دونال خطيبته في أن تستقلَّ عربة أجرة رغم اعتراضه طوال الوقت على السماح لها بالخروج دون حماية.

فتمتَمَت جيني مُتجاهلةً اعتراضه: «يا له من عجوزٍ لطيف، أعتقد أنه لو كان السيد هاردويك قد سمح لي برعاية مصالح الصحيفة في وزارة الخارجية، عندها لم يكن السير جيمس ليُعاملني على نحوٍ مزعج.»

«إذا أقدَمَت وزارة الخارجية على فعل شيءٍ كهذا، فستُقابَل باعتراضٍ شديد من السلك الدبلوماسي؛ أتمنَّى لكِ ليلةً سعيدة يا عزيزتي.» وعلاوةً على ذلك، كرَّر ابنُ الأخت دعاءَ خاله.

توجَّهَت جيني مباشرةً إلى مكتب الصحيفة، وللمرة الأخيرة، صعدت السلالم، ودخلت مكتب رئيس التحرير حيث كان السيد هاردويك في مكتبه، وبمجرد أن رآها نهض سريعًا من كُرسيه عند رؤيتها. وصاح قائلًا: «ها قد عُدتِ؛ أظنُّ أن عدم إرسالكِ برقيةً يعني فشل مهمتكِ.»

«لا أعرف يا سيد هاردويك. إنَّ الأمر يتوقَّف على ما إذا كان هدفُك هو بالضبط ما أخبرتَني به أم لا.»

«وماذا كان ذلك؟ أعتقد أنني أخبرتكِ بأن رغبتي كانت الحصولَ على الوثيقة التي ستُنقَل من سانت بطرسبرج إلى لندن.»

«كلَّا؛ لقد قُلتَ إن الهدف هو إقناع السير جيمس كارديف، المسئول بوزارة الخارجية، بأن يتخلى عن عدائه تجاهك.»

«بالضبط، كان هذا هو الهدف النهائي، بالطبع.»

«حسنًا. اقرأ هذه البطاقة. لقد أعطاها لي السير جيمس في محطة تشارينج كروس قبل أقلَّ من نصف ساعة.»

أخذ رئيس التحرير البطاقة، وقلَّبها في يدَيه مرةً أو مرتَين، ثم قرأ الرسالة الودية التي كتبها الرجل العجوز على ظهرها.

صاح هاردويك: «إذن لقد نجحتِ، لقد حصلتِ على الوثيقة، ولكن لماذا أعطيتِها إلى السير جيمس بنفسك، بدلًا من السماح لي بتسليمها إليه؟»

أجابت جيني: «هذه قصة يطول شرحُها ولكن يُمكن تلخيصها كالتالي؛ إن السبب هو أن المبعوث الذي يحمل الوثيقة هو اللورد دونال ستيرلنج، وهو صديق قديم لي.

والسير جيمس هو خاله، وقد وعدَ اللورد دونال بأنه سيُقنع الرجل العجوز بالتوقُّف عن منح أي مزايا للصحف الأخرى على حساب صحيفة دايلي بيجل. وأنا لم أُعطِ الوثيقة إلى السير جيمس، بل أعَدْتُها إلى اللورد دونال.»

قال رئيس التحرير مُتأملًا: «اللورد دونال ستيرلنج ... اللورد دونال ستيرلنج، أين سمعتُ هذا الاسم من قبل؟»

«إنه عضوٌ في السفارة البريطانية في سانت بطرسبرج، لذلك ربما رأيتَ اسمَه في إحدى الإرساليَّات.»

«لا. إنه ليس مشهورًا مثل بقية الدبلوماسيين. حسنًا، أتذكر الآن؛ لقد التقيتُ المُحقِّقَ في ليلةٍ سابقة وسألتُه عما إذا كان قد توصَّل إلى نتيجةٍ في قضية تلك القصة الرومانسية في الأوساط الراقية التي طلبَ مُساعدتَكِ في حلِّها، فقال إنهم أوقفوا البحث عن السيدة المفقودة، وذكر اسم اللورد دونال ستيرلنج باعتباره الشابَّ الأحمق الذي انخرط في مطاردة المجهول.»

تغيَّرت ملامح جيني لسماع هذا ونهضت مُنزعِجةً وهي تصيح بانفعال: «قبل أن تقول أي شيءٍ آخرَ ضد اللورد دونال، أودُّ أن أُبلِغكَ أنني وهو سوف نتزوَّج.»

قال رئيس التحرير ببلادة: «أستميحكِ عذرًا، إذن، بعد أن فشل في العثور على الفتاة الأخرى، سارعَ إلى مواساة نفسِه بـ...»

قاطَعَتْه جيني قائلةً: «لم تكن هناك فتاةٌ أخرى. كنتُ أنا الشخص الذي يبحث عنه السيد كادبوري تايلور. لقد قدَّمتُ له عن طيب خاطرٍ مساعدة قيِّمة في مهمة عدم العثور على شخصي. ونظرًا إلى غباء الرجل، لم أجد صعوبةً كبيرة في تحقيق هدفي. لم يشك السيد تايلور ولا السيد هاردويك في أن الشخص المفقود كان موظفًا لديهما.»

صاحَ هاردويك: «حسنًا، أنا محظوظ إذن! فقد حيَّرتِ كادبوري تايلور في البحث عن نفسك، كما حيَّرتِني في الحصول على الرسالة الروسية. يبدو لي يا آنسة باكستر أنه حيثما تتعارَض مطالبُ أربابِ عملكِ مع ميولكِ، فإن مصالح أولئك تذهب سُدًى.»

«لم يدفع لي السيد كادبوري تايلور أيَّ شيءٍ مقابل خدماتي كمُحققة هاوية، ومن ثمَّ ليس لديه الحقُّ في التذمُّر. وبالنسبة إلى رحلة سانت بطرسبرج، فسأُرسِل لك شيكًا بجميع النفقات التي تكبَّدتها بمجرد وصولي إلى المنزل.»

قال السيد هاردويك مؤكِّدًا بجدية: «لقد أسأتِ فهمي، لم أُفكر حتى في التلميح إلى أن ما اكتسبتِه مرارًا وتكرارًا من الأموال التي دفعَتْها لكِ الصحيفة لم يكن عن جدارةٍ

واستحقاق، إلى جانب أنني كنتُ أتوق إلى عودتكِ، فأنا أريد مساعدتكِ في حلِّ لغزٍ حيَّرنا جميعًا. إنَّ باريس في حالة اضطراب الآن بسبب ...»

أطلقت جيني ضحكةً مجلجلة وقالت:

«سأذهبُ إلى باريس في غضون يوم أو يومَين يا سيد هاردويك لحلِّ لُغزِ تصميم فستاني، وأعتقد من نطاق معرفتي أنه سيتطلَّب اهتمامي الكامل. وما زلتُ مُصرَّة على ردِّ تكلفة رحلة سانت بطرسبرج، ففي النهاية، ثبَتَ أنها رحلة شخصية ولا يُمكنني التفكير في السماح للصحيفة بتحمُّل تكلفتها. لقد جئتُ الليلةَ فقط لتسليمك هذه البطاقةَ من السير جيمس كارديف، كما أنني وددتُ في تقديم استقالتي إليك شخصيًّا؛ ولذا، إلى اللقاء يا سيد هاردويك، وأشكرك حقًّا جزيل الشكر على منحي فرصةَ العمل في صحيفتك.»

قبل أن يتمكن رئيس التحرير من الرد، كانت قد غادرَت المكتب، فجلس ذلك الرجل الطيب على كُرسيِّه مندهشًا من مفاجأة الموقف؛ إذ كانت الغرفة تبدو فارغةً وكئيبة وتفتقر إلى حضورها.

فتمتمَ بصوتٍ خافت: «اللورد المُحيِّر دونال ستيرلنج!» وتابع بعد ذلك عمله الليلي كرئيس تحرير دون اكتراثٍ لما حدث.

كان المُعتزَم أن يكون حفل الزفاف بسيطًا وهادئًا، لكن الظروف كانت أقوى من رغبة العروسَين. فاللورد دونال مشهورٌ جدًّا والعروس جميلة للغاية. واعتقد السير جيمس أن دعوة العديد من الشخصيات المعروفة أمرٌ ضروري، وألمح إلى اللورد دونال بأن شخصًا رفيع المستوى يرغب في تكريم الحفلِ بحضوره. ومن ثمَّ، أحدث الخبر قدرًا ضئيلًا من الضجَّة في هذا الوسط الأرستقراطي. وأكدت صحف المجتمع أن هذا الشخص المرموق كان مُمتنًّا للغاية إزاء بعض الخدمات الدبلوماسية التي قدَّمها إليه اللورد دونال مؤخرًا. ولكن على كل حال، لا يمكن للمرء أن يُصدق كل ما يقرؤه في صحافة المجتمع. ومع ذلك، حضر رجل ذو مرتبةٍ عالية، ولهذا قال الناس إن الشائعة ربما كانت تنطوي على شيء من الحقيقة. وبطبيعة الحال، كان هناك لفيفٌ كبير من السفراء والوزراء أضفى وجودهم فخامةً ورونقًا على الحفل في سانت جورج، بميدان هانوفر. وجاءت الأميرة فون شتاينهايمر في رحلةٍ خاصة من فيينا، وبهذه المناسبة أحضرَت الأميرَ معها. وكان الرأي العام هو أن العريس بدا رائعًا للغاية، وأن العروس، بملابس زفافها الفخمة، كانت أجملَ مَنْ في الحفل.

أما الأميرة فكانت مُتألقةً ومرحة للغاية، وتحدَّثت إلى صديقَيها القديمَين سفيرَي النمسا وأمريكا.

فقالت لسفير أمريكا: «أنا في غاية الأسف، لم يكن لديَّ الوقت للتحدُّث إليك في حفل دوقة تشيزيلهورست، حيث اضطُررتُ إلى المغادرة مبكرًا. وكان عليك أن تأتيَ إليَّ في وقتٍ أبكر. فقد كان الكونت هنا مُهتمًّا للغاية، وقد دارت بيننا محادثة مُمتعة، أليس كذلك يا كونت؟ برفقة اللورد دونال، كما قد تتذكَّر.»

أجاب النمساوي المُسن وهو ينحني: «أجل؛ لن أنسى أبدًا هذه المحادثة الشيقة التي أجريتُها مع سموكِ، وآمُل أنكِ — من جانبك — لم تنسَي الدعوة الودية التي وجَّهتِها لي لزيارة قلعتك مرة أخرى في ميران.»

«في الواقع يا كونت، أنت تعرف جيدًا مدى سعادتي برؤيتك في أي وقت، سواءٌ في فيينا أو في ميران.»

وظل السفير الأمريكي صامتًا، وهو ينظر بالتناوب إلى العروس والأميرة والحيرة تعتلي ملامحَه.

لقد برهنَ له لُغز حفل دوقة تشيزيلهورست على الكثير، مثلما برهنَ البحث عن السيدة المفقودة على الكثير للسيد كادبوري تايلور.


هنداوي